


علاء الدين وحيد
عواطف مضطربة
معرض الشارقة الدولى للكتاب
SHARJAH BOOK WORLD
Dhs. ١٦ درهم
دار سنابل للنشر والتوزيع

عواطف مضطربة

عواطف مضطربة

علاء الدين وحيد

دار سنابل للنشر والتوزيع

المنصورة ١١٢ شارع السكة الجديدة

فبراير ١٩٩٦

أنطون تشيكوف والحب

"الحياة سيئة دون حب. إننا نتحدث كثيراً جداً ونقرأ كثيراً جداً عن الحب، ولكن ما أقل ما نحب نحن أنفسنا، وهذا أمر سيئ!".

تشيكوف

فى قصة "ثلاث سنوات"

(١)

(أ) تشيكوف فى مرآة العالم

● أود أن أعرب لك عن المحبة الحارة الصريحة، التى أغذوها لك فى نفسى منذ الطفولة، وأن أحدثك عن الحماسة التى تساورنى أمام عبقريتك الفاجعة والرقيقة الحاشية معاً، والتى هى وأبداً، عظيمة الجمال فائقة النعومة.

إن عبقريتك روح طاهرة مشرقة مشتبكة بروابط الجسد، مقيدة بالضرورات الخسيسة التى تقتضيها الحياة اليومية، وهذا مصدر الألم فيها. فلنسكب الدموع: أن نواحها لن يمنع نداءها الصاعد نحو الله من أن يصل إلى الأسماع جلياً.

من مكسيم جوركى إلى تشيكوف

("بين جوركى وتشيخوف – مراسلات" ـ
ترجمة جلال فاروق الشريف ـ ط١ – ص١، ٢)

• عندما أطالع قصص الأدباء الأجانب، فأننى أفهم تأثير تشيخوف العميق فيهم. أقول هذا وأنا أفكر بالأدب الإنكليزى فى بداية قرننا، وبنتاجات بريم جاند، وبالفرنسيين، وبلوسين الكاتب الصينى (كتب كوموزو عن تأثير تشيخوف فى الأدب الصينى)، ومن الصعب على أن أتصور هيمنغواى وبيرانديللو ومورافيا بدون تشيخوف.

أما مسرحياته فإنها لا تتجانس مع المفهوم الشرطى للعروض المسرحية، ولكنها لازالت تعرض فى مسارح العالم فى موسكو ولندن وطوكيو وباريس وأستوكهلم ونيويورك .. وتكلم الناس معى فى كل مكان زرته عن "نورس" تشيخوف .. لقد طاف هذا النورس بحق كل بحار الدنيا!

إيليا ايرنبورج فى "تشيخوف"

– ترجمة د. ضياء نافع ـ ص٨

• إن إرادة تشيكوف القوية التى لاتقهر، كانت هى نواة شخصيته. وقد كانت هذه الإرادة تسفر عن نفسها فى مظاهر حياته، خاصة عندما وضع لنفسه منذ شبابه المبكر مستوى عالياً من الاستقامة الأخلاقية، وأخضع سلوكه لها بكل صرامة. ولقد عرفت روسيا كتّابا كثيرين، كانوا يتطلعون إلى أن تسير حياتهم وفقاً لما يمليه الضمير - جوجول، تولستوى، نكراسوف، ليسيكوف، جليب يوسبنسكى، وحارشين، وقليلين غيرهم - ونحن نعجب لطهارة سلوكهم المتطلع دائما نحو ما هو "صحيح" وحقيقى، غير أن هذا المستوى كان يفوق طاقتهم فى بعض الأحيان. فحتى هؤلاء كانوا يضعفون، وأحياناً ما يسقطون فى الطريق. أما تشيكوف فواضح أنه لم يضعف بالمرة. فيكفى أن يفرض ضميره هذا الواجب الشاق أو ذاك حتى تجده ينجزه مهما كلف نفسه.

كوربى تشوكوفسكى

"أ. ب. تشيكوف" ترجمة احمد القصير -

ص١٣٨ - ١٣٩

• إن استقلال الفنان الناجز هذا، لم يكن تشيخوف يبشر به بين زملائه فحسب وبين النقاد والجمهور، كان يزعم أنه يطبعه كذلك على أبطاله. وعلى غرار بوشكين أو تولستوى قبل (توبته). كان تشيكوف يعتقد أنه مؤهل لطرح المسائل لا لحلها. لا موعظة أخلاقية مقنعة فى عمل أدبى. لا رسالة.

بل إرادة الحياة دون محاولة إثبات أى شىء. الكاتب هو الذى يجب أن يكون فى خدمة شخصياته، لا الشخصيات هى التى يجب أن تكون فى خدمة الكاتب. يجب أن تكون لديه الشجاعة ليختار بين حضورهم أو حضوره. إذا تدخل ليفسرهم، أو ليدينهم، أو ليحاكمهم، أو ليغفر لهم، فإنه يتجاوز حقوقه. وبنسبة مايختفى خلفهم، يكون حظهم أكبر فى الاستمرار فى الحياة حتى بعد موته".

هنرى ترويا "تشيخوف"

- ترجمة خليل الخورى ص١٤٠ - ١٤١

• ومأساة كثير من شخصياته هى، فى المحل الأول، مأساة الحساسية تصارع التبذل .. غير أن التبذل دائم الانتصار. وكلما زاد التبذل فى الاحتيال والنزعة العملية والوحشية، زاد اقترابه مما يحسبونه النجاح فى الحياة.

وإذا كان تشيخوف منحازاً على الإطلاق، فإنما ينحاز إلى ضحاياه، إلى كرمهم وحرارة قلوبهم الطيبة. وحتى عندما يتسلى بهم (فى طرفته "العزيز" مثلاً) فإنه يظل يراقبهم بابتسامة فطنته، لا سبيل إلى تحدى سحرها الكامن!

يانكو لافرين

"تعريف بالرواية الروسية"

ترجمة مجدى الدين حفنى ناصف - ص١٦٩-١٧٠

• يجرد شخصياته من المين والأكاذيب، ويعرضها في جوهرها، فاضحاً الأوهام، والعادات والخداع. ولمؤلفاته الدوى الحقيقى للصدق والإخلاص.

مارك سلونيم

"مجمل تاريخ الآدب الروسى"

- ترجمة صفوت عزيز جرجس - ص١٦٣

• كان الأدب بالنسبة له -قبل كل شىء- دفاعاً عن الإنسان، دفاعاً عن الإنسانية فى الإنسان.

ايليا ايرنبورغ

• كان تأثير تشيكوف لايقاوم سواء فى حزنه أو مرحه. كان سلطانه على قلوب البشر عظيما فى كلا هذين النقيضين من مشاعر النفس الإنسانية. لقد كان يحتفظ إلى آخر المدى، سواء فى تعبيره عن الحزن أو الفرح، بذلك الحب العارم للحياة بكافة جوانبها، وكأن ذلك هبة إلهية توهب للشعراء فى مهدهم ولا تتركهم حتى فى أحلك لحظات حياتهم.

كورنى تشوكوفسكى

• لم يكن تشيكوف متحمساً فقط لتزيين الأرض بالأزهار والأشجار، بل كان متحمساً أيضاً لتغيير مجرى الحياة. وكانت طبيعته من الإيجابية والدينامية والدأب، بحيث لم يكن يكفيه أن يصف الحياة، وإنما أن يسعى أيضاً لتغييرها وبنائها من جديد.

كورنى تشوكوفسكى

• فطوال عشرين عاماً وحتى الشهر الأخير من حياته لم يمض يوم واحد دون أن يهتم بشئون الآخرين.

كورني تشوكوفسكى

• وتعتبر أعماله وثيقة اتهام حقيقية ضد اللاإنسانية فى أيامه، وكان عطفه العملى اليومى على الأشقياء والمساكين، يمتزج على الدوام بالنضال فى سبيل سعادة الطبقات المغلوبة على أمرها. لم ينس قط أن حب الإنسانية يتجرد من معناه مالم يمتزج بعطف حى تجاه الأفراد. فالحنو على الناس كان شيئاً مقدساً لديه. وكان بسطاء القوم غير القادرين على قراءة أعماله، يحسون أنه عطوف بالفعل.

كورنى تشوكوفسكى

(ب) من كلمات أنطون تشيكوف

• فى الطبيعة أشياء رائعة تمس الشغاف، فيها من الشاعرية والإنعاش مايعوض كل متاعب الحياة.

• ليس المال كل شيء ففى وسع المتسول أن يسعد.

• إن ألف عصفور أو أرنب سيئ الخلق خير من ذئب تقى!

• إذا كان للشخصيات الطيبة التى يخلقها الأدباء فى قصصهم قيمة تعليمية واضحة، فلاشك أن للشخصيات الطيبة التى تخلقها الحياة نفسها قيمة تعليمية مضاعفة.

• كلما زاد المرء اقتراباً من الحقيقة، زادت بساطته ووضوحه وأصبح الناس أكثر قدرة على فهمه.

• حيث لاتكون معرفة لا تكون شجاعة.

• لقد عشت حياة متنوعة واخترت متعى بحكمة، فأنا راض .. ولكن لو كان من نصيبى تجربة مايشعر به الفنان من سمو حين يبتكر عملاً فنياً، فإننى أعتقد أنى كنت أحتقر جسمى المادى هذا ومايتصل به. ولطارت روحى وحلقت فى الآفاق.

• عندما لا يستطيع الناس أن يفكروا فى أى شىء يقولونه .. يقولون الشباب الشباب!

• حين يفتقد الناس الحياة الحقة يعيشون على الأوهام، فهى على أى حال أحسن من لا شىء.

• العالم يحطمه الحقد والعداء والخصام وليس النار والسلب.

• فما وهب الإنسان العقل والقوة على الابتكار، إلا ليزيد مما أعطاه الله له. ولكنه إلى الآن دائب على التخريب لا الخلق.

• الحياة الخاملة ليست حياة فاضلة.

• ليس هناك من الناس من ينظر إلى الناس أو إلى الطبيعة نظرة مباشرة موضوعية لاتحيز فيها.

• آه لو استطاع الإنسان أن يعيش بقية حياته في شكل جديد. أن يصحو ذات صباح صافياً هادئاً ويحس أنه يبدأ حياته من جديد، وينسى ماضيه الذي يكون قد تبدد كالدخان.

• عندما صحوت اليوم، وتركت فراشي، وارتديت ملابسي، أحسست فجأة أن سر الأشياء جميعاً قد وقع في يدي، وأني أعرف كيف ينبغي أن تكون حياتي.

• على المرء أن يعمل، وأن يجهد حتى يسيل منه عرق الجبين، مهما كان مقداره، لأن هذا هو معنى حياته، وهدفها وسعادتها وحماسها.

• على المرء ألايكذب أبداً. إن الفن يمتاز بهذه الخاصية، وهي أنه لا يمكن أن نكذب ونحن نمارسه. يمكن أن نكذب في الحب، في السياسة، في الطب، يمكن أن نخدع الناس، وحتى الله -وهناك أمثلة- لكن لا يمكن أن نكذب في الفن.

• إن السعادة لاوجود لها إلا في أمانينا.

• ما أمر أن يعزف المرء بكل هذه المهارة، ثم يتبين في الوقت نفسه أن أحداً لا يفهمه!

• إذا كثر العلاج وتعددت أصناف الدواء، فمعنى هذا أن المرض عضال!

• لقد كانت أياماً طيبة إذن تلك الأيام، إنهم كانوا يضربون الناس بالسياط على كل حال!

• مامعنى أننا سنموت .. قد يكون للإنسان مائة حاسة. وهو إذا يموت لا يموت معه غير الحواس الخمس التى نعرفها، وتبقى الخمس والتسعون الأخرى حية لا تموت.

• إن علينا أن نتعلم ونتعلم، ونحاول أن نجمع من المعارف مايمكن جمعه، لأن الحركات الاجتماعية الجادة لا تكون إلا قرينة المعرفة. وسعادة البشرية المقبلة تقوم على العلم.

• هناك شيء واحد لاشك فيه. إن الحياة ينبغى أن تنظم على نحو آخر.

• الفن يمنحك أجنحة تحملك بعيداً. بعيداً. فإذا سئمت القذر والمصالح الدنيا، وغضبت وحنقت وسخطت، وجدت الراحة والرضا فى الجمال وحده.

• الحب ليس إلا حاجة جسمية أولية، كالحاجة إلى الغذاء والملبس.

• اتباع إيحاء القلب دون قيد لايعود على الأخيار بالسعادة دائماً.

• الإباحة تجرى فى لحمنا ودمنا، وعلى الإباحة درجنا. ولكن الرجل إنما كان رجلاً لقهره الحيوان الذى فيه.

• الشقاء لايوحد الناس بل يفرق بينهم، وحيث يخال المرء أن الاشتراك فى الحزن يمكن أن يوحد بين البشر، يجد ظلماً ووحشية يفوقان مايجده عند الراضين نسبياً.

• الحياة لعبة شاقة إذا لم تكن ابتكاراً نفسانياً.

• الفضيلة والطهارة لايفترقان عن الرذيلة إلا بخيط رفيع جداً.

• أنا مثل حى للاحتجاج. أرى الاستبداد فأحتج. والتقصير والنفاق فأصيح .. أنا لا أقهر، ومحاكم التفتيش الأسبانية ذاتها لا تستطيع أن ترغمنى على الصمت. أجل .. أقطع لسانى، وسوف أحتج بالإشارات، اسجنى فى قبو وسوف أصرخ عالياً، ليسمعنى الناس على بعد فرسخ كامل، أو أترك نفسى تموت جوعاً لأضيف ثقلاً آخر على ضمائرهم السوداء، أقتلنى وسوف أتحول إلى شبح!

• فى حياتى، إذا كان لى أن أحكم عليها من خلال راحة ضميرى، فإننى لم أشته لا فى الأقوال ولا فى الفعل ولا فى التفكير ولا فى قصصى ولا فى مسرحياتى الخفيفة، لم أشته إمرأة قريبى، ولا عبده، ولا ثوره، ولا أيا من حيوانات قطيعه. لم أكن مراوغاً، ماكراً، لم أمتدح الأقوياء، ولا بحثت عن أفضالهم، لم ألجأ إلى الابتزاز، و لم أقبل أن أعال من قبل أحد. صحيح أننى عشت فى الكسل، وضحكت بجنون، وأكلت كثيراً، وشربت كثيراً، وعشت حياة ماجنة، إلا أن ذلك كله لايعنى سواى، ويعطينى الحق فى التفكير بأننى فى ما يتعلق بالإطلاق، لا أتجاوز المعدل، لا هبوطاً ولا صعوداً. لا أعمال باهرة ولا دناءات. أنا مثل غالبية الناس.

(٢)

يعتبر الأديب العبقرى أنطون تشيكوف (١٧يناير١٨٦٠ - ٢ يوليو ١٩٠٤) قبل كل شىء، مثالاً لقوة الإرادة. التى مكنته من أن يصنع نفسه بنفسه، ويتخلص من عيوبه، وينمى فضائله ومواهبه. ولو لم يبذل الصعب والمستحيل ويناضل باستماتة، لما أصبح الاسم الذى عرفه العالم .. إنساناً وفناناً فى القمة. ولضاع على الأقل كما ضاع أخويه، وكانا من أصحاب المواهب الفنية. يكتب تشيكوف عن نفسه، وهو يراسل أحد أصدقائه: "أكتب قصة عن رجل شاب، إبن قن من أقنان الأرض، كان يعمل أميناً لأحد المخازن، ثم صبياً فى جوق مرتلين، ثم تلميذاً، ثم طالباً تعلم أن يحترم أصحاب الرتب، وأن يقبل أيدى القسيس، وأن يقدس أفكار الآخرين، ويشكر لكسرة خبز، ويجلد من حين لآخر، ويذهب للمدرسة فى أحذية ممزقة، ويضرب الحيوانات ويعذبها، وهو إلى جانب ذلك مغرم بتناول الغذاء عند أقاربه الأغنياء، ويتصنع الرياء أمام الله والناس بدون أدنى احتياج إلى ذلك، ويتم كل ذلك فى بساطة لشعوره بعدم أهميته. سأكتب كيف أن هذا الشاب يعتصر العبودية من نفسه فى قطرة واحدة، وكيف يستيقظ ذات صباح جميل، وهو يشعر أن عروقه يجرى بها دم إنسان حقيقى وليس دم عبد"!

والبيئة الفقيرة التى ولد فيها وهى تبغضه فى نفسها، لم تغرز فيه غريزة اللهفة على الثراء، وعشق المال وكنزه. بل

ولدت ماهو أهم .. كراهية روح العبيد المستولية على العقول والقلوب، وكانت هذه الروح، هى أول ماقاوم تشيكوف فى نفسه، إن العيش فى ظل نظام حكم قاس مستبد كحكم القياصرة الروس، لايشيع فحسب الذل والهوان وإراقة ماء الوجه .. بل يأتى على كل مايميز الإنسان على الحيوان. وكان تشيكوف وأسرته يعانون من ذلك بشكل أكبر، إذ لم تطل بهم بعد حياة الحرية الفردية. فهم إلى عهد قريب كانوا من العبيد رقيق الأرض، ولولا أن جد تشيكوف افتدى نفسه، واشترى حريته وحرية أسرته بالمال لظلت العائلة راسفة فى قيود العبودية الرسمية، التى كانت سائدة فى روسيا فى ذلك الزمان! يقول دكتور محمود الشنيطى فى مقدمة ترجمته لرواية أنطون تشيكوف "حياتى": "ينتمى أنطون تشيكوف إلى أسرة من الفلاحين الأقحاح. كان جده يجور تشيكوف من الرقيق فى مقاطعة فورونيش بروسيا الوسطى، وقد استطاع بعمله الدائب أن يقتصد ثلاثة آلاف وخمسمائة روبل، فيشترى حرية أسرته سنة ١٨٤١، أى قبل إلغاء الرق بنحو عشرين عاماً. وكانت الأسرة من ثمانية أفراد، وأعفيت ابنته الكسندرا من الضريبة".

وزوال العبودية الرسمية ليست وحدها كافية فى بلد متسلط، يزداد فيه الأغنياء غنى، والفقراء فقراً، لانتفاء روح الرق من أصحابها والتنعم بمباهج الحرية. ومن هنا يظل الإنسان يرسخ فى الأغلال المعنوية وهى أشد فتكاً .. والتى تلصقه بالأرض، وتمنعه من رفع رأسه إلى السماء. وكذلك

فإن مناخ السلطة الاستبدادى وهو يسلب المواطن أثمن ما يملك، ويفرغ قيمه من محتواها، ويملأ فراغها بما يشوه الإنسان فيه، وهو يحاط بالقبضة الحديدية والاستغلال .. يشيع فى المجتمع على كافة المستويات مفاهيم التسلط. متجاوزاً العام إلى الخاص، والدولة إلى الأسرة. فتنضح الخلية البسيطة بما تنضح به الخلية المركبة وهى المجتمع، من قسوة وجمود وفساد. وقد عانى تشيكوف داخل أسرته منذ طفولته، من قسوة الاستبداد، متمثلا فى أبيه، ماظل يذكره طوال حياته.

والاطمئنان إلى المنطق كما ينتظر أن يستشعر الإنسان فى تفسير ظواهر الأشياء .. أمر يدعو إلى الخطل! وكذلك الحال بالنسبة إلى موقف أسرة تشيكوف من الاستبداد. فالنظرة الأولى إلى ثورة الجد على عبوديته وعبودية أسرته، ونضاله المستميت عدداً من السنوات الطوال، بالعمل الشاق والحرمان الشديد لكثير من ضروريات الحياة، وادخاره المال فى سبيل شراء حريته وحرية أسرته .. ربما لا يعنى إلا شيئاً واحداً، هى كراهيته للاستبداد، وتطلعه إلى أن ينعم جميع الناس بالحرية. ولم يكن هذا صحيحاً! فالرجل كان جباراً متسلطاً على الآخرين. سواء من يوقعه سوء حظه تحت إمرته، أو من أفراد أسرته! ويسرى نفس الدم فى شرايين ابنه .. والد فناننا. ويرثه فى ذات القسوة، حتى تصبح حياة الأبناء وأمهم قطعة من الجحيم.

ولما كان بافل تشيكوف -أب الأديب العالمى- قد تمكن من أن يحقق أمنيته، ويفتتح لنفسه متجراً صغيراً مستقلا

بنفسه، بعد أن ظل وقتاً غير قصير عاملاً عند غيره. فقد استعان فى كدحه بأولاده الصغار، من الفجر وقبل شروق الشمس بزمن طويل إلى المساء المتأخر. وبالتحديد من الساعة الخامسة صباحاً حتى ساعة واحدة قبل منتصف الليل. تقطعه فترة الذهاب إلى المدرسة والعودة! بعد أن أصبح العمل فى المتجر عند الأب تجاه أولاده هو الأصل، والمدرسة هى الفرع! وتحاول الأم أن تدافع عن الصغار وبالذات عن أنطون، الذى كان الأب يكلفه بإدارة المحل فى غيابه -وما أكثر ما كان يغيب- ومسك الحساب. وكان الصغير يقاسى الكثير من جراء هذا التكليف، ولايبالى الأب بما يكابد .. لأنه أصلاً لايفهم العلة فى الشكوى.

والأم التى لانغماسها فى القيام بواجباتها المنزلية، وتوزيع حبها على الجميع .. لاتأبه لحقوقها أو تغضب للمساس بها .. يتحرك سطحها الساكن، إذا تألم أحد من أولادها .. وتواجه زوجها! وكانت الأم تفهم زوجها جيداً، وتدرك مالا يصل إليه صغارها. فهى تعرف أن الحب لا البغض ماوراء قسوة الرجل على أبنائه. فلاشك أن بافل تشيكوف يحب أولاده .. ولكن بطريقته هو لا بطريقتهم هم! فالشدة التى يتخذها تجاههم، كانت قبل كل شىء .. منهجاً فى التربية لاعقاباً. فقسوة الحياة التى عانى هو منها كثيراً، وعرفها أبوه وجده، أراد ألا يعرض أولاده لها. وتأتيه الأم من الجانب الذى يفضل، العقل وليس العاطفة. إن الصغير بقدراته المحدودة، لا قبل له بالعمل الشاق فى الدكان بجانب مدرسته. ويجيب

الرجل حانقاً "يجب أن يعتـاد عليـه. أنـا أعمـل، فليعمـل هـو كذلك. على الأولاد أن يعينوا آباءهم"! ولاتتخـاذل الزوجـة فى مهمتها، تستمر فى الدفاع ..

– لكنه ظل فى هذا الحـانوت طيلـة الأسبوع. دعـه على الأقل يستريح الأحد.

– عوضا عن أن يرتاح، فإنه يذهب إلى الشارع مع الأولاد ليتصـرف كالأبلـه. إذا لم يكـن أحـد الأولاد موجـوداً فـى الحـانوت فـإن البـائعين يـأخذان فـى سـرقة الملبس، ومـن ثـم الفلوس!

لم يكن الأب يرى تعارضاً ما، بين أن يجمـع الصغـير يوميـاً بين عملين. يحتاج كل منهما إلى تفـرغ كـامل مـن صاحبـه. بين إشراف الإبن على العمل المهلك فى المتجر قارس الـبرودة، وبين استذكار دروسه فى هذه الأثناء وإتقان عمـل الواجـب! ويدهش أن أنطون لايستطيع أن يفعل، بينما هـو -أى الأب- يتمكن بسهولة من قضاء السـاعات وهـو فـى المحـل يقـرأ فـى الكتاب المقدس! كأن المسألة مسألة قراءة!

وبالرغم من أن الأم هى الأخرى مثل الأب تنتمى إلى أصـل من عبيد الأرض، وكان أبوها تـاجر قمـاش ومـات فـى أحـد أسفاره بعيدا عن أسرته، إلا أنها علـى جهلهـا، كـانت ذكيـة بالفطرة، ولعلها أكثر ذكاء من زوجهـا الـذى يعـرف القـراءة والكتابة، ويهوى الموسيقى والرسم. فهى فى مواطـن عديـدة

ذات رأى صائب، يلتمس في النهاية حلا لما تنكب رجلها من طريق!

في تطلع الأب إلى مستقبل زاهر وغير عادى لأولاده، هداه تفكيره إلى أن أليق وسيلة لذلك، هي إلحاقهم بأغلى مدرسة في المدينة. والمصاريف الغالية تقترن عند الفقراء والطبقة المتوسطة عادة، بالأهمية والرفعة. وكانت هذه المدرسة أجنبية .. يونانية. وعارضت الزوجة الفكرة .. ربما لأنها بحس الروسية الصميمة، تنحاز تلقائياً إلى مواطنيها. وربما لأن مظهر المدرسة ومعلمها الأوحد وتلاميذها الأشقياء، لا توحى أبدا بأن وراءها شيئا ثمينا. وربما لأن تكاليف الدراسة فيها باهظة، أضعاف المدرسة المحلية .. والبيت في أمس الحاجة إلى الفارق المالى. ولكن الزوج لا يعبأ بكل هذه الاعتراضات، ربما لأن قائلتها إمرأة .. وهو كرجل شرقى حمش لا يثق فى عقل امرأة! ويصدق ظن الأم، فبعد أن مكث الطفلان الكسندر (٩ سنوات) وأنطون (٧سنوات) عاماً كاملاً، فشلا تماما في استيعاب أى تقدم! وكانا ضحية مقرر موجه إلى الطفل اليونانى لا الروسى! ويصحح الأب الخطأ، ويدخلهما في العام التالى مدرسة محلية، كما أشارت زوجه منذ البداية!

كان عذاب الصغار لا يتوقف عند اليوم المدرسى، بل يمتد إلى العطلة الأسبوعية أيضاً .. وإن تغيرت النوعية! ففى يوم الأحد لا يعرف الأطفال فيه كذلك طعم الراحة، ونعمة غلق المدرسة أو المتجر، الذى يقع بالفعل. فمعاناة أخرى لاتقل إزعاجاً تنتظرهم فيه. وإذا كانت المشاق الأولى ترتبط

بالعمل، فإن الثانية تتصل بالفراغ .. وبذلك وقعوا بين شقى الرحى! ومن غرائب الأشياء أن الهوان الذى لاقاه الأبناء فى أيام الآحاد والأعياد أيضاً، جاء نتيجة النيات الطيبات، وابتغاء وجه الله. وصدق المثل الذى يقول إن طريق جهنم مفروش بالنية الطيبة! فالأب الصارم كان صاحب موهبة فنية، ولكن القسوة التى فى دمه كانت أقوى من حبه للرسم والموسيقى والعزف على الكمان الذى يجيده! و لم تستطع رهافة هواياته ورقتها أن تغير من طبيعته! يهديه تفكيره إلى أن يستفيد من موهبته فى عمل نافع للدين والمدينة. فيكون فرقة ترانيم، تقدم نشاطها فى الكنيسة كل يوم أحد وفى كل عيد .. ومن أعضائها أطفاله الثلاثة! وهذا يعنى لديهم التدريب الدائم، والسهر الطويل، والقيام المبكر .. وكله على حساب النوم والحرمان منه!

من ذكريات الكسندر شقيق أنطون تشيكوف، عن أخيه فى تلك الفترة -ترجمة دكتور عبد القادر القط فى "أ. ب. تشيكوف"- قوله: "مسكين أنطون. لشد ماعانى وهو غلام ضعيف صغير، ضعيف الصدر، لم يوهب أذناً موسيقية ولا صوتاً قوياً. وكم من الدموع قد أذرفت أثناء التدرب على الترنيم، وكم من نوم الطفولة البرئ قد بدده ذلك التدريب، الذى كان يستمر حتى ساعة متأخرة من الليل. لقد كان بافل بيجروفتش دقيقاً صارماً فى كل ما يتعلق بالصلوات الكنسية. فإذا أقيمت صلاة صباح فى مناسبة دينية كبيرة

أيقظ أطفاله فى الساعة الثانية أو الثالثة صباحاً، وساقهم إلى الكنيسة مهما تكن حالة الجو .."!

والجوع إلى النوم فى حياة تشيكوف، يحتاج إلى وقفة. لقد تغلغل رعب الحرمان من النوم فى نفس أنطون تشيكوف، حتى بعد أن تجاوز سن الطفولة والمراهقة بسنوات طويلة. ليطارده فى أحلامه وهو كبير مشهور .. فى شكل كابوس ينغص عليه ليله. وهذا التوتر الممزق يصل إلى قمته، ليتيح لأدب القصة القصيرة فى العالم كله، أن يثرى بأحد نماذجه الرفيعة وأديبنا العبقرى يتناول قضية غول الحرمان من النوم، فى عمل فنى عظيم هو "تريد النوم". القصة التى ترجمها فى الأربعينيات نجاتى صادق، وتجسم الألم البشرى، والأعصاب المحمومة، والصوت الصارخ فى البرية .. الذى لا ينجده أحد، وفاركا بطلة القصة .. الصبية الفقيرة ذات الثلاثة عشر عاماً، التى تعمل خادمة، لا تعرف للنوم طعماً. فبعد عمل النهار المتواصل الشاق، الذى يتركها مزقاً متناثرة أشبه بجثة هامدة، تتلهف على ركن تنام فيه. يوكل إليها كل ليلة إنامة الطفل الوليد دائم الصراخ.

ومع توالى الليالى بلا نوم تقريباً، إلا لحظات سريعة تهوم فيها، تصبح القضية حياة أو موت بالفعل. وفى سبيل أن تنعم بالنوم المستحيل، تعمد وهى بين اليقظة والحلم لاتعى، إلى إسكات مصدر الصراخ. فتقدم وقد اختلطت الأشياء وغاب

الإدراك، وبرزت غريـزة الحيـاة المتمثلـة فـى شـىء واحـد هـو النوم. إلى كتم أنفاسه .. لتنام.

ويظـل أنطـون تشـيكوف يذكـر مهمـا مـر بـه مـن العمـر، وتقدمت به السن، وبلغ من شهرة، ماتعرض له من قسوة أبيه. وهو يضربه بكل الأدوات .. حتى بالسوط! يكتب على لسان لابتيف فى رواية "ثلاث سنوات" -ترجمـة فـؤاد دوارة- وهـو يخاطب صاحبته: "إنى أذكر كيف بـدأ أبـى يعلمنـى أو بتعبـير أدق يضربنى حين لم أكن قـد بلغـت الخامسـة مـن عمـرى .. كان يجلدنـى، ويشـد أذنـى، ويضربنـى بقبضتـه علـى رأسـى، وكانت أول فكرة تخطر ببالى كل صبـاح هـى هـل سـيضربنى أبى اليوم أم لا. لم يكن مسموحا لى ولا لفيودور بـاللعب أو بالجرى هنا أو هناك، بل كان علينـا أن نذهـب مبكريـن كـل صباح لحضور الصلاة، وتقبيل أيدى القسس والرهبان، وقراءة التراتيل. أنـت متدينـة وتحبـين هـذا كلـه، ولكنـى أخشـى أن أكون قد بعدت عن الدين. وكلما مررت بكنيسـة تذكـرت طفولتى وملأنى الفزع. وحين بلغت الثامنة أخذت للعمل فى المخزن كصبى صغير عادى، وكان ذلك أمراً سيئاً بالنسبة لى، لأنهم كانوا يضربوننـى كـل يـوم تقريبـاً، وبعـد ذلـك، حـين أرسلت للمدرسة، كانوا يعطوننى دروساً حتى موعد الغـذاء، وأقضى بقية اليوم فى المخزن".

وهذا بالضبط نفس ماحدث لتشيكوف!

كانت النسمة الحنون الوحيدة فى طفولة تشيكوف وإخوته وأخته، هى أوجينى ياكوفلفنا موروزوف .. أمه. والأم فى المجتمع التقليدى الرجعى فى القرن التاسع عشر، فى روسيا القيصرية وفى أى بلد مماثل، هى البلسم الأول المخفف للآلام والأحزان فى حياة الأبناء. ولعل السبب قبل أى شىء آخر، هو أنها نفسها قبلهم، تتعرض من الرجل .. الأب والزوج لذات القسوة التى يتعرضون لها! فالكل فى الهم سواء! ولكنها لموقعها تملك فى أضيق نطاق، أن تمد يد المساعدة الحقيقية، بكافة أشكالها المعنوية والمادية أيضاً. فى هذا الإطار الضيق كانت حركة الأم المحدودة، ولكنها الضرورية الهامة. التى مكنت الأبناء من الوقوف على الجانب الآخر من عطاء الوالدين .. الرحمة التى تقابل القسوة. وإذا كان المناخ العام الرجعى السائد فى البلاد، لا يسمح كثيراً للزوجة والأم أن تبرز كشخصية قوية وسط الأسرة، تكون نداً للزوج والأب أو قريبة منه. فلم تكن أوجينى ياكوفلفنا بالتى تفعل أصلاً. فهى صاحبة شخصية طيبة أقرب إلى الاستسلام، لا تقدر أن تواجه استبداد زوجها إلا قليلاً جداً .. عندما يشتط أكثر من اللازم. ولقد قعد بها عن أن تخفف أكثر عن أولادها، شدة الأب وعنفه .. كثرة ولاداتها التى استنزفت قواها. بعد أن أنجبت ست مرات!

ومع أهمية هموم الأولاد إزاء قسوة الأب، فهناك أخرى تتقدمها، وهى هموم العيش والفقر، حيث كانت معركتها الأولى اليومية. يصور هنرى ترويا فى "تشيخوف" -ترجمة

خليل الخورى- هذه المعركة اليومية بهذه الملامح: ".. دائما منهمكة فى المطبخ أو جالسة، وظهرها مستدير، إلى ماكينة الخياطة. أفلم يكن لديها ستة أبناء يجب إطعامهم وإلباسهم؟ كانت تحزن لأنهم كانوا يبلون الملابس كثيرا، ويكبرون بسرعة كبيرة. كان رأسها مسكوناً بهموم ملابسية: إطالة معطف. ترقيع بنطلون. كل شىء يكلف غالياً. ولم تكن تكف عن جمع الكوبيكات فى فكرها. كانت تخشى أن يتهمها زوجها بعدم كفايتها فى إدارة البيت".

ولاريب أن آلآم طفولة تشيكوف التى أرهقته كثيراً فى وقتها، كانت لها بصمتها فيما تلاها من مراحل حياته. ولاشك أن باعث بعضها كان التعصب الدينى للأب. إن التدين السطحى مرادف دائما للقسوة والتعصب والجهل. لأن الوقوف عند القشور، وسطوح الأشياء، والمفاهيم الرجعية السائدة، التى تتزيى بزى الدين، تسد الطريق على الإنسان أمام الوصول إلى جوهر الدين الصحيح .. وهو كله محبة وعطف وإشفاق. ومن هنا افتقد تشيكوف فى طفولته وشبابه، شيئاً عظيم الأهمية .. ظل إلى آخر أيام عمره يذكره طويلاً ويتحسر على مافاته منه فى بداية حياته، وهو الحنان. يكتب تشيكوف عن هذه الفترة فى مسيرة أيامه قائلاً: "لقد كانت طفولتى خالية من العطف، حتى ما أزال إلى اليوم أنظر إلى العطف كأنه شىء غير مألوف، شىء ليس لى به خبرة كبيرة من قبل".

ومع هذا كله، فلم تكن الصورة قاتمة كما يتبادر إلى الذهن. لأن تشيكوف لم يدع القهر يحطم معنوياته ويأسره بتشاؤمه، بل استطاع بشكل ماأن يقاوم السوء المحيط بحياته، بأن تآلف من موقع العجز مع القبضة الحديدية .. غير مجتر متاعبه. وكذلك فعل إخوته. سلاحه في ذلك الفكاهة والسخرية من كل مسبب للأذى! يقول ف. يرميلوف في "أ.ب. تشيكوف" - ترجمة د. عبد القادر القط وفؤاد كامل: "وكانت روح الفكاهة عند الإخوة تشيكوف حادة إلى درجة عجيبة. وبرغم ما كانت عليه من براعة وجرأة فإنها كانت مع ذلك تتسم بالطيبة وحب الحياة والناس. وكانت مخائل النبوغ والموهبة المبدعة تبدو في كل دعاباتهم وفكاهاتهم. وبرغم ما كانوا يتلقون من الحياة من لطمات، فإنهم قد واجهوها بكثير من الثقة والابتسام، كأنما كانوا يؤمنون بأن الحياة أعجز من أن تقهر الضحك والبهجة".

وبالرغم من أن تشيكوف لم ينس أبداً لأبيه قسوته القديمة عليه وعلى إخوته وأمه جميعاً، إلا أنه في الوقت ذاته حفظ له حق الأبوة جيداً. ولم يمسسها بسوء من قريب أو بعيد. يكتب الأديب الروسي العظيم في سنة ١٨٧٩، عما يحمل لأبويه من عاطفة قائلاً: "أبي وأمي هما الكائنان الوحيدان على الأرض اللذان لا يمكن أن أعز عليهما شيئاً. وإذا مااستطعت أن أعلو عالياً، يكون ذلك من صنعهما، من صنع هؤلاء الناس الطيبين. إن حبهما أبناءهما غير المحدود يجعلهما

فوق أى مديح، يمحو جميع أخطائهما، التى قيض لها أن تتجلى بسبب من حياة قاسية جداً".

ولقد حدث أن تزوج أخوه الكسندر زواجاً مدنياً، أى فى مكتب الزواج وليس فى الكنيسة .. وهو يعرف تدين أبيه وتمسكه بالطقوس الروحية. ويغضب الأب كما كان منتظراً ويقاطع ابنه. ويشكو الكسندر إلى شقيقه أنطون، الذى يكتب إليه قائلاً: "لست أدرى ماذا تتوقع من أبينا وأنت تعلم أنه صلب كالصخر لا يمكن أن يتزحزح عن موقفه. ولعل ذلك هو سر قوته .. وكأني بك لا تعلم هذه الحقيقة بنفسك! يالك من إنسان غريب حقاً! إن المرء لا يتخلص من الأشواك عن طريق الاحتكاك بها بل بتجنبها. فدعه أذن يعتقد مايحلو له، فهذا من شأنه وحده، ومادمت تعلم أنك على حق فامض فيه، مهما يكن رأى الآخرين أو شعورهم. إن الاحتجاج فى عزة هو ملح الحياة".

كان يتفق مع أخلاقيات الأب كتاجر، أن يلجأ فى عمله مثل غيره إلى أشياء يعدها -برغم أنف تدينه-تجاوزات صغيرة لا تضر، تتصل بخداع الزبون مثل العبث بالميزان، والمغالطة فى الحساب، ورفع السعر! ومع ذلك لم تفلح أمور المتجر، وسارت من سيئ إلى أسوأ، وعرفت الأسرة اضطراب الأحوال والفقر والجوع. وتراكمت الديون وكثرت وعود الأب وأيماناته المغلظة بالسداد، وهو ينوى، وقد سدت أمامه الطرق، ألا يفى بها أبداً! والأم فى هذه الأثناء تستنجد بولديها الكبيرين اللذين تركا تاجتروج هرباً من استبداد الأب

إلى موسكو .. تطالبهما بمد أيديهما إلى الأسرة فى أزمتها. تفعل ذلك يائسة. فهى تعرف جيداً ماعليه ولديها الكسندر ونيكولا من أنانية منغلقة على صاحبها، لا تهزها العواطف الأسرية، ومع ذلك تكتب إليهما فى غمرة شجنها: "أنطوشا (تصغير أنطون) وفانكا (تصغير ايفان) لم يذهبا إلى المدرسة منذ أسبوع. إنهم يطلبون منا مالاً ونحن لا نملك شيئاً منه لنقوم بالدفع. أمس يوم ٩ تشرين الأول ذهب بول ايغوروفتش (الأب) ليحدث المدير بالأمر، فقبلوا أن يداوم فانكا دون أن يدفع شيئاً، أما أنطوشا فما يزال قابعاً فى البيت، وعلينا أن نسوى حسابه وحساب ماشا (تصغير ماريا)، البالغ ٤٢ روبلا. كيف تريدوننى ألا أحزن".

وهكذا وجد الرجل نفسه فى البداية، أن لامفر وفق مفاهيمه، من الهرب من المدينة هو وبقية عائلته، تاركاً أنطون وحده يستكمل دراسته الثانوية. وبعد البيت الكبير فى تاجنروج، عرفت الأسرة ضيق العيش فى حجرة واحدة فى موسكو، وقلة المال إلى درجة تكفى بالكاد للخبز وحده وزيت المصباح. وفى البرد القارس ينقص الأبناء المعاطف، والأم الحذاء .. فتضطر أن تحبس نفسها فى البيت. وبدأت الآمال تتحطم، فالأحلام الوردية القديمة التى كانت تجعل زمان الحياة الجديدة فى العاصمة الكبيرة، تبدو فى منتهى البهجة، وسط العمل والثراء اللذين قيل عنهما أنهما يغدقان على كل من يفد إليها من الأقاليم .. تهاوت بدداً. ويبحث الأب عن عمل بلا طائل، ولولا أن الأم اشتغلت حائكة

ثياب، لماتت الأسرة جوعاً. وبعد شهور من المعاناة القاسية يجد الأب عملاً بمرتب ضئيل، يمكن الأسرة من التقاط أنفاسها. وبرغم من أن الكسندر ونيكولا كانا قد تخرجا، وأمتهن كل منهما ما تيسر له موهبته الفنية .. الأول في الكتابة والثاني في الرسم، إلا أن استهتارهما منعهما من المشاركة الجدية في الإنفاق على المنزل. بينما كان الابن البعيد الذى ما يزال فى المدرسة مقيماً وحده في تاجنروج، ينهى دراسنه الثانوية وهو أنطون .. يرسل إلى أسرته القليل الذى يحصل عليه، من إعطاء دروس خصوصية للصغار.

والدعم المالى الصغير المستطاع الذى يحرص الشاب الصغير على أن يبعث به إلى أسرته، أحد مظاهر ما يكن تشيكوف من عاطفة عميقة لعائلته. جعلته كثير الألم وهو يستحضر معاناة أهله، وهم تحت رحمة ضغوط الفقر في موسكو. ويمزقه ما عليه أمه بالذات من إحساس مرهف وعاطفة ذائبة وأعصاب مرهقة، تعرضها لسريع الألم. وفي هذه الفترة تقوم بين أنطون وبين أحد ابناء أعمامه في موسكو وهو ميشيل عبر الرسائل، صداقة روحية متينة، ربطت بينهما برباط الأخوة. وكان أهم ماحدثه أنطون بشأنه وطلب عونه فيه .. أن يرعى أمه! يكتب إليه في أيار عام ١٨٧٧: "كن على مايكفي من طيبة، بحيث تستمر فى مواساة أمى، إنها محطمة جسدياً ومعنوياً، لقد وجدت فيك لا ابن أخ فحسب، بل أكثر من ذلك بكثير. إن لأمى طبعاً مخلوقاً بحيث أن كل دعم معنوى يأتى من الآخرين، يكون ذا تأثير قوى حسن النتائج

عليها. وبالنسبة لى، لا يوجد من هو أغلى على من أمي في هذا العالم المملوء بالخداع، ولذلك فإنك تمن كثيراً على خادمك المتواضع إذا واسيت أمه، نصف الميتة من الحزن".

ولذلك كان أنطون وهو أحب الأبناء إلى أمه، هو الأمل المتبقى لإنقاذ الأسرة من وهدتها. تكتب الأم رسالة إلى أنطون تقول فيها: "إنى أضرع إلى الله أن تأتى إلينا سريعا، ولكن أباك يقول إنك حين تجيء ستنفق وقتك أنت أيضاً فى الزيارات دون أن تعمل شيئاً. إننى لا أستطيع أن أصرف نفسى عن الاعتقاد بأن حياتى ستكون خيراً مما هى الآن بعد قدومك".

كان أنطون تشيكوف كما تذكر أمه، كثير الإشفاق عليها، وعلى ماتقاسى فى البيت. ومنذ طفولته وهو يستشعر قبل إخوته حتى الكبار منهم هموم العيش، وما يحيق بأهله من ضيق. ويملؤه وهو فى سنه الصغيرة الإشفاق والطموح، فى أن يتمكن فى كبره من تعويضهم، والقضاء على كل متاعب الأسرة.

(٣)

برزت علاقة أنطون تشيكوف الحميمة بأسرته جميعاً طوال حياته ومنذ صغره، وتصل إلى مداها فى أرق أعضائها، أمه وأخته، وإذا كانت الأولى تستوعب من حب الابن الرحمة والعطف .. فإن الثانية تأخذ من حب الأخ الامتزاج والصداقة. وكانت مارى تتخذ من شقيقها القدوة، وترى فيه

جماع المثل. وعندما أكتمل نضجها بدت عواطفها جميعاً موجهة إلى أخيها أنطون، كأنها تريد أن تفيضها عليه وحده .. و لم تعد تحمل من الحب ما تعطيه لغيره، سواء فى نطاق العام من حياتها أو الخاص. وكأنها أيضاً لم تجد بعد أنطون من يستأهل أن يكون طرفاً فى علاقة حب معها. ويقودها هذا الموقف شديد العاطفية إلى آخر لا يقل إغراقاً، وهو رفضها إقامة علاقة غرام مع أى رجل .. ومن ثم بغضها واستنكارها لفكرة الزواج. إذ ماحاجتها إليه وهى جد هائئة بأخيها وقربها منه. ولذا فهى تكتفى بهذا الحب، الذى يجمعها وأنطون، عن الدنيا وماوسعت.

ومن الطريف أن هذا الحب نفسه، هو المسئول أيضاً عن عدم تفكير تشيكوف فى الزواج. فهو يشعر مع إغداق أخته مارى عاطفتها عليه، وسعادته بهذا الحب الخالص المبرأ من الاستغلال، والذى يبلور التضحية فى أسمى معانيها .. بعدم الحاجة إلى بناء بيت وتكوين أسرة اللذين وفرتهما له مارى. أما الجنس فأمره سهل ولا يستلزم وحده الزواج. يقول هنرى ترويا: "كان يحتفظ بأفضل مافيه من حنان لشقيقته مارى. كانت مارى تعمل فى الحقول، وقد أحتذت جزمتها الثقيلة، وعقدت على رأسها عصبة بيضاء، عمل أربعة رجال، وكانت تحافظ بحرص شديد على راحة الكاتب وهدوئه. كانت تنطوى له على افتننان مطلق، عنيد، يقارب حب التضحية. ولا شك أنها، حباً له، لم تكن تفكر فى الزواج. فهى، وقد أتاح الله لها هذا الرجل العظيم فى حياتها، لم تعد قادرة على

تصور أن في وسعها أن تتخلي عنه من أجل رضا عاطفي مبتذل. وكان تشيكوف مصاباً بنفس المانع. إن فكرة أخته كانت دائماً تقف حائلاً بينه وبين بقية النساء. ماحاجته إلى زوجة ما دامت ماري عنده؟ غراميات عابرة، مغازلات خفيفة، أجل، إلا أن عليه ألا يذهب أبعد من ذلك. وكانت ماري تصفق في سرها لإصراره على البقاء عزباً".

وقد استرعت هذه النوعية من العلاقة الأخوية نظر الكثيرين، لشدة إخلاصها ونبلها في نفس الوقت. فهي ليست شاذة مثل علاقة لورد بيرون بأخته أوجستا، ومع ذلك فقد اختلف أصدقاء أسرة تشيكوف بشأنها .. فالبعض يؤيدها، والآخر يعارضها. الأولون يرون فيها قمة عطاء الأخوة. والفريق الثاني يعد نوعيتها شيئاً ضاراً بالطرفين معاً، لأنه يفسد على كل منهما خاص أموره. ويمنعه من الإنطلاق نحو الحياة الواسعة في جانبها الوجداني بالذات، ويقيد خطواته بالنسبة إلى الآخرين، ويختصرها في شقيقه .. وليس بالأخ وحده يعيش الإنسان وتكتمل السعادة! وكان من النوع الرافض، الشقيق الثالث: الكسندر .. الأخ الأكبر! الذي يكتب إلى شقيقه أنطون معارضاً .. "إنني مقتنع بشيء: إن علاقاتك بماري غير صحيحة. فبكلمة رقيقة منك، تلفظها بلهجة راحة، أنت قادر على أن تسيطر بها عليها تماماً. إنها تخافك، وإنها لا ترى فيك إلا ماهو أنبل من كل شيء، وما يستحق الإطراء أكثر من أي شيء آخر"!

وإذ بدت لماري وأنطون أن حياتهما يمكن أن تسير إلى الأبد على هذا المنوال، لأن ذلك من طبائع الأشياء .. فقد أخطأ كل منهما التقدير، ولا يلبث أن يصدم، بما يتكشف عنه واقع الحياة. حدث أن تعرف تشيكوف وأسرته، على شاب ثرى أنيق وسيم، افتتن بمارى وعرض عليها الزواج. وكان المنتظر أن يكون جواب الفتاة تلقائياً وبدون تفكير كالعادة، هو الرفض البات كما كانت تردد. إذ لا مكان فى قلبها وعواطفها لغير أخيها، كما تدل ظواهر وبواطن الأمور. ولكن مارى لدهشتها حتى بينها وبين نفسها .. لم تفعل ، وإن لم تعلن قبولها أيضا . وكان هذا أول مؤشر إلى أن ما تصورت الفتاة من ثبات ما تسميه صرح الحب ، الذى يجمع بينها وبين شقيقها ، وإقتصاره عليهما فقط ، غير صحيح أو ليس بالصورة التى توهمت ، وإنه غير طبيعى بهذا الشكل المغالى فيه.. كما تعرض للتصدع فى أول تجربة حقيقية .

وشىء آخر لعله أكثر خطراً تدركه مارى، وبدا لها كالاكتشاف ، ولم تكن تظن أنها تعبأ به، وهو انجذابها إلى الجنس وحاجتها إلى أن يكون لها رجلها، وهو بالطبع شىء آخر غير الشقيق. وقررت أن تواجه الأمر مع أخيها، وتأخذ رأيه. وما كادت تعرض عليه الخبر، حتى تبينت مقدار الخطأ الذى أنجرفت به العاطفة عن المسار الطبيعى .. إذ تجعل العلاقة الطبيعية غير طبيعية. وهى تشاهد الوجه المكفهر المتألم الذى طالعها به أنطون .. الذى لم ينبس ببنت شفة. كان رده بليغاً وهو صامت. ولم تجد هى الأخرى ما تقول وهى فى شدة

الألم، حزينة على أخيها وعلى نفسها أيضاً. وغادرت الحجرة باكية الفؤاد وتلبث عينها أيضاً أن تهمي. تكتب مارى فى مذكراتها بعد ذلك .. "لم يجب بشىء. وأدركت آنئذ أن النبأ أزعجه، لأنه استمر محتفظاً بالصمت. لكن ما عساه يقول؟ وفهمت أنه كان لايريد الإفضاء بأن مغادرتى المنزل إلى منزل آخر، وإنشاء أسرة لى، أمر قاس على نفسه".

ولم تكن الهزة الشديدة التى تعرضت لها مارى، مبعثها الموقف الذى يجب اتخاذه من شقيقها الحبيب أنطون .. فلا زال جوهر حبها كما هو لايتزعزع. بل شكلتها فى المقام الأول، ما شعرت به من حرمان عاطفى فجأة .. لم تكن تظنها تكنه لواحد من الجنس الآخر. فلما عرض لها على غير انتظار، اكتشفت الهوة التى كانت منساقة إليها ، والتى يمكن أن توردها مورد التهلكة، فى إغفالها التام لحاجة فطرية ملحة فى اكتمال المرأة بالرجل. نعم إنها لا تستطيع ان تؤلم أخاها العزيز، خاصة مع صدمتها هى نفسها وهى تقبل على رفض الزواج هذه المرة .. مكلومة القلب حزينة. ومع ذلك فهى تدرك أن الهزة التى آلمتها حتى النخاع بشكل غير عادى، قد أيقظتها أيضاً .. وتعرف أن شقيقها أدرك هو نفسه ذلك. يصور هنرى ترويا ما ألم بأنطون تشيخوف فى هذه الأزمة ، ومناحى تفكيره التى لونت الحادث بما يتفق مع عاطفته، قائلا:"وبعد أن سوى الأمر على هذا الوجه تنفس تشيخوف الصعداء. فقد كان أصابه خوف كبير. فهو لم يتصور قط، حتى ذلك اليوم، أهمية أخته فى توازن حياته اليومية. ومامن

شك فى أنها كانت قطعة أساسية. ولو أنها اختفت من حياته، فإن عالمه الخاص سيتفجر شظايا، و لم يكن الأمر أمر غيرة بالنسبة إليه. بل الأغلب أنه كان غريزة البقاء الأنانية. فحتى يكون سعيدا ، لابد من أن تظل مارى حواليه كتوما مجتهدة، محبة، وأن لايأتى أى طالب زواج فيلهيها عن نزعتها الأخوية. فقد جبلا الواحد للآخر. ولا حاجة بهما لأحد حتى يتذوقا رحابة الحنان والاحترام. كان يشكلان زوجاً غير قابل للانفصال يجهل إكراهات الجسد البائسة ومتطلباته. ومع قليل من الإحساس بالخطأ، يزعم تشيخوف لنفسه، أنه دهش من ردود فعل الفتاة التى رفضت، وهى فى السابعة والعشرين، نصيبا ملائما جدا لها، فى مجمله. والحق، أنه كان من المناسب لتشيخوف أن يعتقد، أن فى أخته، مثلما فيه، ميلاً إلى العزوبة".

وتبلغ الهزة التى أصابت الفنان الكبير من جراء هذا الحادث، أن تناوله فى أكثر من قصة له. ولعل"ثلاث سنوات" تصور رد فعل كاتبها نفسه .. ففى هذه الرواية القصيرة يجزع الأب سيجى بوريستيش، وهو هنا طبيب أيضاً مثل تشيكوف، وهو يسمع وحيدته تخبره بعرض لايتف الزواج منها. "كان يحب ابنته ويدرك أنها إن عاجلا أو آجلا ستتزوج وتتركه، ولكنه كان يحاول ألا يفكر فى الأمر. كان يفزع من مصيره المتوقع حين يعيش فى هذا البيت الكبير وحده، وإن لم يكن يعترف بذلك، ولكنه كان مقتنعا بينه وبين نفسه أنه لو حدث ذلك فيصاب ذات يوم بسكته قلبية".

ولذلك كان تهنئته لفتاته تحمل قبل كل شيء لوعته وأحزانه وألمه وليس فيها أي ظل لفرح! يقول لها -من ترجمة فؤاد دوارة- "ما أشد سعادتي حقاً، أهنئك من صميم قلبي . أمامك الآن فرصة رائعة كي تتركيني. ومعك كل الحق. فلابد أن الحياة مع أب عجوز، مخلوق مريض شبه مهووس، شاقة جداً على شخص في مقتبل العمر. معك الحق تماماً. وكلما أسرعت بالتذمر أسرع الشيطان في قبض روحي، فتزداد بذلك سعادة الجميع"! ولا تكاد الفتاة تعلن أنها رفضت عرض الزواج، حتى يحس الأب براحة كبيرة .. تماماً كما وقع لتشيكوف!

(٤)

كان تشيكوف في السادسة والعشرين من عمره أديباً شاباً، عندما وضع لأخيه الأكبر نيكولاي خطة تنقذه من ضياعه. تتضمن عدة مبادئ رئيسية هي في الأساس "دستور تشيخوف طيلة حياته"، كما يقول نجاتي صادق. وهذه المبادئ دعوة عامة في سبيل أن يكون الناس مهذبين، حسني التربية، مستوفين لشروط الإنسان المحترم! ويجئ ضمن المبدأ الثامن، هذه المثل: ".. يكبحون الغريزة الجنسية، ويسمون بها إلى أقصى الحدود .. فهم يطلبون من المرأة ألا تكون مجرد رفيقة سرير، وألا تكون مجرد ذهن لا يستطيع شيئاً إلا إثبات قدرته المتناهية على إرسال الأكاذيب. إنهم، وخاصة

الفنانين، يطلبون فى المرأة النضارة والرشاقة والإنسانية، فلا تكون .. وإنما تكون أماً".

اكتشف أنطون تشيكوف لأول مرة فى حياته أن هناك شيئاً اسمه الغرام، وهو لا يزال في مدارج الطفولة! ومن هنا جاءت قولته المشهورة: "لقد عرفت أسرار الحب، وأنا فى الثالثة عشرة"! كان صاحبنا كالعهد به خجولاً يتداخل فى نفسه، يتمنى أن يغيب عن الأنظار ولا يبصره أحد. ولكن كانت هناك عين حلوة قريبة لطفلة تصغره سناً، تتابعه بشغف من البيت المجاور! ومن سوء حظ الصغيرة العاشقة أنها لم تعرف أن وراء هدوء الصغير الخجول .. عنفاً، وأن أشد مايكره فى ذلك الوقت هو أن يتطفل أحد على عالمه الخاص. كما لم تكن تدرى أن فهمه للجنس الآخر مشوش، ليس فى صالح هذا الجنس. ولهذا عندما عبرت بسذاجة عن عاطفتها الحارة بكلمات ساذجة، حاولت ماأمكن أن تكون رقيقة تخلب لبه، وكتبتها على الجدار الفاصل بين المنزلين، وعرف أنه المعنى. رد على الرسالة فى نفس المكان بقسوة بالغة وسخرية مرة .. ناصحاً لها أن تترك العواطف التى تجهل، وتكتفى باللعب بعروستها، وأن لاتلوث الجدران بالكتابة عليها!

ومع أن الصغيرة تألمت كثيراً، وانهمرت دموعها طويلاً، إلا أن طبيعة الإقدام فيها، لم تجعلها تترك الأمر وتنهيه عند هذا الحد. بل واجهته بشجاعة تحسد عليها .. واصفة إياه أنه بنى آدم خشن، وفلاح غليظ لايجب أن يعيش في المدينة. واغتاظ أنطون للإهانة التى لحقته، إذ صادفت عيباً كان يعرف أنه

فيه، "وسدد إليها ضربة على رأسها، بكيس فحم الخشب، مملوء بالغبار. على هذه الطريقة انتهت قصة الحب تلك"!

وإذا كانت المراهقة عند الكثيرين هى المرحلة الأولى فى حياة الإنسان، التى تبلور الصراع بين الأبيض والأسود، فهى أيضا بالنسبة إلى هؤلاء .. السوط الذى يلهب الدماء فى عروق الشباب وأجسادهم، ولا يملكون إزاءها أية مقاومة .. لأنها فى ظنهم أقوى من أية مقاومة! ولم يكن أنطون تشيكوف من هذا الصنف، ولهذا كان تكوينه أقسى من مراهقته. أو بلفظ آخر اتسمت مراهقته بما عليه صاحبها فى ذلك الحين بالكثير من الروحانية، التى تكاد تفرغ الشهوة من محتواها! ولعل أول محك لهذه النظرة بعد حادث بنت الجيران، هى علاقته بمارينا أخت صديقه أندريه دروستى .. الأكثر فقراً، من تشيكوف إلى حد أن الثانى كان يتقاسم معه أجر الدروس الخصوصية الذى يحصل عليه! وبالطبع كانت الفتاة لا تقل فقراً عن شقيقها. وكان الصديق يقدم إليها أحياناً بعض الهديا الصغيرة من الحلوى، فتسر بها كثيراً. وتتوطد الصلة بينهما حتى لتدعوه إلى حجرتها، عندما يكون فى زيارة أخيها، ويبقيان وقتا طويلاً معاً. ومع ذلك يظل تشيكوف رغم كل المغريات والظروف المشجعة لقضاء وقت عاطفى، محتفظاً للحظة بسموها!

ولا يعنى حرص المراهق تشيكوف على الجانب الروحانى فى حبه أو علاقاته بالمرأة بوجه عام، أنه لم يتجاوز هذا الحد .. بل لقد فعل، كما يضطر من كان فى موقفه أن يستسلم

حيناً للدماء الفائرة أو سطوة الحسن! يكتب هنرى ترويا - ترجمة خليل الخورى- فى "تشيخوف": "تعرف فى مراهقته، على لحظات من الشهوة لا تنسى. ففى ذات يوم، وبينما كان ينظر إلى قعر بئر، تقدمت فلاحة فى الخامسة عشرة، لتمتح ماء. كانت من الجمال حتى إنه حاول تقبيلها. وعوضاً عن أن تدافع عن نفسها، استسلمت لمداعباته".

الحياة العملية والاشتغال بالطب والنضج، أزالت الكثير من انطوائية كاتبنا، ولكن ليس هذا معناه أن حياته الخاصة يجب أن تكون هى الأخرى، تحت بصر أى عابر. أو على الأقل فى متناول من يربطه بهم نشاطه الاجتماعى! وهذا ماكان تشيكوف يسفه بشدة، ويبين خطله. فعلى الرغم من أن الفنان الكبير كان بطبعه يحب الناس، ويبذل من عطفه وماله ووقته وجهده الكثير .. إلا أنه لم يلغ الحواجز بين عالمه الخاص وبينهم، حفاظاً على أن يكون له حياة شديدة الخصوصية. وليس ألصق فى ذلك من نشاطه الإبداعى وعاطفته الغرامية. فى الأدب كان الكاتب العظيم يخفى جهده الخلاق فى عمليات الكتابة، وينعت نفسه بالكسل، بينما هو يبدع روائعه بشكل متدفق. يشير كورنى تشوكوفسكى فى "أ.ب. تشيكوف" إلى تحفظ تشيكوف المفرط فى هذا الجانب "وإحجامه عن السماح لأى شخص بأن يلقى نظرة على حياته العقلية. وقد قال معترفاً فى خطاب صريح غير عادى: "ليس هناك أحد حولى فى حاجة إلى صدقى، أو لديه الحق فى ذلك" لقد كان من عاداته أن يخفى عن الذين حوله كل

مايتعلق بشخصيته الخلاقة وكل أفكاره وأمانيه الأدبية. وقد فضل أن يضحك منهم بدلاً من أن يسمح للغرباء بدخول عالمه الخاص".

وكذلك كان تشيكوف في غرامه!

إن الفنان العظيم الذى تعمق عاطفة الحب فى كتاباته، وصرح بمكنون القلب فى المئات من الشخصيات، ضمن ماتناول من قضايا .. اتسم هواه الشخصى بعدم الإعلان عن مشاعره. ولعل تشيكوف وقد أعطى من نفسه الكثير للآخرين فى تعامله الحياتى معهم وفى كتاباته، وجد ولم يبق له منها إلا القليل، أن يحتفظ به لذاته حريصاً عليه من العيون، خاصة وهو آية فى التواضع إلى درجة أن يبخس نفسه حقها. يقول إيليا ايرنبورغ فى "تشيخوف" -ترجمة د. ضياء نافع: "لأن التواضع كان نابعاً من أعماقه، فهو لم يشعر أبداً بأنه نبى أو معلم أو أستاذ كبير .. بل أنه لم يعرف ماذا يعنى الإحساس بالتفوق، أما بعض انعزاليته فتعزى إلى حيائه الروحى، ورقته، وليس إلى رغبته فى الابتعاد عن المحيطين به. وقد كافح تشيخوف -طويلاً وبعناد- كل الخواص التى كان يعتبرها من العيوب أو النواقص فى شخصيته، لكنه لم يضطر إلى مكافحة أحاسيس الفخر والكبرياء، لأنه لم يعرفها أصلاً ..".

ويؤكد ملمح كتمان الحب عند تشيكوف قائلاً: "كان تشيخوف يتكتم على كل ما يتعلق بحركات قلبه أو كان لايتحدث عنها إلا بمزاح".

ومن الطريف أن صورة حب تشيكوف الخاص تعطى انطباعاً تناقضياً مع تكوين صاحبها! ومما أوجد هذا التناقض ما عرف عن تشيكوف من قيم إنسانية فى عالميه الحياتى والفنى على السواء، ومااتسم به حبه للمرأة من برود وقسوة ومايشبه الاستعلاء. أما باعثه الأول فهو وقوع عاطفة الأديب الكبير تحت ضغط تهافت النساء عليه، اللاتى كن كما يقول هنرى ترويا: "يردن أن يرين فى تشيخوف رجلاً متيماً، فى حين أنه كان يقنع بشم النساء طالباً إليهن أن يكن جميلات، فاتنات ومرحات، غير منطوطن إلا على حنان وحذر". ومن هنا فهو لم يكن يطمئن إلى صدق مشاعرهن، لأنها موجهة فى الأصل لا إلى شخصه بل إلى هالة الشهرة التى تحيطه. فهن يتحلقن حوله سواء كان اسمه أنطون تشيكوف، أو أى اسم آخر مشهور! وعدم ثقته فى هذا الصنف من النساء، الذى يلون كل حواء تدخل حياته، يجعله يشك فى جوهر حبهن، وهو بهذا الشكل حب مزيف محكوم عليه بالفشل، حتى لو تطلعن فيه إلى الزواج .. فلن يستمر، وإذا استمر لحقته الخيانة والعار.

ويشكل تشيكوف بطلة مسرحيته "الخال فانيا" بنفس السمة. إن زوجة سربرباكوف تعترف "تزوجته عن حب. لقد فتنت به لكونه رجل علم له شهرة عظيمة، و لم يكن ذلك

حباً حقيقياً بل كان وهماً، وإن بدا لى حينذاك أنه حب حقيقى .."، ويكون رد الفعل عند تشيكوف الإنسان إزاء حب المعجبات، أن يتعامل معهن على أساس افتعال أحاسيسهن، الذى أفرز من ثم موقفه اللامبالى بالحب!

وكما دلل تشيكوف طوال حياته من أمه وأخته، أراد أن يحظى من بقية النساء بنفس العطاء. وأتاح له القدر ذلك عندما اشتهر، والمعجبات يترامين عليه. ومع التدليل تنتفى المسئولية، إذ لا مكان لها عند المرغوب والمشتهى. وهى تصبح من نصيب الطرف الآخر، الذى يتهافت على النجم اللامع. وهذه النظرة "الإستعلائية" غير المتعاطفة التى يخفيها وهج الشهوة، هى بعض تكوين الإنسان، الذى تجاب رغباته ولا تعصى له إشارة. ومن هنا لا يعبأ الا بمتعته وحدها، وما يمتصه من رحيقها فى اللحظة الآنية فحسب. أما حق حواء التى زودته بالسعادة، وأذابت نفسها وروحها فى سبيله، فهو خارج نطاق تفكيره قبل وبعد ساعة لذته. والحق الذى لا يقابله واجب يخل بالتوازن .. وهو نفس ما يحدث فى علاقات تشيكوف الغرامية. والمرأة هى الضحية التى تقدم على مذبح الحب. أما هو، فلا غرم عليه ولا إثم. وتكفى صاحبته أنه أعطاها لحظات من نفسه، ولذلك فهو ليس مطالباً حتى بينه وبين نفسه، لابينه وبين صاحبته فحسب، بشىء آخر .. يسميه الآخرون واجباً أو مسئولية.

ولعل عدم المسئولية هذه ترجع إلى أن الحب عند تشيكوف، منبت الصلة بأية مشاعر روحية لديه، إلا مايتطلب

تنفس الجسد وحده. فعند مجرد الارتواء واستقطار المتعة، يتوقف الحب عن النبض. إلى أن يجوع الجسد ثانية بعد وقت يقصر أو يطول، فيقبل الفنان على الحب، ثم لا تعود له به حاجة .. سواء كرر التجربة مع نفس حواء، أو استبدلها بغيرها! أما العواطف الإنسانية التى تقيم عالم الحب الحقيقى الثابت غير السريع، بكل أشواقه الروحية، التى تستوعب فى البشر جانبهم الأسمى .. فهى متجاهلة عند تشيكوف لأنه لا يتطلبها فى مثل هذه العلاقة. وتكتمل الصورة إذا اطلعنا على بقيه آراء الأديب الكبير في الحب السريع، كما جاءت فى عمله "قصة رجل مجهول" وبطلها أورلوف يحمل معتقدات مؤلفه فى هذا الجانب العاطفى الشخصى. فالهوى فى رأيه كائن قلق يتسرب إليه الملل بسرعة، كما أن عمره بطبيعته قصير! "إن العشق والمعاشرة بين قوم مهذبين لاتستمر بحال سوى عامين أو ثلاثة أعوام على الأكثر، مهما يكن الحب عظيماً فى البداية"!

يقول أورلوف لزينايدا التى تركت زوجها فى سبيل حبه "أما عن شرور نظام الزواج، فقد آن لك أن تفهمى أن ليس فى النظام نفسه شرور. وكل ما هناك هو أنكم لا تعلمون ما تريدون من الزواج. ماذا تطلبون؟ إن الحقيقة الكامنة وراء المشاعر الشرعية وغير الشرعية، ووراء كل صنوف الارتباط – واحدة لا تتغير. وأنتن –أيتها النساء– تعشن لهذه الحقيقة وحدها: هى عندكن كل شىء، ولا يكون لوجودكن معنى بدونها. أنتن لاترين شيئاً سواها، وأنتن تنلنها. ولكن مذ

أخذتن فى قراءة الروايات، أصبحتن تخجلن منها: أنتن تتخبطن، وتبدلن رجالكن مستهترات، وقد بدأتن تتحدثن عن شرور الزواج، حتى تبررن هذا الاضطراب. ومادمتن لاتستطعن ولا تردن التخلى عما يكمن وراء ذلك كله: عن عدوكن الرئيسى، عن شيطانكن، ومادمتن تخدمنه خاضعات فأى فائدة ترجى من مناقشة الأمر فى جد؟ إن كل ماتقلنه قد يكون مغالطة وتكلفاً. أنا لن أصدق ما تقلنه".

ومن هنا أيضاً جاءت كراهية تشيكوف للزواج .. أهم نظام لتعمير الأرض وسعادة الإنسان تباركه السماء. لأنه يحمله مالا يريد هو من المرأة، إذ إن مطلبه منها محدد قليل. كما يجشمه أيضاً مسئولية هو فى غنى عنها. ولا يفوت الأديب الكبير، ربما ليبرر موقفه أو يدفع عن نفسه إنغلاق رؤيته لحواء، أن يسقط على المرأة ما يفعل هو. ويحصر حياتها ورغباتها وأحلامها كلها، فى شىء واحد هو الجنس! وربما يعلل هذا بفقر الناحية السماوية عند تشيكوف، فمن المعروف أن فناننا كان طوال حياته يؤمن كما يفعل الرجل الغربى عادة بالفضيلة المدنية لا الدينية، بعكس تولستوى مثلاً. ومثل هذا التكوين يفقد المرء الكثير من الرحابة الكونية، ويحاصر دنياه فى نطاق ضيق مهما اتسع. وفى مجال حياته الخاصة، يقصره على التقوقع فى أخص الشئون، التى تنحصر فى الحدود الأرضية .. التى مهما بدا انفساحها، فهى بالنسبة إلى السماء ضيقة شديدة الضيق.

يقول تشيكوف فـى قصة "رجل مجهول": "أنـا أنظر إلى الحب على أنه، قبل كل شيء ضرورة جسمية تنحط بروحي وتعاديه، فإما أن تشبع بحكمة أو تهمل إهمالاً تاماً، وإلا أدخلت فى حياة المرء عناصر قذرة مثلها. أنا أحاول أن أجعلها جميلة، وأحيطها بحشد من الأوهام حتى تكون لذة لا عذابا. أنا لا أذهب لأرى المرأة إلا إذا علمت سلفاً أنها جميلة، ساحرة، وبهذه الطريقة وحدها ننجح فى خداع بعضنا بعضاً، ونخال أننا نحب وأننا سعداء. ولكن هل يمكن أن أهوى القدور النحاسية، أو الشعر الأشعث، أو أرغب فى أن أرى ضيق الصدر أو غير مغتسل؟ إن رينايدا فيودوروفنا تريد لسذاجة قلبها، أن أحب ماكنت أتجنبه طول حياتى، إنها تريد أن يكون لمسكنى ريح الطهى والمسح. تريد ضجة الانتقال إلى مسكن آخر، والركوب فى عربة خاصة. تريد أن تعد قطع ملابسى، وأن تعنى بصحتى. تريد أن تتدخل فى حياتى الخاصة كل لحظة، وأن تراقب كل خطوة لى. وهى فى الوقت عينه تؤكد لى مخلصة أن عاداتى وحريتى ستظل كما هى"!

وهذا المفهوم الأنانى فى الحب، جعل تشيكوف مع إعجابه بترجنيف، يسخر من آرائه فى الحب، التى تشمل عليها قصصه. وهو لا يتناول ذلك فى أحاديثه فحسب، بل تنبض بها قصص الأول أيضا .. كما فعل فى قصة "رجل مجهول". يقول على لسان أورلوف: "إن ترجنيف يعلمنا فى قصصه، أن كل فتاة سامية شريفة ينبغى أن تتبع الرجل الذى تحبه إلى

أقاصى الأرض، وأن تخدم فكرته. إن أقاصى الأرض تجوز شعرى، ويمكن أن تحد الأرض وأقاصيها بمسكن الرجل الذى تحب .. وكذلك يكون رفضك الإقامة فى مسكن واحد مع المرأة التى تحبها، حرماناً لها من رسالتها السامية، وإنصرافاً عن مشاركتها فى مثلها. أجل ياصديقى العزيز، هذا ماكتبه ترجنيف، وعلى أن أشقى به"!

وعامل آخر لايقل أهمية فى تشكيل تشيكوف عاطفياً، وهو موقع الحب لديه. فهو لا يضعه فى المرتبة الأولى وجدانياً .. بل تسبقه بمراحل .. الحقيقة! وهى ليست نظرة فلسفية بل حياتية، يتنفسها صاحبها فى نبضه اليومى. ويتخذ منها قاعدته لقياس ما يعرض للمرء من أحداث وبشر وكون عريض .. إذ لا تغره مايطفو على السطح من أشياء تتوهج وتلمع، بل يلتمس مافى الأغوار من جوهر هو الأصل الذى يقف عنده. إن الثوابت لا المتغيرات هى التى يستهدف فى الحياة، ومن هنا يأتى عدم اعترافه بالحب التقليدى فى مقدمة ماينبض به قلبه. ومع أن تشيكوف ظل طوال حياته يعمل حساباً للمال .. الذى عانى الكثير فى سبيل الحصول عليه، للإنفاق على أسرته التى أعتمدت فى أغلب مراحلها عليه، ولتأمين مستقبلها أيضاً. إلا أن تشيكوف لم يتلهف على المال من الناحية الشخصية، ولذلك لم يستعبده يوماً. يكتب تشيكوف فى مذكراته: "إن السعادة ومتعة الحياة ليست فى المال، وليست فى الحب، بل فى الحقيقة، وحتى لو سعيت إلى السعادة الحيوانية، فالحياة لن تسمح لك بأن تنتشى منها،

وتشعر بالسعادة، بل سوف تصب عليك الضربات المفاجئة بلا انقطاع"! ويتعقب يرميلوف تجسيد هذا الموقف فى أعمال أديبنا الكبير الإبداعية، لينتهى إلى: "أن شخصيات تشيكوف "تؤجل" الحب والسعادة إلى حين يحين المستقبل، إلى الأجيال القادمة، لأن الحب والسعادة لن يكونا جديرين باسميهما إلا فى المستقبل فحسب، وعندما يتطهران من شوائب السوقية والقذارة"!

(٥)

بالرغم من أن تشيكوف كإنسان وطبيب كان يجد المرأة فى كل مكان .. إلا أن المجتمع أو الموقع الذى كان يفضلها فيه، هو بيته بالنسبة إلى صديقات أخته! وإذا كان البعض يؤثر حواء الوسط أو الناضجة أو المجربة، فهو يسعد بالصبية أو الشابة الصغيرة قبل غيرها من أنواع النساء. لذلك فهو دائم الإعجاب بصديقات مارى اللاتى كن يبادلنه إعجابا بإعجاب! فهو يشير فى خطاباته ومذكراته بطريقة عفوية وليست مقصودة لأنها ضد طبيعته إلى "باقة من الصبايا الجميلات، يسر المرء برؤيتهن، وشمهن، ومناكدتهن"! وهذه الصلات تنجح فيما فشل فيه غيرها، سواء كانت وراءها أمه أو أصحابه .. لأنها تقوده إلى ماكان يفر منه، وهو التفكير فى الارتباط ومن ثم الزواج! وإذ ساورته الفكرة وأخذت تنضجه على مهل، فقد قرر فجأة أن يفعل بالنسبة إلى صديقة جديدة من صديقات أخته .. وهى دوينا إيفروس! ولعل الذى جذبه إليها غير جمالها، أنها ليست من الصنف العادى الأقرب

إلى الإستكانة .. التى منتهى حرارتها، الاستجابة إلى العاطفة التى يبثها إياها كذبذبات غير مرئية، رجل بالذات. بل كانت الفتاة أكثر من ذلك، فيها "عفرتة"، جمة الحيوية، بارعة الذكاء، تتفجر نشاطاً. وهى بذلك تقترب من النقيض من تكوين تشيكوف واتزانه. وبجانب هذا كله .. كانت واسعة الثراء! ومن هنا أقبل عليها وأقبلت عليه، ويكتشف بعد قليل أنه لا قبل له بالبقاء عند الشاطئ، والاكتفاء بتبادل الأحاسيس، لحاجته إلى الارتواء. وأن عليه اتخاذ القرار الذى يتيح له أن يصل فى حبه إلى غايته، ويتزوجها.

وهكذا بأسلوب لا يتفق مع اتزانه، وإن كان يعكس مدى ما يحمل لها من غرام مشتعل .. وبينما هو يرافقها إلى بيتها فى إحدى الليالى .. إذ فجأة يعرض عليها الزواج! وتدهش دوينا، والعرض يقع على غير انتظار. وبدا واضحاً أنها لم تكن مهيأة له، ولا تنتظره فى القريب أو البعيد، ربما لأنها تعرف أن صاحبها لا يبعد فى علاقاته بصديقات أخته، وأكثر من ذلك يتخذ موقفاً رافضاً من الزواج. وتسعد دوينا بالطلب الذى يقدمه طبيب ناجح ، وأديب بدأت شهرته فى الانتشار. ومع ذلك كانت متحفظة، فلم تقبل أو ترفض .. ولم يكن تشيكوف ينتظر رداً فى الحال. فهو يعرف بالطبع أن من حقها التفكير فيما فوجئت به .. وإن كان يسره أن يسمع اعترافاً بحبه ورداً بالإيجاب.

ومع أنهما التقيا بعد ذلك أكثر من مرة، إلا أنها لم تفاتحه فى شىء. وصبر عليها أسبوعاً وأسبوعاً، وهو على أحر من

الجمر، ليقف على جلية الأمر. ولم يقدر أن يبطئ عليه الجواب أكثر من ذلك، فتساءل مكرراً العرض .. وظهر واضحاً أن الفتاة لم تصل إلى قرار يقنع. فهى مع ما تكن له من ود وحب، مترددة إزاء الأخطر من الود والحب .. الزواج. وكان الباعث الأول لترددها، اختلاف ديانة كل منهما. إذ عليها فى حالة قبول عرضه، أن تدخل دينه ومذهبه الأرثوذكسى. وهى تستهول أن تفعل وتخرج عن مذهبها ومذهب أسرتها. ولكن العاشق الفنان لا يجد حرجا فى أن تفعل صاحبته، أو أن يفعل هو لو طالبه القانون بذلك. وتكره دوينا من تشيكوف أن يبسط المسألة الخطيرة فى رأيها، بهذا الشكل السطحى .. فالعقيدة ليست كما يتصور هو، لعبة أو ألعوبة فى يد المرء، يحركها كما يشاء، وفق أهوائه ومصالحه الخاصة .. بل هى أسمى وأعظم.

وأصرت هى وأصر هو .. وضايقه أن تفعل، وأن تعرض حبهما للانهيار إزاء ما يعده هو شيئاً هيناً. ولا يستسلم أى منهما، وتغلى الدماء وتنفلت الأعصاب، ويحدث الصدام ويتكرر. ولمداراة ضعف موقفه، يلجأ إلى ماكان يدينه من قبل، وهو الحكم على الآخرين من خلال ساعات الغضب. فإذا هو يعمد إلى تشويه صورة الفتاة التى لايزال يحبها، فى نفسه أولاً، بزعم اكتشافه ماكان مختفياً من أعماقها! يكتب تشيكوف إلى أحد أصحابه: "ولقد تشاجرنا من قبل حول هذا الموضوع، وغداً نتصالح، ومن الآن حتى أسبوع سنتخاصم من جديد. ولانزعاجها من أن الديانة تشكل قضية، كسرت

أقلاماً، ومزقت صوراً على طاولتى .. إن ذلك يكشف طبعها. إنها شرسة رهيبة؟. ولو تزوجتها لكنت انفصلت عنها فى مدى عام أو عامين من الزواج"!

وبالرغم من وضوح الإخفاق المرتقب منذ البداية لهذا الحب، أو بمعنى أدق الزواج غير المتكافئ، إلا أن الأديب المحموم عشقاً .. لم يلتفت إلى ذلك. لقد كان هو المخطئ، لأن الفتاة صارحته بشديد إحترامها للعقيدة، التى تضعها فوق الحب بلا جدال. وكان من الطبيعى أن تزداد الهوة اتساعاً بينهما، وتكون هى الواقعية الأكثر حصافة، التى تبدأ بالانفصال .. بعد أن رأت أن لا فائدة من علاقة تحيطها الأشواك. ويقع تشيكوف فريسة لخيبة أمله، ويكون فشل هذا الحب من أهم البواعث على ماأصابه من ضيق ويأس، وهو المقاوم المتفائل عادة. لقد هزته صدمته فى غرامه، الذى كان يعول عليه كثيراً فى استقراره بالزواج. شعر أنه تعرض للسخرية بلا داع، فبعد اقتناعه الذاتى بالزواج، ويقدم على طلبه، يحال بينه وبينه فى آخر لحظة، بحجة واهية!

ومن خلال المنظار الأسود، تبدو الأشياء بغيضة .. "الحياة قصة قذرة بالنسبة للناس كلهم، حين أفكر فيها جديا، يبدو لى أن الناس الذين يخافون الموت ليسوا منطقيين، وبنسبة مافى قدرتى على المحاكمة، فإن الحياة لاترتكز على شىء، إلا على مقززات وخصومات وتفاهات تتناوب وتمتزج فى مابينها .. إننا نعيش فى الرتابة، دون أن نرى أناساً سعداء"!

(٦)

ظلت تجربة تشيكوف القديمة مع أول حواء عرفها فى أيام طفولته، مع الصغيرة ابنة الجيران، التى أعلنته بالحب قبل أن يعى جيداً وجود شىء اسمه الحب، أو حتى صاحبته .. ماثلة فى ذهنه لاتبرحه. ومن يومها وهو يكره المرأة المقتحمة .. يخشى المرأة الجسور، التى تواجه الطرف الآخر بالأنثى فيها قبل أى شىء آخر. والتى تبدأ هى بالخطوة الأولى فى عملية العلاقات بين الجنسين .. إن المرأة المقتحمة تحول نفسها فى رأيه إلى شىء غير محترم. إن الحب مثل أية علاقة إنسانية رفيعة، لا يتم إلا بمشاركة صاحبيه معاً فى نفس الوقت. ولما كان الرجل هو الذى شكلته الطبيعة ليضع البذرة فى الأرض، فهو من ثم صاحب الحق الأول فى الخطوة الأولى. بجانب أن هذا الاقتحام يكشف عن روح مسيطرة، والعلاقات الإنسانية الحقيقية لا تعرف الاستبداد، الذى هو نقيض المودة والرحمة والتعاطف. كما أنه يشى أيضا بالتطفل، الذى لايعبأ باحترام مشاعر الآخرين. وأكثر من هذا كله إتسامه بعدم الفهم، وصاحبته تظن أن الرجال جميعا متساوون فى الرضوخ إزاء الهجمة الجنسية .. كأنهم مجرد حيوانات تسوطها مفاتن الجسد! هكذا كان يعتقد أنطون تشيكوف، ومن هنا جاء تقززه من حواء، التى تبادره بالإقدام على تكوين علاقة غرامية. ولقد تعرض تشيكوف بحكم وسامته، وكطبيب ناجح، وأديب مشهور، لاقتحام هذا الصنف من النساء بشكل

أو بآخر. ويذكر تاريخه أكثر من واحدة، النتيجة فيها جميعاً متشابهة .. من هؤلاء النساء .. ليديا أفيلوفا.

لم تختلف الآراء فى قصة غرام لتشيكوف مثلما حدث بالنسبة إلى ليديا أفيلوفا .. فالبعض من دارسيه يؤكد تماماً الحب العارم بينهما، ويتفق مع صاحبته التى تقول فى مذكراتها .. إنه استمر عشر سنوات كاملة فى السر لا يعلم به أحد! بينما ينفيه البعض الآخر تماماً! وقد تم التعارف بينهما فى سنة ١٨٨٩، وكانت فى هذه الأثناء زوجة وأماً شابة لطفل .. جميلة شقراء .. أقرب إلى الطيش. وكان هذا الطيش نفسه يعطيها سحراً خاصاً وتكويناً فريداً، يفاجئ الآخرين بما لا ينتظرون .. كأنها ضريبة الجمال يدفعها عشاقها راضين. وكانت ليديا أديبة ناشئة تريد أن تنتمى بشغف إلى عالم أصحاب الأقلام، وهى ترى نفسها صاحبة موهبة فنية فى كتابة القصة القصيرة. ومن الطبيعى أن تتخذ من نبى القصة الجديدة أنطون تشيكوف نبراساً. ومنذ اللقاء الأول يتحول من جانبها الإعجاب الأدبى إلى غرام جنسى، وهى لا تخفى الهزة التى أصابتها عندما التقت به .. وتشير إلى شىء ما يتفجر فيه روحها. وهى منذ البداية تجعل من كلمات التعرف العادية حباً مشتعلاً من الناحيتين، فى الوقت نفسه الذى لم يخطر ذلك على بال تشيكوف أبداً! وتكون وسيلتها إلى تكرار اللقاء عرض إنتاجها عليه. ويبدى الأديب المشهور رأيه فى قصصها، بما لا يخرج عن موقفه فى تشجيع الناشئين، ولفتهم برفق إلى بعض العيوب الأساسية. وتعطى

ليديا نفسها الحق فى أن تستغل رحابة صدر تشيكوف، الذى يضيق آخر الأمر بالإلحاح .. فيعنف فى نقدة لأعمالها. ومع ذلك تقبل ليديا عليه أكثر، فالهدف أثمن من أية اعتبارات!

ولا تكاد ليديا تدرك أن تشيكوف فى علاقته مع المرأة بشكل عام، ليس رجلاً سهلاً .. يكفى أن تبادئه حواء ليستجيب، حتى تغير من تكتيكها. فهى تنفث فى أكثر من اتجاه خيوطها العنكبوتية، التى تظن ملاءمتها لتكوين القاص المشهور .. فتعمل أن تجيئه كما تتصور من أضعف جوانبه. وتظن أن إحراجه بما لم يحدث، يدفعه فى محاولة للدفاع عن النفس، إلى الاقتراب منها والاعتذار لها .. ومن ثم الارتماء فى أحضانها. كان قد التقى بها مرة أخرى، عندما سافر إلى بطرسبرج. وعندما عاد إلى موسكو، أرسلت إليه عدة خطابات كان من بينها شيئاً أفزعه .. ولم يدرك ساعتها أنه مخطط للإيقاع به بين براثن حبها، تخبره بكلمات متألمة ملتاعة، أن هناك شائعة قوية فى المدينة وصلت ضمناً إلى زوجها .. تقول إنها أصبحت عشيقة تشيكوف أثناء وجوده فى العاصمة، وأنه أعلن ذلك بين أصحابه فى أحد المطاعم! ولن يهدأ له بال حتى يستولى عليها، وينتزعها من زوجها ويقترن بها!

ولم يكن تشيكوف من السذاجة بحيث يصدق أن هناك شائعة بهذا الشكل. ولكنه خشى أن تكون حبكتها قد تنطلى على الآخرين، الذين يمكن أن تصل إليهم، فلا يملكون إلا تصديقها. والتساؤل عن المستفيد من الأكذوبة .. وإن لم

يستطع بالطبع أن يتأكد. ويكتب إليهـا خطاباً عاصفاً: "إن كرامتي تمنعني من أن أبـرر. فضـلاً عـن أن اتهامـاتك كثيرة الغموض حتى إنهـا لا تسـمح لى بتبين النقطـة التـى يجـب أن أدافع عن نفسي حولها. وفى الحدود التى أسـتطيع أن أبينهـا، فإن القضية تتعلق بثرثرات. أليس كذلك؟ إننى أطـالبك علـى الفور (إذا كانت ثقتك بى لا تقل عن ثقتك بمروجى الشائعة) بأن لا تصدقى الحقارات التى يذيعونها عن النـاس فـى سـان-بطرسبرج أو صدقيها كلهـا. صدقيهـا بالجملـة لا بـالتفصيل. صدقى قضية زواجى من أجل خمسة ملايين. صدقى غرامياتى مع نساء أفضـل أصدقـائى.. الخ .. ومهمـا كـان فيلحفظـك الله. إن دفاعى فى مواجهة أقوال السوء يشـبه بطلـب قـرض من يهودى. لاجدوى من ذلك. ظنى بى كما تشائين."!

ولا تيأس ليديا .. فهى لا تعرف اليأس خاصة فى مثل هـذا الأمر .. ويثمر الإلحـاح ويسـتجيب تشيكوف. ولأن عمليـة استملاح الغريب بحكم تكوينها ليست طويلة الأجل، بل هـى قصـيرة العمـر، فـإن الأمزجـة المتناقضـة لا تلبـث أن تؤكـد وجودها بعد قليل، وتظهر علي السطح. ويقع الخلاف، ويتـم التصالح، ليتكرر مراراً وتكرارا. ويفترقان. وتبعث إليـه عـدة رسائل، وتنتظر الردود بلا فائدة. وأخيراً بعد وقت طويل .. ثلاث سنوات، يكتب إليها مؤنباً! "تلقيـت منـك رسـالة ذات يوم، تطرحين فيها على سؤالاً حول قصة من قصصى، لم أعـد أتذكر أيا منها. وبما أننى كنـت أعرفـك معرفـة ضئيلـة، فقـد رميت برسالتك ووضعت طابع الجواب فـى جيبـى. وهـذا مـا

أفعله عموما بشأن جميع الطلبات، ولاسيما تلك التى ترد من نساء"!

وتثأر ليديا أفيلوفا لنفسها، وتصدر فى عام ١٩٤٧، أى بعد وفاة أنطون تشيكوف بثلاث وأربعين سنة .. "ذكريات ليديا أفيلوفا - أ.ب. تشيكوف فى حياتى"، تهتك فيه الستار عن قصة علاقتهما التى تبرأ منها، وبأسلوب مبالغ فيه يتضمن قدراً كبيراً من الأكاذيب .. شأن المرأة المقتحمة عادة!

(٧)

منذ اشتعال الأخ الأكبر الكسندر بالصحافة، وعمل الذى يليه نيكولا بالفن .. عرف بيت تشيكوف أنواعاً جديدة من الزوار لم تعرفه من قبل. ولكن مع بدايات ممارسة أنطون تشيكوف للكتابة والقصة، التى تزامنت مع مسئوليته الكاملة عن الأسرة مع وجود الأب .. دخل تردد الزوار على البيت وأكثرهم من أصحاب أنطون فى طور جديد. إذ هم يقضون فى الزيارة أياماً لا ساعات، سواء كانوا من الرجال أو النساء .. تطول إقامة الواحد منهم أو منهن حتى يعد من أهل المنزل! ويضاف إلى هذا الفريق فريق آخر، يحول بيت تشيكوف إلى مايشبه الفندق .. حتى لينام أربعة فى حجرة، ولا يجد آخرون إلا الممرات أو المطبخ! يقول الأديب المشهور عن هذا النوع الأخير فى رسالة له إلى صديقه سوفورين ".. آه لو كنت تعرف كم أنا متعب! متعب حتى الضغط العضبى. مدعوون، مدعوون، مدعوون .. كل مثقف يمر يعتقد أن من واجبه أن

يأتى فيتدفأ لدى، وأحياناً أن ينام هنا! هذا شيء ممتع، حتماً، أن تكون مضيافاً. إلا أن على الروح أن ترفع المعيار"!

وكان من زوار النوع الأول الصديقة ليديا ميزينوفا الملقبة بلايكا! ولايكا فى الأصل من صديقات أخته مارى وزميلة لها أيضاً فى نفس المدرسة التى تقومان فيها بالتدريس. كانت الفتاة فى ذلك الحين فى الثامنة عشر من العمر. تصف جمالها الكاتبة ت.ل. تشبكينا كوبرنيك بقولها: "ذات جمال غير عادى، كانت أشبه بالأميرة البجعة فى إحدى الحواديت الروسية. وكانت شديدة الجاذبية بشعرها الأشقر المتموج، وعينيها الرماديتين الصافيتين تحت حاجبيها القائمين، وبلطافتها غير المألوفة، الممتزجة بالبساطة المفرطة، والبعد عن التكتيك". وهى أشياء كان يغرم بها تشيكوف، الذى كانت الفتاة تعده فارس أحلامها .. فى انتظار أيسر إشارة غرام لتستجيب على الفور. ولكنه استمر وقتا طويلاً لا يفعل، مع إعجابه الشديد بها وحبه الكبير لها. يقول هنرى ترويا عن ذلك: "غدت هذه الآنسة المثيرة صديقة العائلة الحميمة خلال العامين الأخيرين. إنها أصغر من تشيخوف بعشر سنوات، وتكن له وداً خجولاً، وتنتظر منه يوميا أن يبوح لها . أما هو، فعلى إنجذابه الشديد إليها، كان يستعمل لهجة الأخ الأكبر المحب الساخر فى علاقاته بها. وكان يحاول، وهو يسخر منها، أن ينجو من فتنتها التى تمارسها عليه بنضارتها، ولهجتها اللاذعة ودعابتها الحزينة. وكان يجهد بكل قوته ليصون هذه العزلة الداخلية التى كان يعانى منها، والتى كان

لابد منهـا لعملـه. فمـا عسـاه أن يفعـل بـامرأة، وإن كـانت مرغوباً فيها، حين تكون حياتـه خاضعـة للحـبر والـورق؟ و لم يكن مزهواً بهذا الحب الخفى الـذى يتفتـح فـى ظلـه، لم يكـن يريد تشجيعه ولا إحباطه. كان يوجه للايكا بطاقـات دعابـة عذبة. ويطلق عليها ألقاباً مضحكة. وينصحهـا بـالهرب مـن هذا الوغد ليفيتان، قاضم الفتيات، وينتقدهـا لأنهـا تكـثر مـن أكل النشويات، وتدخن، ولأنها تستسلم للامبالاة وللفوضى. فهو يكتب إليها فى (٧ آيـار١٨٩١) قـائلاً: "يالايكـاى التـى من الذهـب، من الصـدف، ومـن الخيـط السـكوتلاندى، حـين بللت كتفى اليمنى بدموعك، (أزلت البقعـة بـالبنزين) وحـين أكلت خبزك ولحمـك، قطعـة بعـد قطعـة، افترسـنا، بشـراهة، وجهك وعنقك بنظرنا، آه! يالايكا، أيها الجمال الجحيمى!".

وكانت لايكا كمعظم بنات جنسها تحب أن تكون مدللـة، وتجد بعض هذا التدليل فى التنعـم بوقـت كسـول .. فتمضـى لحظات طويلة فى السرير، أو تبقى ساكنة هائمة فى لا شيء. ولما كـان هـذا الطبـع مما لا يعجـب تشـيكوف الـذى يقـدس الوقت والعمل، مؤمناً "إن علينا أن نعمـل بـلا انقطـاع طـوال حياتنا"! فقد كره فى لايكا مزاجها غـير النشـيط. ولايتـورع عن تأنيبها. حدث يوماً أن وعدت بأن تترجم عملاً، ولكنهـا تكاسلت عن إتمامه، فيكتب إليهـا زاجـراً .. "لايوجـد لديـك أقل ميل للعمل المنتظـم، وهـذا سـبب سـوء حـالتك والوجـوم الذى أنت عليه، وبكائك الكثير. ولكن لماذا لا تصلحن أيتها الفتيات لشيء إلا إعطاء الدروس بسـتة مليمـات. لا تثـيرينى

بكسلك مرة أخرى، ومهما كان الأمر فلا تبدى الاعتذارات. فأنا لا أستطيع أن أقبل الاعتذارات حينما تكون المسألة متعلقة بعمل هام أو مخالفة ما قد وعدت به. لا أستطيع قبولها ولا أستطيع ان أفهمها".

ولحظات تشيكوف مع المرأة ليست خالصة للمناجاة والمداعبة وعواطف الشوق، بل هي تتسع لأشياء أخرى لا تتصل بها من قريب أو بعيد. ولكنها مستساغة عند أديبنا العظيم، الذى لاينسى حتى فى هذة اللحظات طبيعته الناقدة ومزاجه المقاوم! ويبلغ صراعه ضد العيوب وألوان الضعف، ألا يقتصر على شخصه أو شخوص أعماله الفنية، بل يمتد أيضا إلى من يحب من النساء! يلتفت أحد دارسيه وهو كورنى تشوكوفسكى إلى هذا الملمح فى تشيكوف فيقول: حتى وهو يغازل لايكا الجميلة، أرسل إليها وسط باقة من كل أنواع الفكاهات والتهريج موعظة حقيقية!

وتأخذ لايكا وضعها المميز فى داخل عالم تشيكوف، فتكون مع أسرته وخاص أصدقائه، فى وداعه فى رحلته المشهورة إلى سخالين .. جزيرة المحكوم عليهم والمنفيين فى سيبيريا، ليدرس قضيتهم، ويكتب عن همومهم وآلامهم. وفى صباح نفس اليوم كان حبيبها تشيكوف يهديها صورته وعليها إهداء مداعب "إلى المخلوق الرائع الذى يجعلنى أهرب إلى سخالين"! ومع متاعب الرحلة الطويلة المرهقة ومضايقاتها، يكتب إليها كما يكتب إلى أهله. ويذكر فى إحدى هذه الرسائل، أنه لابد أن يكون متيما بها، لأنه رآها

فى حلمه فى إحدى الليالى .. فضلا عن أنها كانت "ملكة" مقارنة بنساء سيبيريا، اللواتى لا يعرفن كيف يرتدين الثياب، ولا أن يغنين ولا أن يضحكن".

كان مما يعيب تشيكوف فى غرامياته، أنه لا يحسم موقفه إزاء من يعشق. فهو لا يخلص من القبول أو الرفض بسرعة كافية، تطمئن الطرف الآخر إلى ما يحمل له الفنان من مشاعر .. وتيسر لقصة الحب أن تتبع مسارها الطبيعى. ولذلك كان الأديب الكبير دائما فى قصص حبه بين إقبال وإدبار فى نفس الوقت، مما وسمه بالتردد فى اتخاذ القرار العاطفى. وقد ظهرت هذه الخصلة أيضا فى هواه للايكا. إنه يكتب إليها صادقا عندما تنتهى زيارتها الطويلة لبيته، وتعود إلى مدينتها بكلمات تنبىء عما يحمل لها من حب كبير مثل: "انتظرك وأحلم بوصولك، كما يحلم البدوى، فى الصحراء، بالماء" و"اتضجر من دونك، وأدفع خمسة روبلات حتى تتحقق لى إمكانية التحدث إليك، حتى ولو خمس دقائق" و"اكتبى لى، ولو سطرين. لا تتركينا لنسيان مبكر. تظاهرى على الأقل بأنك تحتفظين لنا بمكان فى ذاكرتك. اخدعينا يالايكا. الكذبة أفضل من اللامبالاة.. إننى لسك من الرأس إلى القدمين، بكل روحى، وبكل قلبى، حتى القبر، حتى نسيان نفسى، حتى الخبل وحتى الغضب"! ثم يكتب لها فى خطاب تال: "واأسفاه! هأنذا شاب عجوز حبى ليس شمسا، ولا يجلب السعادة لا لى ولا لهذا الطائر الذى أحب. لايكا، لست أنت من أحب بحرارة (!) أحب فيك آلامى الماضية

وشبابى الضائع". وبعد أيام وقد استشعر شدة حاجته العاطفية إلى لايكا، يكتب إليها مستنجداً: "تعالى، تعرفين كم أنا محتاج إليك. لا تخيبى ظنى. يا ليكوزيا، بحق السماء تعالى!.

ومع كل هذه الحرارة الصادقة، لا يضمر لها نية الزواج أو حتى إعترافاً صريحاً بغرام مسئول .. بل يبقيها معلقة فى ذهنه وحياته على السواء! فلا هى ارتاحت من هَمّ حبه، ولا هى سعدت بغرامه أو نعمت بزواجه. وهذا التردد إلى حد التناقض أحياناً، الذى لم يكن يعده صاحبه عيباً أو خطراً .. كان وقعه شديداً على الفتاة، التى يقع عليها وحدها عبء التذبذب فى العلاقة. فلا تدرى أين موقع الخطوة القادمة إلى اليمين أم اليسار، أم تقف محلك سر؟! ولاريب أن عدة عوامل شاركت فى أن يكون صاحب الإرادة القوية، والذى بنى نفسه من العدم، على هذه الشاكلة من التردد فى الناحية الغرامية .. التى تستوجب إزاء جديتها حزما حقيقيا، يمنعها أن تكون تلاعبا عاطفيا، يهبط بها أن تصبح لونا من التسلية. ولعل أهم هذه العوامل تهافت المعجبات عليه، الذى يتيح له أو يضطره واعياً أو غير واع إلى أن يتخفف من التزاماته فى هذا الصدد.

على أية حال، تستجيب لايكا إلى ندائه وتسرع بالمجئ. آملة أن تعبر كلمات تشيكوف هذه المرة، عن واقع مختلف، تحسم فيه الأشياء، وترسو مركبها على شاطئ الأمان. ولكن ككل مرة يخيب الرجاء. ولا تملك خلاف المرات السابقات،

إلا أن تبكر في مغادرة الفنان، والعودة إلى مدينتها .. وقد بلغ بها الضيق منتهاه، إلى درجة أنها لا تسكت عما وقع، بل تبادر إلى مناقشة القضية، من ناحية إعزاز العاشقة بمن تحب وإعتذارها عن خطأ صاحبها قبل أن يفعل هو! وبالرغم من أن تشيكوف يدرك جنايته على الفتاة وطيشه، إلا أنه لا يهتز بمصارحتها. بل يكتفى بأن يسوق إليها الصراع الناشب فى أعماقه، والذى يدفعه إلى التردد .. "لايكا النبيلة الشريفة، ما أن علمتنى بأن رسائلى لا تلزمنى بشىء، حتى تنفست الصعداء.(!) وهأنذا أكتب إليك الآن رسالة طويلة، دون أن أخشى أن عمة ما، حين تطلع على هذه السطور، ستزغمنى على الزواج من مسخ مثلك. إننى من جهتى، أسارع لأطمئنك: ليست رسائلك فى نظرى غير ورود معطرة، وليست وثائق. وهكذا فأنت حرة. اهربى بعيدا عنى! ثم، لا، ومهما حدث، دعى رأسى يثمل بعطرك، وساعدينى على أن أضغط الانشوطة التى وضعتها حول عنقى .. آه! يبدو لى أننى أكتب حماقات. مزقى هذه الرسالة. لا تريها أحداً .. إذن، إلى اللقاء، يا كوز الذرة المحبوس فى قلبى. إننى ألثم علبة البودرة الخاصة بك بخشوع وغد، وأحسد حذاءك العتيق الذى يراك كل يوم"!

ومن الغريب أن تشيكوف كان يسخر فى أعماقه من الحب غير المتكافئ عاطفياً، الذى تمثله لايكا له. يقول في قصته القصيرة "بعد المسرح": "إن هناك شيئاً جميلاً، خلاباً،

خيالياً، فى أن يحب أحد الطرفين من صميم القلب، بينما يظل الطرف الآخر عديم المبالاة"!!

وما أشبه الصراع الدائر هنا بين الرجل والمرأة، أو بين تشيكوف ولايكا، بلعبة القط والفأر المشهورة. ومن الطريف أن يصورها أنطون تشيكوف نفسه بذات التكوين، فى إحدى قصصه القصيرة وهى "من مذكرات رجل نزق"! وإن جاءت الخاتمة مغايرة لما حدث فى الواقع، وكانت فارنكا أسعد حظاً من لايكا إذ استطاعت الأولى بمناورتها ومؤامرتها، أن توقع صاحبها نيقولا فى شر أعماله .. ويتزوجها! برغم أنه لم يكن يحبها ومن ثم لا يفكر أبداً فى الاقتران بها، خاصة وهو مثل مؤلفه من خصوم الزواج! وليس نيقولا وحده فى القصة هو من يتهرب من الزواج، وكأن تشيكوف يؤكد أن أعداء الزواج أكثر من أن يعدوا أو يحصوا! فهناك أيضاً الضابط، الذى حاولت أكثر من واحدة أن تكبله بهواها، وتدفعه إلى الزواج، ولكنه ينجو من المصير التعس، وينقذ نفسه بطريقة قصصية! فهو كما يقول الراوى - "المؤلفات الكاملة لتشيخوف" المجموعة الأولى ترجمة فؤاد أيوب وسهيل أيوب - "تجنب الزفاف بمناورة حاذقة، إذ قدم إلى الفتاة المتعددة الألوان شهادة طبية، تثبت أن الجرح الذى أصابه فى رأسه أضعف قواه العقلية، فهو بالتالى لا يستطيع حسب القانون أن يتزوج"! ويعقب الراوى: إنها فكرة وربى .. ولكن لماذا لا تجىء الأفكار الطيبة إلا متأخرة جداً"!!

إن لايكا لم تستطع أن تكون قوية مثل ساشا فى مسرحية تشيكوف "النورس"، وتحسم الأمر نهائياً، وتقترن بآخر. "وما القصد من حبه بغير أمل. من الانتظار سنين كاملة من أجل شيء .. لايعرف المرء ماهو .. ولكن عندما أتزوج لن يكون ثمة وقت للحب ولا لهموم جديدة .. وعلى أية حال فهو تغيير". وتقول فى موضع آخر: "ولو أن الحب تسلل إلى قلبك فخير ما تفعلينه هو أن تلقى به خارجا"! وعلى مر الأيام، أخذ الأمل الكبير الذى تمسكت به لايكا طويلاً إزاء حب تشيكوف يتقلص رويداً رويداً. نعم إنها ظلت تزوره بين آونة وأخرى، تجيء من موسكو إلى ضيعته الصغيرة فى القرية البعيدة. وفى كل مرة تغادر المكان تحس أكثر من سابقتها، أنها اكثر تشاؤماً فى إمكان الوصول إلى نهاية سعيدة لغرامها. وازدادت معاناتها، وتخبطت أفكارها ومن ثم أفعالها. وإذا كانت حريصة طوال هذا الوقت على مشاعر تشيكوف والبعد عما يضيق به أو يكره فيما يتصل بالحياة الخاصة، فقد رأت أن تجاوز هذا المنطق، يمكن أن يصلح قليلاً أو كثيراً من الأمور. ولعلها اتهمت نفسها أو منطقها القديم بمسئولية فشلها، فلولا أنها كانت طيعة ربما أكثر من اللازم، لما استمر إخفاقها العاطفى بهذا الشكل.

والوسيلة الأولى التى لجأت إليها هى أن تبعث الغيرة فى صاحبها، وتشعل نيران غضبه، وهو يجدها تقيم علاقة عاطفية مع غيره. ولكن المحاولة تفشل منذ الدقيقة الأولى. وسواء كان السبب إدراك تشيكوف أن فتاته الغاضبة تمثل، أو أنه

أصلاً لا يعبأ، فقد تجاهل الأديب مايقع أمامه ولايكا تصادق الكاتب الشاب الوسيم بوتابنكو! وأحزنها إخفاقها السريع، وازدادت تمزقاً، وضاقت بالبيت الذى كانت تعده قبلا جنتها، لأنه المكان الذى يضم حبيبها. وغادرته على الفور عائدة إلى موسكو وهى فى أسوأ حال .. تكاد تنكر نفسها وما ألم بها، بعد أن تسرب من بين أصابعها ما ظنت أنه فى قبضة يدها. تقول سونيا فى مسرحية "الخال فانيا" لتشيكوف، وهى يائسة من حب الدكتور استروف لها: ".. كم فى هذا من عذاب لم يعد لى أى أمل على الإطلاق .. (فى يأس) أى وربى .. امنحنى قوة .. كم صليت طوال الليل .. كم من مرة ذهبت إليه وبدأت الحديث معه، ونظرت فى عينيه .. فلم يبق لى أى كبرياء .. أو قوة لأتحكم فى نفسى .. ولا حيلة لى فى ذلك. من قبل وهى تعد نفسها حبيبة تشيكوف، فى الطريق الذى يمهد للزواج .. هيأت تكوينها ما أمكن لطاقة الإنسان العاشق وكل مايسعد الحبيب ويرتاح إليه، حتى لو كان ضد مزاجها الشخصى وطبيعتها. والآن ماذا يفيد الحفاظ على هذه الضوابط، والأمل مفتقد واليأس يتسرب إلى حنايا الروح. لقد كانت تناضل فى سبيل الحب، وضاع الحب، فلم الحرص إذن ولم يعد إلا السراب. وتتحرر لايكا من قيودها وينفلت عيارها، ولايضيرها أن يعرف تشيكوف هذا كله أو لا يعرف .. حتى أن يشارك فيه لو أراد. فهى لايكا أخرى غير التى كانت. تدعوه فى رسالة تنضح بالألم والعبث فى الوقت ذاته، قائلة: "إننى أحرق الشمعة من طرفيها، تعال ساعدنى

على أن أحرقها بأسرع مايمكن، لأنها كلما احترقت بسرعة، كان ذلك أفضل لى. ثمة إنسان وحيد فى العالم، يمكن أن يقينى فى هذا الوضع من التدمير الذاتى الواعى. لكن هذا الإنسان لا يهتم بى مطلقاً .. ومهما يكن .. فقد فات الأوان .. لاتنس تلك التى رميتها".

ومع تحررها من شخصيتها القديمة العاشقة التى ترضى بالاستسلام فى الهوى، كامرأة شرقية، فهى تدرك بوضوح لا مزيد عليه، أنها لاتزال تعشق تشيكوف. وأنها مربوطة به برباط سحرى. ولذلك تلجأ إلى المقاومة. تكتب إليه قائلة: "تعلم جيداً ما أشعر به نحوك، ولهذا فإننى لا أخجل مطلقاً من الكتابة إليك، أعرف كذلك أن موقفك نحوى موقف مترفع ولا مبال. إن رغبتى الأكبر هى أن أشفى من هذا الوضع اليائس الذى أنا فيه. إلا أنه صعب علىّ أن أتوصل إلى الشفاء وحيدة. أرجوك أن تساعدنى. أرجوك، لا تطلب منى بعد اليوم أن آتى وأراك، ولا تحاول أن ترانى". وتحاول لايكا أن تنقذ نفسها من التمزق الذى يفترسها، فلا تبلغ من ذلك شيئاً. فهى تستمر فى الهبوط، ولا تجد منفذا حتى من داخلها. وهى تعرف أنها ضعيفة إلى درجة لم تعد تمكنها من المقاومة. فالخيبة التى منيت بها أكبر من شجاعتها، والسراب الذى حصدته وأصاب فؤادها فى الصميم ألصقها بالأرض لا تريم. وعند السقوط تتساوى الأشياء جميعا. وفى هذه الحالة سلمت نفسها وهى حزينة حتى النخاع، لآخر هو الكاتب بوتابنكو.. الذى تصنعت معه يوما غراما، لتكيد حبيبها

وتوقظ هواه. لقد استدبرت لايكا الحب الـذى لم يقـدر لها، ولا السعادة التى حلمت بهـا، واستقبلت مـن أيامهـا الجـدب العاطفى رغم أنها صحبت عاشقاً .. بدأ منذ وقت غير قصير يعمل على الإيقاع بها. وفى كل مرة تتحطـم محاولاتـه علـى صخـرة قـوة حبهـا لتشـيكوف. فهـل أقدمـت الفتـاة علـى بوتابنكو، لأنها بنفسية المنتحـر تتسـاوى لديـه أدوات المـوت. أو لأنها وجـدت فـى لحظاتهـا القاسية الصـدر الحنـون الـذى افتقدته عند تشيكوف. أو هو إثبات الوجود الذى يؤكد لهـا أنها مطلوبة دائما؟

ثم يتزامن مع هذا الحدث، آخر لتشـيكوف .. يقـع كـأن الثانى نتيجة للأول، وكأنه رد فعل أو ثأر لما صنعت لايكا .. وهو غرام الأديب المشهور بالممثلة الشابة ليديا يافورسكايا .. التى شاعت وذاعت حتى وصلت إلى لايكا فـى عقـر دارهـا! وكان من المنتظر أن تستقبل لايكا الأمر ببرود، بعد أن طويت الصفحة، ولكن ذلك لم يحدث! فالفتـاة لا تـزال فـى أعماقهـا مغرمـة بـالحبيب الخـائن اللامبـالى، وهالهـا مـاوقع .. كـأن تشيكوف قديس متبتل، وليس فنانا ضعيف الإرادة أمام الفتنة، التى تقدم نفسها قربانـا علـى مذبـح غرامـه. ولاتلبـث أزمـة لايكا أن تتفاقم، وليديا تتعـرف عليهـا، وتقـوى صلتهـا بهـا، عندما تعرف أنهـا مـن أصدقـاء تشـيكوف القدامـى. وتصـل المأساة أو الملهاة إلى قمتها، وليديا تطلب منها أن تساعدها فى إقناع الكاتب المعروف بـالزواج منهـا! وتكـاد لايكـا تجـن ..

وبصعوبة شديدة تخفى آلامها. وعندما تكتب إلى تشيكوف بهذا الشأن تناديه "يا جلاد روحى".

ودوران الساعة لا يجعلها تعود إلى الوراء، ومع ذلك يبقى مافى القلب فى القلب لدى لايكا لا يبرحه .. فى نفس الوقت الذى تستمر فى صحبة بوتابنكو. لقد أصبح حبها لتشيكوف نوعا من الحلم المستحيل الذى تتشبث به، وليس كما كان فى البداية ممكن التحقيق. تتمسك به وهى فى منتهى اليأس، كأنه هو الذى يبقى عليها الحياة .. فإذا تركته، سلبت منها الحياة، وتوقف النبض، وغدت جثة هامدة.

والنار الهادئة التى ينضج بها الزمن الأحزان، ويشذب من الأطراف المدببة للآلام .. تحول الموج الهادر إلى تيار فاتر تكاد تتساوى مسطحاته، فتتداخل ارتفاعاته فى انخفاضاته. وحتى لو كان عمقه يغور، فلطول وقسوة المعاناة، تتهدج أنفاسه .. فلا تعدو ضرباته فى الحياة أن تكون هينة لينة، تؤكد أن هناك فحسب نفسا تتردد بالحياة. وهكذا اضطرت لايكا أن تتحول والأعماق عطشى إلى من اختاره القلب وبخل به القدر .. إلى مجرد صديقة، تنزوى فى ركن قصى كما شاء المعشوق القاسى بما تنزف. وطوال الوقت لا تنقطع الرسائل بينهما، ذاهبة آيبة بين الطرفين. فكما تكتب له .. يكتب لها، حتى فى أسفاره داخل وخارج روسيا .. تظل لايكا من أهم الأعزاء الذين لا تنقطع صلته الحميمة بهم! وفى بعض الأحيان يفضى إلى لايكا، بما يخفى عن حاملة أسراره .. مارى أخته نفسها! وفى مثل هذه الحالة يبدو تشيكوف كأنه يستعيد أمسه مع لايكا، عندما كان

يحمل لها الوله، وتهتف عواطفه كلها باسمها. وتكون هي وحدها التي يهتف بها القلب واللسان، وأول من يطلع على مكنون فؤاده، والحبيب الذى يتلقى اعترافاته. فلا غرابة إذن أن تجيء مثل هذه العبارة فى الرسالة: "لا أشعر أننى على ما يرام البتة. أسعل بشكل مستمر تقريبا. لاشك فى أننى تركت صحتى تهرب، كما تركتك تفلتين أنت نفسك"!

والعاشقة التى تتمنى استمرار لحظات وهج الأمس عند المحب القديم، لعلها تقدح الشرارة، وتشعل الحب ثانية .. تدرك جيدا أنه مستحيل، وأن مايعرض مجرد نفثات مؤقتة لا قدرة لها على البقاء أكثر، وإن تكرارها لا يخطر لصاحبها على بال. ولعل هذا الوضع هو مايتفق تماماً مع آراء تشيكوف فى صحبة المرأة، فهو يفصل هذه الصحبة كما يفعل استروف فى "الخال فانيا"، إلى عدة مراحل ليس من بينها الزواج على الإطلاق! يقول الطبيب .. "لا تكون المرأة صديقة للرجل إلا بعد ثلاث مراحل. أولها: أن تكون امرأة مقبولة وثانيها: أن تكون عشيقة وثالثها: أن تصبح صديقة! "ويمضى طريق كل منهما فى اتجاه .. وتصعب أمور لايكا. فبوتابنكو الذى كان يلاحقها فى كل مكان، ويتوسل إليها وهى مستعصية، ويغرم بها إلى حد أن يهجر زوجته ويتبعها، ويكاد يتفرغ لها. وكانت سعادته القصوى يوم أن استجابت لغزله، بعد نكبتها فى حب تشيكوف. يكاد لا تمضى عدة شهور على فوزه بها، واستمتاعه بحبها .. حتى يتبدل قليلا قليلا، ليلوح فى النهاية بتركها، والعودة إلى زوجته .. ويفعل. غير مبال بأن لايكا حملت منه.

ولا تجد المرأة المطعونة من جديد، إلا أن تكتب إلى صديقها وحبيبها القديم تشيكوف، تشكو إليه همها : ".. يبدو، بأنه قد كتب على ذلك، وهو أن الناس الذين أحبهم، يحتقروننى فى نهاية المطاف. إنى تعسة جدًا جداً. لا تضحك. لم يبق من لايكا القديمة أى أثر، وكيفما أفكر، فإنى لا أستطيع إلا أن أقول بأن الذنب فى كل هذا هو ذنبك. على كل حال، هذا هو مصيرى". ولأنها كانت فى باريس التى ذهبت إليها لتلتحق بمعهد موسيقى .. وحيدة .. مهجورة .. حزينة، مع طفلة أنجبتها من العاشق الذى خدعها، تلتمس حولها دفء الإخلاص الإنسانى، فلا تجد. تكتب ثانية إلى تشيكوف، مستنجدة هذه المرة، بإلحاح الإنسان الضعيف الذى تغلبه أنواء البحر العاتية. "إذا كنت لا تخشى من أن تصاب بخيبة تسببها لك لايكاك القديمة. تعال. لقد بقى منها شيء قليل.. أجل. هذه الأشهر الستة، غيرت حقا حياتى كلها. لكننى لا أعتقد أنك سترمينى بحجر. يخيل إلى أنك كنت دائما لا مباليا مع الناس، وإزاء نقائصهم ونقاط ضعفهم".

ولكن تشيكوف لا يهتز للمأساة التى انتهت إليها المسكينة، والتى كانت صاحبتها ضحيته هو قبل غيره بالدرجة الأولى. ويتجاهل استغاثتها، خوفا من أن يضعف بروده إزاء نكبتها. وكأنها لم تكن لايكا التى كان يحبها، وكتب لها أعذب الكلمات. والمعذبة فى غربتها، التى كان خطابها المستغيث إلى تشيكوف، يحمل أملها الأخير.. يطول انتظارها بلا فائدة. وتضطر أن تضغط على كرامتها فى سبيل حقها

فى صداقة الحبيب القديم، وتكتب إليه ثانية وثالثة.. "إنى فى باريس منذ شهرين و لم أتلق كلمة منك. أيمكن أن تكون غاضباً على؟ من دونك أحس أننى ضائعة تماماً وملفوظة. أهب نصف حياتى لأكون فى ميليكوفو، لأجدنى جالسة على الديوان معك، متحدثة إليك عشر دقائق، لأتعشى، وفى الجملة لأعيش كما لو أن هذا العام لم يكن قط، كما لو أن كل شىء كان كما فى الماضى."

ويستمر تشيكوف فى بروده لا مباليا كما نعتته لايكا من قبل.. كأنه قد أسرها فى نفسه لها. هذه اللامبالاة التى تصل إلى حد الفظاظة والإمتهان البشرى واللاإنسانية، فى احتمائها بالأنانية.. كانت تناقض تماماً ما هو معروف عن مواقف تشيكوف. وكأن هناك تشيكوفيين لا واحداً .. الأول دكتور جيكل والثانى مستر هايد! فالانطباع الذى يعطيه تعامل الفنان الكبير هو الغلظة والقسوة واللاإنسانية، وصاحبها يعبث بقلوب الفتيات وهو آمن مطمئن. وتعظم الدهشة لهذا الموقف المعيب، من كاتب يعظم القيم الإنسانية فى حياته بشكل عام خارج نطاق الغرام، الذى هو أدعى إليها، وفى كتاباته على السواء. ولكنه لا يكاد يحاط بالمرأة ويجد نفسه مرغوبا، حتى يزدهى بقوته، وينتشى بما بلغ من سلطان عند الجنس الآخر. ولا يعبأ أن يدوس بقسوة فى سبيل أن يستمتع ويتسلى، على قلوب تخلص له وتصدق كلماته. ويكون عيبها عنده أنها تستجيب إلى همساته. إن الفارق كبير بين الفتيات المسلوبات اللب المهووسات بالأضواء، اللاتى يترامين على أقدام المشاهير ..

ويقدمن طائعات أجسادهن قبل قلوبهن، حتى قبل أن يرغب صاحب الشهرة فى ذلك.. قربانا للوثن المعبود. وبين الإنسان الناضجة التى وضعها القدر فى طريق المشهور، فأعجب بها وأعجبت به .. ولولا هذا الإعجاب المتبادل، والفهم المشترك لما حفلت به. وكانت لايكا من الصنف الثانى. ولذلك فإن مسئولية تشيكوف فى خداعها وانحدارها مسئولية كاملة. وتحاول أخته مارى فى مذكراتها التى نشرتها بعد وفاة تشيكوف، أن تبرر قسوته الشديدة على لايكا فى مأساتها، التى كان هو المسئول الأول عنها، فتكتب مدافعة عنه بشكل غير موضوعى، ملقية اللوم والاتهام على الضحية! تقول: "لا أدرى ماذا كان يجول فى رأسه، لكن يخيل إلى أنه كان يجاهد لينتصر على مشاعره نحو لايكا. كانت بعض جوانب طبيعتها غريبة عنه: كان ينقصها الخلق، وتحب الحياة البوهيمية كثيرا"!!

ويسير الزمن متلكئا أو مسرعا، وتمضى الساعات مترعة بالسعادة أو الحزن، ويهنأ الناس بالصواب ويدفعون ثمن الخطأ، وتمض الأحداث، وتعود لايكا ثانية إلى وطنها بلا طفلتها .. التى ماتت فى باريس. وكانت المأساة قد هزت لايكا هزاً، وأرتها بشكل قاس الوجه القبيح للحياة والبشر. وأتت على مثاليتها وبراءتها وسذاجتها أيضاً. ولم تعد تخدعها الابتسامة المصنوعة ولا الكلمة المعسولة، ولا تقف عند سطوح الأشياء. وبهذا التكوين الجديد التقت بتشيكوف، وزارته .. بعد أن خلعت عن نفسها عواطف الهوى، واندفاع الشباب.

(٨)

وبعد هدوء العاصفة تبدأ الأنفاس المتلاحقة فى الانتظـام .. الذى يهيئ لاستجماع القوى، وتفجير الطاقة الفنيـة .. ويجتر تشيكوف فى أعماقه قصته مع لايكا، لتظهر بعد قليل فى أثـر أدبى عظيم، هو مسرحيته "النورس". وبمجرد أن يخرج مخطـوط المسرحية من حجـرة تشيكوف، وصاحبـه يرسـله إلى صديقـه الناقد سـوفرين، وقبـل أن يمثـل علـى المسـرح، يعـرف الكافـة والخاصة أن الشخوص الرئيسية فـى المسـرحية هـى لأشـخاص حقيقيـين معروفـين وأصدقـاء لتشـيكوف. وأن البطلـة نينـا زاريجنـا هـى : لايكـا ميزونوفـا، وتريغوريـن هــو الكــاتب : بوتابنكو، وأركادينا هى : زوجة بوتابنكو! واكتشـف القـراء التشابه الواضح بين الشخصيات الفنية والشخصيات الحقيقية. بينما ينكر تشيكوف هـذه الصلـة. وتكتـب إليـه لايكـا: ".. الجميع يقولون هنا، بأن النورس مستخلصة من حياتى، وأنـك قد شذبت أيضاً -وبشكل جيد- شخصية ما"!

يكتـب ايليـا ايرنبـورغ -ترجمـة د. ضيـاء نـافع- عــن "النورس" وصلتهـا الوثيقــة بحيـاة تشـيكوف وغرامـه: "إن شخصيات "النورس"، هـم بوتابنكو .. وعشـرات مـن مختلـف الشعراء والأدباء وكتاب المسرحيات، الذيـن كـان تشـيخوف يرعـاهم بصـورة دائمـة، وشـخصيات "النـورس" هــم لايكـا والنســاء الأخريـات اللواتـى كـان تشـيخوف يعـرف أسـرار قلوبهـن. كـل هـذا لا جـدال فيـه، ولكــن "النــورس" هــى

تشيخوف نفسه أيضاً .. أفكاره، رغباته، ولعه، صفحات طويلة من مذكراته التى لم يكتبها، والمضغوطة فى أربعة فصول، وهى ملحمة، وهى سيرة ذاتية".

ومن الأشياء الخاصة بتشيكوف التى تعرضها المسرحية ضمن عالمها، إعجاب المراة بأصحاب الشهرة الذين يتمثلون فى "النورس" فى لونين، وكل منهما يتشكل فى أنطون تشيكوف نفسه! الأول الطبيب المشهور ساحر النساء .. دورن، والثانى كاتب القصة المعروف .. تريجورين. بالنسبة للأول يقع هذه الحوار بين بولينا المتزوجة وعشيقها الطبيب دورن:

- .. ألا تأخذنى لأعيش معك؟ إن أيامنا تمضى ونحن لم نعد شباباً.

- من العسير على أن أغير من أسلوب حياتى وأنا فى الخامسة والخمسين.

- أنت لا تريدنى، لأن هناك نساء أخريات لك بهن صلة وثيقة، وليس فى وسعك أن تأخذهن جميعا ليعشن معك. أعرف هذا .. ومعذرة فقد مللتنى.

أما بالنسبة للرجل الثاني المشهور معشوق المرأة، فتقول أركادينا: "إن المرأة هنا غالباً ماتكون غارقة فى حب كاتب قبل أن تقرر أن تستحوذ عليه بوقت طويل"! ولا يقف التناول عند حد عرض القضية، بل يمضى الفنان قدماً فى تفسيرها .. خاصة على مستوى "النجم". فبينما كاتب القصة المشهور

يحوم حول نينا، ويريد أن يوقعها فى حبائلـه بأسلوب ذكـى، وهو يود لو أستطاع أن يبادلها مكانـاً ولـو سـاعة واحـدة .. "كى أعرف أفكارك وأى فتاة جميلة أنت بوجه عـام". تنبهر الفتاة بدنيا الشهرة والمجد والمال التى يمثلها، وتود هى الأخرى لو كانت مكانه فترة قصيرة "لأعـرف حقيقـة الشعور عندمـا يكون المرء كاتباً مشـهوراً موهوبـاً" .."يالروعـة العـالم الـذى تعيش فيه. كم أحسدك .آه. آه لو تعلم .. لم تختلـف مصـائر الناس".

يقول هنرى تروبا عن كثرة النساء فى حيـاة تشـيكوف .. "وما كان يسيئه أن يكون مشتهى من هـذا العـدد الكبـير مـن الصبايـا المتأججـات. كـان يقـول: إنهـن يؤلفـن "أسطوله"وإنـه"الأمـيرال". ويـدور هـذا الحوار فـى مسـرحية "النورس" ..

- .. إن لمـن طبيعـة الأشـياء أن يعجـب النـاس بالفنـانين، ويعاملوهم معاملة تختلف عن .. التجار مثلاً .. إنه نوع مـن المثالية.

- لقـد اعتـادت النسـاء دائمـاً أن يقعـن فـى حبـك، ويلقـين بأنفسهن عليك، فهل كان هذا مثالية أيضاً؟

- وماضر هذا؟ لقد كان هناك الكثير من الخير فى شعور هؤلاء النساء نحوى.

وتهتم مسرحية "النـورس" أو "طـائر البحـر" -ترجمـة حنـا مرقص- بالرجل الثـانى فـى حيـاة لايكـا وهـو بوتـابنكو فـى

شخصية تريجورين .. "أتخمته ملذات الحياة .. أما عن كتابته .. فكيف أتحدث عنها؟ إنها كتابات باهرة جداً وجذابة ولكن .. لا يميل الإنسان إلى قراءة تريجورين بعد أن يكون قد قرأ تولستوى أو زولا"! ولاشك أن عودة الصلة بين بوتابنكو وتشيكوف، هى المسئولة عن الرفق الذى تناوله به الثانى فى المسرحية. فقد لمس فناننا مأساة علاقته بلايكا لمسا رقيقاً! يقول تريبليوف: "هربت من البيت، وكونت علاقة مع تريجورين. وأنجبت طفلاً مات، ولم يعد تريجورين يحبها، وعاد ثانية إلى علاقاته السابقة كما كان متوقعاً. والحقيقة أنه لم يتخل عن تلك العلاقات. ولكنه أستطاع بطريقة ما بأسلوبه الملتوى أن يبقى عليها جميعاً. وبقدر ما أفهم مما سمعت فقد انتهى الأمر بحياة نينا الخاصة إلى فشل تام". وبعد ذلك عندما عدت إلى البيت تلقيت منها خطابات: خطابات نابهة حارة شيقة .. لم تكن تشكو، ولكنى شعرت أنها كانت فى غاية التعاسة. فقد كان كل سطر يشبه عصباً عارياً موجعاً .. وبدأ خيالها مرتبكاً كذلك "

ويجعل تشيكوف خلاص لايكا فى المسرحية، لا فى الشهرة والمجد اللذين حلمت بهما، ولا حتى فى الحب. بل فى "أن نعرف كيف نحتمل الأمور. كيف نحتمل آلامنا بإيمان"! ولما كانت مأساة لايكا كما فسرها تشيكوف فى المسرحية، ترجع إلى الرجل الثانى فى حياتها لا الأول الذى نكبها، فهو يبعد بذلك نفسه تماماً عن القضية. ويذهب فى تغيير الملامح إلى أبعد حد، والحجة بالطبع أن "النورس" عمل فنى وليس

ريبورتاجاً أو اعترافات. ويكون الحب المتمكن فى قلب لايكا بعد وقت طويل من المأساة، على خلافه فى عالم الواقع .. إذ تبقى المسكينة مولهة بمن يمثل بوتابنكو وليس العكس .. تشيكوف! تقول نينا فى المسرحية: "إنى أحبه. بل أحبه أكثر من ذى قبل. إن هذا موضوع يصلح لقصة .. إنى أحبه بحرارة. أحبه. أجل أحبه بتهور"!

وقد تناول تشيكوف مثل حب لايكا فى أعمال متعددة له، ولعل مدام رانفسكى فى مسرحيته "بستان الكرز"، هى إحدى صور لايكا فى حبها اللانهائى لمن تعشق .. فصاحبها أيضا لم يتزوجها وأحب غيرها. ومع خيانته فهى تقيم له فى قلبها معبداً، تتوجه إليه دائماً! .. "إننى أحبه. هذا أمر لا يحتاج إلى بيان .. إننى أحبه. أحبه. إن حبى له كالصخرة الثقيلة فوق كاهلى، تجذبنى إلى الهاوية، ولكنى أحب صخرتى، لا أستطيع أن أعيش بغيرها"!

أحد الملامح الأساسية فى أعمال الأديب الكبير أنطون تشيكوف، عنصر الهروب من السعادة! فما أكثر القصص عنده التى يهرب فيها أبطالها من السعادة! ومن الطريف أن فناننا نفسه كان فى حياته الخاصة على هذه الشاكلة .. يهرب هو الآخر من السعادة! ولكن أية سعادة؟! إنها السعادة المسئولة التى تندمج كلية فى الحب بكل لذاته والتزاماته، وتؤدى واجبها وتعطي مقابل ماتأخذ. ولا تتأخر عن دفع الثمن! والثمن غالباً هو الزواج! ومن الغريب أن تشيكوف الذى يجد فى الجو البيتى أمنه واطمئنانه وراحته القصوى،

والذى أحب أسرته بشكل عظيم، وبذل من نفسه فى سبيلها ما يعد قدوة. وكانت همومها أسبق فى اهتمامه من همومه .. لا ينشئ لنفسه أسرته الخاصة به المستقلة .. ولا يبادر إلى ذلك.

والأسلوب الحياتى الذى اتخذه تشيكوف مع لايكا فى قصة حبهما، ليس قاصراً على حدود عالم واقعه، بل يتجاوزه إلى الآخرين. ويكون هو نفسه الذى يستلهم أبطاله فى دنياهم القصصية! فى قصة "زيارة الأصدقاء" ينمو الحب القديم فى قلب بودجوين تجاه ناديا، التى تحبه هى الأخرى وتتمنى أن يتزوجها. ومع ذلك عندما يجد الجد، أى ساعة الاعتراف بالحب، ينكص الشاب على عقبيه ! يعقب فلاديمير يرميلوف على ذلك فى "أ. ب. تشيكوف" بقوله:" وتساءل بودجورين: لماذا لا تتزوجها على أية حال؟ و لم تلبث هذه الفكرة أن أفزعته بعد أن طرح على نفسه ذلك السؤال. فماذا أفزعه فيها إلى الحد الذى دفعه إلى التسلل من الضيعة صباح اليوم التالى على وصوله، مع أنه كان ينوى البقاء ثلاثة أيام؟ لقد فزع بودجورين من ذلك الشيء نفسه الذى أفزع نيكيتين فى قصة "مدرس الأدب" والذى أفزع ايفان ايفانيتش شقيق بطل قصة "عنب الثعلب" وغيرهما من شخصيات تشيكوف. أنه يخاف السعادة. ويقول له صديقه القديم مشيرا إلى علاقته بناديا: "لا تهرب من سعادتك ياميشا، وإنما تمسك بها، وهى فى متناول يدك، لأنك إذا تخليت عنها اليوم

فسوف تجرى وراءها غدا، وسيكون الوقت متأخرا ولن تستطيع اللحاق بها".

ومع ذلك لا يفعل أبطال تشيكوف، ولا تشيكوف نفسه قبلهم!

ولأن موقف فناننا من الزواج ليس مجرداً، أو هو ينصب فحسب على شكل الارتباط الشرعى، أو لما يفرض على الرجل من مسئوليات .. فقد شمل أيضا كل ما يدخل فى نطاقه من عناصر، حتى أروعها التى تعطى له امتيازه على كل نظام آخر! مما يصور مدى ما يبلغ بغض الإنسان إذا تعصب لوجهة نظر معينة، وهو يحول الأبيض إلى أسود، ويشوه أجمل الأشياء، ويجد كما فعل الأديب الكبير فى الزواج .. أن اسوأ ما فيه هو .. إقبال المرأة على شئون البيت ورعاية الزوج وتربية الأولاد! وفى هذا الإطار تشترك دهشة تشيكوف مع سخريته، فى التنديد بلهفة حواء بالذات على الارتباط بالزواج، وتكوين بيت تقوم على خدمته .. ويرمى المرأة بالغباء إذ تفعل ذلك! فهو لا يفهم كيف تتنزل حواء اللماحة العاقلة غير الغبية، إلى درك التفاهة والأعمال المنزلية. بينما هى بتكوينها خاصة إذا كانت مثقفة أو متعلمة، مهيأة لجلائل الأعمال، التى ليس من بينها أبدا أن تكون أشبه بخادمة وجارية، فى بلاط السيد الزوج والأولاد .. الذين ليس وراءهم إلا النكد والقذارة والضجيج وإصدار الأوامر! ويكون

حكم شخصيات قصص تشيكوف كحكم مؤلفها .. "ما أبعد الأمر كله عن الطرافة والذكاء"!

ومن الطريف أن الكاتب السوفييتى فلاديمير يرميلوف، يضطر إلى لوى عنق الأشياء، وهو يكتب عن تشيكوف هنا من وجهة نظر ماركسية .. بزعم أن فناننا الكبير الذى لم يعمل بالسياسة، ورفض الإنضمام إلى أى من التيارات السائدة فى عصره ومنها الماركسية -مات تشيكوف قبل الثورة البلشفية سنة ١٩١٧ بثلاثة عشر عاما- فيفسر موقف الأديب العظيم من الزواج بقوله: "والواقع أن شخصا مثله كان ينظر إلى الحاضر فى ضوء المستقبل، لا يمكن أن ينظر إلى حياة تهب فيها المرأة كل عقلها، وكل مواهبها، وكل طاقتها للعناية بعشها الصغير .. لا يمكن أن ينظر إلى مثل هذه الحياة إلا باعتبارها شيئاً مضحكا مشوها، وما أخصب الحياة لو أن هذه القوى الخلاقة كرست للبحث عن المسرات العظمى: الوطن الشعب والانسانية جمعاء! وكم تكون مسرات الحياة العائلية حينئذ أنبل وأسمى وأصدق شاعرية"!!

(٩)

من العوامل الهامة التى كانت تدفع الأديب العالمى إلى أحضان المرأة .. عامل الوحدة. فمع حب تشيكوف للإيناس، واستقباله للكثيرين من الزوار السريعين والمقيمين، فما أكثر ما شعر بالوحدة فى داخله، وعبر عنها فى أحاديثه للأصدقاء وفى أعماله الأدبية. وقد راع صديقه مكسيم جوركى وحدة

صاحبه، حتى أنه ليرسل إلى تشيكوف فى نهاية أبريل سنة ١٨٩٩، رسالة -كما جاء فى "بين جوركى وتشيكوف" .. ترجمة جلال فاروق الشريف- يقول له فيها .. "إن زوجتى امرأة نحيلة بسيطة ولطيفة وتحبك حباً عظيماً، وعندما حدثتها بأنك تحيا وحيداً، بدا لها هذا مجحفاً وكدراً للنفس حتى لترقرقت الدموع فى عينيها. تعال، سنستقبلك كما يستقبل ابن الأسرة.". ويعترف تشيكوف "لست أستطيع أن أعيش بدون رفقاء. فحين أكون وحدى يستولى على لون غريب من الخوف."

والحب فى كثير من الأحيان عند أنطون تشيكوف، هو العلاج. فى وسط أزماته والآمه النفسية والوجدانية بتطلع إلى اليد التى تهدهد والصدر الحنون والقلب الذى يتفهم .. والتى لا يجدها جميعاً إلا عند المرأة وحدها. فهى التى تستطيع أن تنتشله من ضيقه، الذى يفشل أحيانا فى مقاومته، وتعيد إليه مرحه وابتسامته. إن مجرد ظهور الشكوى فى كلمات تشيكوف الذى يكره الشكوى، يعنى عظم ما يلاقى ويتعرض له من أحزان. فكل الأشياء التى كان يستسيغها أو يمر عليها مرور الكرام، تصبح على النقيض مشاكسة مزعجة تفقده حلمه. يكتب إلى صاحبه سوفورين فى ديسمبر ١٩٨٨: ".. وأجدنى أحيانا وقد طفقت أكره كل شىء، الأمر الذى لم يكن يحدث لى من قبل. الثرثرات البليدة، التى لا تنتهى، الزيارات، ملتمسو العون، الروبلان أو الثلاثة التى يتصدقون بها على (مقابل استشارة طبية)، أجرة العربة التى أدفعها

لمرضى لا يدفعون لى كوبيكا واحداً. وباختصار فإن الفوضى منتشرة، حتى إننى، لو كنت أطيع نفسى، لهربت من البيت، إنهم يقترضون منى مالا، ولا يردونه، يسرقون منى كتباً، لا أحد يحترم وقتى، ويقدره حق قدره. لا ينقصنى غير حب تعس."

(١٠)

خلفية الصورة لكل نبض حياتى وفنى لتشيكوف يشكله المرض .. مرضه بالصدر .. وكان علة خطيرة لا منجاة منها فى ذلك العصر. وترجع إصابته بها إلى حادث وقع له فى صباه وهو فى الرابعة عشر .. كان مدعوا لقضاء عطلة فى الريف، وأثناء السفر سحره منظر نهر شبه متجمد والشمس تسطع عليه، وفكر فى الاستحمام فيه، واستجاب للرغبة الحمقاء .. التى دفع ثمنها ليلة ليلاء، أرغمته على قطع الرحلة، والعودة إلى بيته ثانية. وعندما شفى لم يعرف أن بذرة السل استقرت، وستكون علته باقى أيام حياته، وأنه هو الذى يقوده إلى قبره، وهو فى الأربعين من العمر.

وتمر السنوات ويصل أنطون تشيكوف فى عام ١٨٨٤ إلى الرابعة والعشرين، وقد تخرج من كلية الطب وعمل طبيباً .. وفى أحد الأيام انهمك لساعات طويلة فيما يشغل، فأنهك .. سواء فى كتابة قصصه الفكاهية التى اتفق بشأنها مع الصحف التى تنشر له وتدفع، وكذلك فى استقبال مرضاه الفقراء الذين لا يملكون قيمة الكشف .. ويجد نفسه فى شدة الضعف

يبصق دماً. ومع فزعه وتذكره لما وقع لـه بـالأمس البعيـد، لا يربط بين هذا وذاك، بل يلتمس أقـل العلـل خطـورة. وسـواء كان مصدقا بالفعل ما ذهب إليه، أو هو يخدع نفســه بـالوهم .. فقد اقتنع بأن مرضه سببه شريان مقطوع!

ويكون من طبائع الأشياء أن تقدم قصص تشيكوف بـأكثر من صورة، ماينفث عالم الإصابة بهذا المـرض. أن سيسـويف المـدرس بمدرسـة أحـد المصـانع بطـل "المـدرس"، يحمـل بعـض أشجان كاتبها .. فى أثناء الفترة الأولى للعلة، التى يحاول فيها المريض أن يخدع نفسه عن حقيقة مرضه. ويستنيم للأوهام أو الأمانى، التى تشكك في أصل ما يعانى منه، وتفرغ خطورتها من محتواها. ويصبح الأمر "لا يعدو أن يكـون مجـرد بـرد فـى المعدة، يسبب له ما يعانيه من سعال"! ويعقــب يرميلـوف فـى "أ.ب. تشيكوف"علـى ذلـك بقولـه: "ولا يملـك المـرء إلا أن يذكر تشيكوف نفسه فى هذا الصدد. فقد كـان يحـاول فـى ذلك الوقت الذى كتب فيه تلك القصة، أن يطـرد عـن ذهنـه فكرة مرضه بالسل بهذه المغالطة نفسها"!

ومن الطريف أن تشيكوف نفسه يفطن إلى غرابـة الموقـف، لأنه بالطبع غير عادى خاصة بالنسبة إلى طبيـب! فيشـرك فنـه فـى مناقشـته! تصـور قصتـه الطويلـة"حكايـة تافهــة – مـن مذكرات رجل هرم"-ترجمة الدكتور محمـد القصـاص- حالـة إخفاء مريض لعلته، ورفضه هو الآخـر أن يعـرض نفسـه علـى من يعالجه -وهو بالضبط ماكـان يفعلـه تشـيكوف أيضـاً فـى ذلك الوقت!- .. "لا يريد أن يعرض نفسه على طبيب. لمـاذا

لا تستشير طبيبا؟ لا يمكن أن يستمر بك الحال على هذا النحو! وا لله لا يعين إلا من يعينون أنفسهم، يا صديقى". ولا يتوقف الفنان الكبير عند مجرد إثارة القضية، بل يذهب إلى أبعد من ذلك فى سبيل الكشف عن مخاوف المريض، الذى لا يريد أن يجابه الحقيقة، ويعمل يائساً على أن يستبطئ اللحظة الحاسمة. فيوقفنا القاص على المعركة الناشبة داخل الشخصية، التى يعمل صاحبها عميداً جليلاً لإحدى كليات الطب .. والحوار الدائر فى الأغوار .. الذى تحدد إقامته فى الكهوف الدنيا التى لا ترى الشمس. يحدث نيكولاى نفسه معقباً على الحديث الذى دار حول مرضه، قائلاً: "استولى على الذعر من جراء الكلام عن مرضى، وشملنى نوع من عدم الرضا عن نفسى. ثم ساءلت نفسى: "حقيقة، لماذا لا أستشير أحد الزملاء؟ "وشرعت أرسم لنفسى صورته، وقد ذهب فى صمت نحو الشباك بعد أن انتهى من فحصى، وراح يفكر قليلاً، ثم عاد من جديد، وحاول أن يمنعنى من قراءة الحقيقة المرتسمة على وجهه، وانبرى يقول فى لهجة عادية: "لم أجد لديك شيئاً خاصاً. ولكنى مع ذلك أنصحك أيها الزميل، أن تكف عن العمل .."ومن شأن هذا القول أن يقضى على كل ما بقى لى من أمل. ومن منا لا يعلل نفسه بالآمال؟ الحقيقة أننى حين أقوم أنا بتشخيص نفسى، وعلاج نفسى، أستطيع من حين لحين أن أعلق الآمال على جهلى، الذى يخدعنى وأتهمه بالخطأ ..".

وإذا كان تشيكوف يفرض حالة الكتمان على علته، ويكره الحديث عن مرضه .. خاصة في طوره الأول. فلم يكن في الإمكان أن يحبسه في أعماقه حتى بينه وبين نفسه، ولا يعبر عنه بقلمه. وهكذا بدون أن يشعر يتسرب ما يخفى ويظهر في قصصه، كما حفل إبداعه الأدبى .. عاكساً كل ما يفجر المرض من الآم وأوهام وأحلام، وما يبدل في تكوين صاحبه خارجياً وداخلياً. وهو يصرح باسمه حيناً، ولا يسميه حيناً آخر. من اللون الأول قصته الطويلة "قصة رجل مجهول" – ترجمة محمود الشنيطي– "كنت مريضاً بالسل فى أول مراحله، وكنت أعانى من شيء آخر، ربما كان أدهى من السل. لست أدرى! أكان ذلك من أثر العلة، أم لأن فلسفتى في الحياة أخذت تتبدل تبدلا لم أكن أعيه إذ ذاك، ولكن شغفاً جارفاً مثيراً بالحياة اليومية العادية راح يستولى على يوما بعد يوم. كنت أتوق إلى الهدوء الذهنى، والصحبة والهواء النقى والطعام الجيد. بدأت أغدو رجلاً حالماً ..". ومن الطريف أن قصة رجل مجهول "تحفل أيضاً بالإشارة إلى سيدة ماتت بالسل.. وهى أم بطلة القصة!

ومن الصنف الثانى، قصته الطويلة "حياتى" –ترجمة محمود الشنيطى– التى يصور فيها بطلتها بهذه الملامح: "ولكن شحوبها كان علامة على المرض. وكثيراً ما كانت تسعل. وكثيراً مالاحظت فى عينيها التعبير الذى يراه المرء عند المرضى المدنفين، الذين يحاولون لسبب ما إخفاء مرضهم".

ولم يكن تشيكوف فى أحوال كثيرة، يريد أن يفكر بأمر مرضه .. لأن ذلك يفرض عليه ذكر مضاعفاته، ومن ثم يضطره إلى مواجهة الرعب .. والتفكير في الموت. ومن هنا أخذ يبعد عن منطقة الخطر هذه، متسلحاً بمجرد البقاء فى حالة تبسيط الأشياء حتى لو كانت مخلة! يكتب هنرى ترويا مصوراً ذلك بقوله: "فإن بصق الدم، الذى عاوده، ينهكه .. وكان يرفض، على ارتيابه بطبيعة مرضه، أن يستمع لمن يؤكده له بشكل رسمى. كان يفضل، والقلق يعتصر فؤاده، أن يظل فى التوقع لا اليقين. وقد كتب إلى ليكين رسالة فى (٦نيسان ١٨٨٦) يقول فيها: "إننى أخاف أن أخضع نفسى للفحص المتعمق من قبل زملائى فى الطب، فسيكتشفون فجأة نوعا من التنفس المتمادى، أو من انعدام الرنين .. أعتقد أن الداء متأت من الحنجرة أكثر من كونه متأتيا من الرئتين .. لا حمى لدى".

ويساعد الطقس شديد البرودة فى موسكو، على ازدياد مرض أنطون تشيكوف. ويكون العلاج الذهاب إلى البقاع الدافئة فى روسيا، ويكثر الطبيب الفنان من زياراته لها، ويستمتع بوقته فيها. ولكن علته تزداد تفاقما .. ويبصق دماً بشكل أكبر .. ولا يزال المريض الطبيب يتشبث بأنه ليس مصاباً بالسل، بل بأى مرض آخر أقل خطراً وغير مميت. وحجته أنه لو كان السل، لكان قد مات وشبع موتاً! فالسل على حسب قوله لا يترك ضحيته طويلاً بهذا الشكل! يكتب إلى أحد أصدقائه، بعد أن تعرض فى فترة إلى تكرار نزف

الدم: "إن ذلك كله لا يشغل بالى، اللهم إلا حين أرى الدم. ففى رؤية الدم جارياً من الفم، شىء ماكوارثى، كما فى لهب الحريق. وحين لا يكون هناك دم، فإننى لا أتألم ولا أرى .. خسارة جديدة للأدب". ويتساءل هنرى تروايا: ترى أفى هذا التأكيد، المستغرب حين يصدر عن طبيب، تعبير عن الخوف من الحقيقة، أم عن الرضا بما ليس منه بد؟ إن مما لاجدال فيه، أن تشيخوف كان يرفض الاعتقاد بأنه مصاب، حتى يتمكن من أن يستمتع بالقليل من الحياة التى ظلت له، على أفضل وجه. كان يدرك، دون أن يعترف لنفسه بذلك، أنه يستحيل عليه أن ينال سعادة ظاهرية على هذه الأرض، إلا إذا كذب على نفسه هذه الأكذوبة. كان يعمى نفسه عن وضعه حتى لا يفقد لذة العمل والصداقة والنجاح".

أخذ تشيكوف بكل الوسائل الميسرة فى الوعى واللاوعى، يصد عن نفسه أولاً وعن جسده ثانياً، خطورة مرضه، الذى يهون من شأنها ولا يعترف بها. ولذلك لم يكن فى حاجة أبداً إلى من يذكره بها، ولكن القدر يفعل ويجسدها أمامه تجسيداً .. وأخوه نيكولا يصاب فجأه بالسل، ويكون أنطون هو الطبيب المعالج، الذى يعطيه من حدبه ووقته الكثير .. الأمر الذى يفرض عليه فرضاً، التفكير فى مصابه هو أيضاً. كان أديبنا يردد لأصحابه وفى رسائله .. "إن نيكولا مصاب بالسل الرئوى المزمن، وهو داء غير قابل للشفاء، يجب أن يطرح السؤال بالشكل التالى: إلى كم سيطول مرضه؟ لامتى سيشفى". ولاريب أنها ذات الأسئلة الدامية التى كان يوجهها

إلى نفسه عن نفسه. وهكذا تضاعفت الآم تشيكوف، وهو يعانى مرتين فى ذات الوقت .. إرهاب المرض، الذى لم يلبث أن قضى على شقيقه، وترك فى روح أديبنا جرحاً لا يندمل.

و لم يكن ممكناً بعد ذلك أن يستمر تجاهل تشيكوف .. إنساناً قبل أن يكون طبيباً، بحقيقة مرضه أو تظاهره بعدم خطورته. وإذا كان موت شقيقه نيكولا بالسل ليس كافياً للإعتراف بالواقع، فإن حادثا آخر هزه تماماً وأتى على البقية الباقية من إدعائه، وهو اصابة وموت واحدة من أهله بالسل أيضا. كان يحبها حبا كبيرا .. هى خالته فيدوسيا. لقد أحس بما لا يقبل الشك، أنه محاصر وأهله جميعا، بمرض عائلى يتسلل إلى كل منهم وفيه نهايته أيضاً. ويعترف تشيكوف بالعلة المستهولة ويذعن للمصير.. ولكن إذعانه يجيء تمردا، كأنه ينقم على ما أصابه. وفى فورة غضبه يرفض العلاج والأطباء. يكتب إلى صديقه رئيس تحرير جريدة "الزمن الجديد": "أعتقد أن عافيتى لا يمكن أن تعود أبدا كما كانت من قبل. ثم إن الأمر متروك لمشيئة الله. إن الرعاية والقلق المتعلقين بحالتى الجسدية يوحيان إلى بنوع من الاشمئزاز. لا أريد أن أعالج. سأشرب المياه المعدنية، وحبوب الكينا، غير أننى لن أسمح لهم أن يفحصوا صدرى بالسماعة".

ويلتمس أديبنا الكبير النجاة من شبح علته، من معينه الأول فى الحياة .. وهى إرادته الصلبة. ولما كان الخوف هو أداة هذا الشبح للتنغيص عليه وترويعه، فقد لجأ إلى استجماع قواه جميعا ليدحر هذا الخوف، عاملا على إقناع نفسه من منطلق

"أعرف أننى سأموت من داء لا أخشاه. فإذا كنت أخاف، فلن أموت إذن". وهناك باعث آخر كان تشيكوف يطمئن إليه فى إنجاز مهمته، وهو أنه رجل علمانى. والعلمانى الذى يقيم الأشياء بالمادة، ويستخلص قواه من القيم غير الروحية، لا حاجة به لأن تكون فكرة الموت لها مابعدها .. مما يزعج ويخيف، لأنها تحمل المرء عبء عالمين لا واحداً. بل هى تنحصر فى نطاق الدنيا لا الآخرة! يقول الطبيب دورن فى مسرحية "النورس" لسورين: ".. إن الخوف من الموت خوف حيوانى. عليك أن تكبته. فالمتدينين من الناس هم فقط الذين يشعرون بالخوف من الموت، لأنهم يؤمنون بالحياة المقبلة، ويخشون أن يعاقبوا على خطاياهم. أما حالتك فمختلفة - فأنت أولا- غير متدين".

وبعد مجالدة مع النفس ينجح تشيكوف فى محاولته، ويدحر الخوف من المرض، ليعيش حياته كما يعيشها أى إنسان، فى الانتصارات والهزائم.. وإن لم يمنع هذا بالطبع العلة فى التسلط أكثر وأكثر على صاحبها .. فتزداد مرات السعال، ويصحو فجراً ليبصق دماً. ولأننا بشر مهما بلغت إرادتنا، فلا نستطيع فى هذه الحالة أن يبقى متفائلاً أو هادئاً. وإذا ظهر تشيكوف فى اتصاله بالناس وحركته فى المجتمع بوجه باش، فهو لا يقدر أن يخادع نفسه وهو يكتب أدبه. ولذلك حملت قصصه فى هذه الآونة، تشاؤمه الواضح. يقول هنرى ترويا :"كان تشاؤم تشيخوف يتأكد من قصة لقصة. إن حالته الصحية، التى كانت تفاقم من قلقه .. ونوبات السعال فى الفجر،

كانت تتركه أحيانا منضوحاً مرهقاً خلال ساعات. إن ذلك ما كان يجعله مستعداً للتفاؤل". وينعكس هذا التشاؤم أيضاً في شكل آخر .. هو زيارة المقابر، التى تصبح بالنسبة إلى أصدقائه، ظاهرة تثير الدهشة. ففى أى مكان يزوره، لابد أن توضع المقابر فى بند الزيارة! سواء أكانت لهذه المقابر أهمية أو ليس لها. وهذه العاطفة سبقت فى الظهور سفره إلى ايطاليا ورحلته إلى جنوة ومشاهدة مقابرها المشهورة التى تعد كما هو معلوم .. تحفة فنية لا نظير لها. ولاشك أن زيارة القبور ليست شيئا مجرداً، أو منبتة الصلة بألصق القضايا بها، وهو الموت. بل هى على العكس، تشكل الإلحاح الداخلى لتسلط حتمية النهاية. هذا الإلحاح الذى يخالج الإنسان المأزوم المحاصر بالخطر المحدق، الذى يزداد منه اقترابا كل يوم. وهو شىء آخر غير الرعب من الموت، الذى يشل التفكير، ويمضى بصاحبه إلى نهاية طريق الاستسلام.

ومع ذلك فإن العلاقة العضوية بين المرض الخطير والموت، لا تمكن صاحب هذه العلة من الهروب من التفكير فى الخاتمة .. حتى لو كتمه عن الآخرين .. فسينتهز الفرصة عند صاحب القلم، ليرفع الرأس معلنا عن نفسه بضراوة. وهكذا يتحدث تيوزينباخ فى مسرحية تشيكوف "الشقيقات الثلاث": "وبعد ألف عام، سيقول الناس كما يقولون اليوم "الحياة صعبة" وفى الوقت نفسه سيخافون الموت كما يخافونه اليوم، ويرغبون عن لقائه كما نفعل نحن".

وعظيم مقاومة تشيكوف لآلام مرضه، تبلور قيمة إنسانية نبيلة، تلازم أصحاب النفوس الكبار، وهى عدم الشكوى. ففى الوقت الذى يلوك فيه غيره من الفنانين الأقل قامة منه، أيسر الآلام والأحزان، متطفلاً بها على المتلقى، لم يعرف عن الأديب العظيم أنه سمح لأنينه أن يخرج عنه، ويجعله إحدى المواد الفجة المباشرة التى يقدمها للقراء أو الأصدقاء. يقول بونين -عن يرميلوف فى "أ.ب. تشيكوف" ترجمة القط- "كان يحيا حياة فيها كثير من البساطة النبيلة، ويمقت القبح والسوقية، ولكن لما راض نفسه عليه من الإرادة وقوة الاحتمال. لقد ظل مدى خمسة عشر عاماً يعانى الآم مرض خطير، ساقه إلى القبر فى النهاية .. وكثير من المرضى يجدون متعة فيما يهيؤه لهم المرض من شعور بالعطف، ويلذ لهم أن يعذبوا من حولهم بشكواهم الدائمة وتذمرهم المتصل. أما تشيكوف فقد أبدى أثناء مرضه وفى ساعاته الأخيرة شجاعة رائعة حقا"!

(١١)

ولدت أولجا ليونارد فنوكينبر فى بيت ميسور الحال، لأب مهندس من أصل ألمانى عمل مديرا لمصنع، وأم صاحبة موهبة فنية، تجيد العزف على البيانو وتحلم باحتراف الفن والعمل المسرحى .. ولكن زوجها رفض، وظلت تندم على ذلك طوال حياتها. وبالرغم من أن الابنة ليست مثل الزوجة.. إلا أن موقف الأب من المسرح وممارسته، ظل كما هو .. عندما هفت أولجا إليه! ولم يكن هذا هو موقف الأب من الفن

بشكل عام، فعندما أبدت الابنة رغبتها فى تعلم الرسم واحترافه، لم يوافق فحسب بل أخذ يشجعها. وأكثر من ذلك يضع لها خطط المستقبل الفنى .. كأنها أمنيته قبل أن تكون أمنيتها. ولعل رأى الأب في العمل بالمسرح وخشيته على ابنته منه، كان موقف كل أب تقليدى، إزاء مجتمع لا يضم القمة -فى ذلك الحين- بل القاع، والجهلة فيه أكثر من المثقفين .. والحفاظ على الأخلاق ليس من شيمهم. كما تباح فيه الحرية الشخصية أكثر من اللازم، ويسود فيه الانحلال كغذاء يومى!

ولكن الفتاة لا تلبث أن سئمت الرسم، بعد أن قدمت فيه بضع لوحات، وبعد أن عرض الأب رسومها على الفنان فلاديمير ماكوفسكى، الذى شجعها. ولكن أولجا لم تجد نفسها فى هذا الفن، وانجذبت روحها إلى شيء اسمه المسرح. وكانت أولجا تشارك فى طفولتها وصباها مثل غيرها من التلميذات، فى العروض المسرحية التى تقام فى المنازل أو المدارس أو الجمعيات الخيرية. ولا يجد الأب فى ذلك بأساً، فالتمثيل لا غبار عليه إذا قام على مستوى الهواية، أما إذا تعداه فهو غير محترم .. ملعون! ولم تكن الفتاة تجهل رأى أبيها القديم فى العمل بالمسرح، ولكنها ظنت أن التطور الذى ألم بالمجتمع منذ رفض لأمها رغبتها فى إحتراف الفن، قد غير بشكل أو بآخر موقفه الحاسم. وخاب الظن وصدمت أولجا .. كما وقع لأمها من قبل. "واصلت حياة يخيم عليها ما يشبه الضباب، آخذ نفسى بشيء مرة ثم أتركه إلى آخر، دون

أن يكون لى هدف أو غرض محدد. كان المسرح يجذبنى إليـه، ولكنه كان من الجنـون فـى تلـك الأيـام أن أفكـر فـى تحطيـم مابينى وبين عائلتى، وأهجر المنزل الذى تحفنى فيه تلـك المحبـة وذلك الحنان. إلى أين أذهب؟ من الواضـح أنـى كنـت أفتقـر إلى الشـجاعة والثقـة بـالنفس اللازمـين لمثـل تلـك الخطـوة العنيفة".

ومع ذلك يكون للقدر رأى آخـر فـى حتميـة وصـل صلـة أولجا بالمسرح وعـدم قطعهـا، إذ يموت الأب فجـأة، ويكـون الالتحـاء إلى الفـن وسـيلة عيـش ضروريـة .. قبـل أن يكـون استجابة إلى نوازع روحية وأمزجة فنية. فالأب لم يترك شـيئا ذا بال لأسرته، التى تحولت مـن اليسـر إلى العسـر. وفرضـت الأزمة أن تستغنى الأسرة عن الكثير الذى تنعم بـه .. المسـكن الكبير الفـاخر، والريـاش الثمينـة، والخـدم الخمسـة، إلى حيـاة شـديدة التواضـع، تقـاسمت فيهـا الأسـرة شـقة شـقيقى الأم. وتجابه الأم وابنتها قسوة الدنيا، وهما تنزلان إلى معترك الحياة، تناضلان في سبيل أن تطفو الأسرة على السـطح ولا تغـرق .. وتمكين الصغير شقيق أولجا من اتمام تعليمه كأخيه الأكبر الذى أصبح مهندساً، ويعمل فـى القوفـاز. كمـا أخـذت الأم ذات الصوت الجميـل، والتـى كـانت مـن أمنياتهـا أيضـا الالتحـاق بالكونسرفتوار، تعطى دروساً فى الغناء .. بينما أولجـا تعطـى دروساً فى البيانو.

ومع نضال العيش تتبلور مرة أخرى فكرة الالتحاق بمدرسة التمثيل، وكـانت أولجـا قـد بـدأت تعـرف بفضـل احتكاكهـا

بالحياة والناس والمجتمع، صعوبة ذلك من جوانب كثيرة. وتدرك كم كانت ساذجة زمان، وهى تظن أن العقبة الوحيدة فى تحقيق حلمها هو رفض والدها. وكأن اجتياز ذلك يفتح أمامها على الفور أبواب الطريق على مصراعيها. ولم يحدث .. فقد وجدت كل الأبواب موصدة! وقبل فوات الأوان تستعين بشىء تقف على وجوده لأول مرة ولدهشتها عرفت أن لا غنى عنه أبدا فى التعامل مع الحياة الروسية اسمه "الواسطة" حتى فى معاهد العلم .. ولولاها لما استطاعت أن تفوز ببغيتها، وتنضم إلى طلبة مدرسة التمثيل، وهى فى نفس الوقت تعمل، كى تتمكن من الحصول على لقمة العيش ودفع المصاريف. وتستمر فى كفاحها ثلاث سنوات تتخرج بعدها فى عام ١٨٩٨.

فى هذه الأثناء ترددت أنباء عن قيام المخرج الكبير ستنانسلافسكى بالتخطيط لإنشاء مسرح جديد عصرى. واشتعلت لهفة عشاق المسرح، وكل منهم يتمنى أن يسعده الحظ بالانضمام إلى هذا المسرح، تحت قيادة مخرجه العظيم. وأتيحت لأولجا هذه الفرصة وانضمت إلى فرقته. وتعمل الفتاة فى العروض المقدمة بحماس شديد، ليس باعثه حبها للمسرح فحسب، بل لفشلها فى حبها الأول أيضاً! .. "وأقنعت نفسى بأن المسرح وحده هو الذى سوف يملأ كل حياتى".

عندما أسس نيمير دانتشنكو أستاذ الفن الدرامى مع الممثل والمخرج المشهور ستانسلافكى، مسرح الفن الشعبى، الذى

أصبح مسرح موسكو للفن، كان أول ماخطر بباله من المسرحيات التى يعرضها على المسرح الجديد .. واحدة أعجبته و لم تلق حظاً فى عرضها الأول وهى "النورس" لصديقه القديم أنطون تشيكوف. وهكذا كتب إلى صاحبه يطلب إليه موافقته .. ويرفض تشيكوف! فهو لم ينس بعد الإخفاق الذى منيت به فى العام الماضى فى العاصمة سان بطرسبرج، وصخب الجمهور الغاضب الذى لم تعجبه. وماعانى من الآلام حتى إنه هرب من المسرح، هائماً متجولاً فى الشوارع إلى مابعد الفجر. ولكنه إزاء إلحاح الصديق القديم، يقبل بعد لأى وهو لا يرتجى خيراً .. ويعد نفسه للتعرض لفشل آخر.

ولا تكاد البروفات تمضى قدماً حتى يدعوه المخرج إلى الحضور .. ويستجيب تشيكوف. وماكاد أعضاء الفرقة يسمعون الخبر حتى عرت الجميع بلا استثناء خاصة الممثلين الشبان هزة شديدة! فالالتقاء بالأديب العملاق المشهور كان أمنية مستحيلة لدى الكثيرين: ويسحر تشيكوف من حوله بعفويته وبساطته، وتكون أولجا أولهم .. والتى تقول: "لقد أسرنا جميعاً سحر شخصيته الأخاذة غير العادية، وبساطة سلوكه، ولباقته، وتواضعه الملحوظ الذى يجعل من الصعب الاعتقاد أنه رائد فى مجال الثقافة. لم نعرف ماذا نقول. كان ينظر إلينا مبتسماً تارة وجاداً تارة أخرى، وقد عراه ما يشبه الخجل". ويكون الممثلون الشبان فى أدائهم مفاجأة للمؤلف، فقد وجد منهم فهما دقيقاً لمسرحيته، كان يعوز الممثلين

المحترفين فـى العـرض الأول. كمـا اسـتقبل استقبالاً حماسـياً، شـجعه علـى البقـاء أكـثر، والمشـاركة فــى تفسـير جوانـب المسرحية. ومع ذلك تقبل الفرقة على تقديم "النـورس" وهـى واجفة، فالإخفاق السابق الذى تعرضت له من مسرح آخر .. وصعوبة المسرحية أفزعتـاهم .. "كنـا جميعـا نحـب تشـيكوف ككاتب. كان يهزنا من الأعماق. ولكننا، وكما قلـت مـن قبل، عندما قرأنا "نورس البحـر" لم نستطع أن نتصـور كيـف يمكن تمثيلها. فقد كانت لا تشبه بالمرة أية مسـرحية عرضـت بالمسارح الأخرى .. كانت تبدو لنا شيئا رقيقاً قـابلاً للكسـر إلى حد نخاف معه أن نلمسه!"

منذ الاجتماع الأول لتشيكوف بالفرقة، لفـت نظـرة الأداء الجيد لممثلة ناشئة جميلة ذكية تخرجت حديثاً هى أولجا كينـبر. قامت بأحد الأدوار الهامة والصعبـة فـى المسـرحية، وهـو دور آركادينا. أما هى فقد اهتزت لمرآه بشكل شـخصى، بجـانب ما يمثل لقاء أديب مشهور بفنانة صغيرة تبدأ خطواتهـا الأولى. تكتب أولجـا بعـد ذلـك .. "هنـاك أوقـات تبـدو فيهـا الحيـاة وكأنها عيد رائع. وهكذا كان عام ١٨٩٨ بالنسبة لى. ففى تلك السنة حدثت ثلاثـة أشـياء رائعـة: تخرجـت مـن مدرسـة التمثيل بكلية الفيلهارمونيك، وافتتح مسـرح موسـكو الفنـى، والتقيت بأنطون بافلوفيتش تشيكوف. وكانت الأعوام القليلة التالية امتـداداً لذلـك العيـد المجيـد، أعوامـاً مـن العمـل البهيـج الخلاق، تفيـض بـالحب والتضحيـة، وتحفـل بـالعواطف النبيلـة والثقة الحقة".

ويبدأ فى صمت الإعجاب المتبادل بين تشـيكوف وأولجـا. ولعل تزايد إعجاب الأديب الكبير بالممثلة الناشئة لم يظهر لنفسه وللآخرين، إلا بعد أن أبدى اهتماماً واضحاً بها خارج نطاق مسرحيته، فيتابعها أيضا فى بروفات عمل آخر، ليس له، كانت الفرقة تعده ليكون افتتاح موسمهـا، وهـى مسرحية "القيصر فيدور" لألكسى تولستوى .. وتقوم فيها أولجا بـدور أيرينا. يكتب تشيكوف لصديقه سوفورين .. "فـى رأيـى أن إيرينا كانت رائعة وأن صوتها ونبل مواقفها وصراحتها كانت من الكمال، حتى إن الإنفعال كان يعتصر حنجرتى. لو أننـى بقيت فى موسكو لوقعت فـى غـرام إيرينـا هـذه"! ولم يعـرف تشيكوف وهو يكتب رسـالته هـذه فـى أكتوبـر ١٨٩٨، أنـه بالفعل سيقع فى غرامها. وسيصل بـه العشـق لأول مـرة إلى درجته القصوى، التى تدفعـه إلى ضرورة الحفـاظ علـى فتاتـه بالشـكل الوحيـد المقبـول .. الـذى كـان يحـرص دائمـا علـى الابتعاد عنه، وهو الزواج!

ولكن ما هو حقيقة موقف تشيكوف من الزواج؟!

كان الأديب الكبير يدهش بينه وبين نفسه لأصدقائه الذيـن يلحون عليه -بجانب أسرته وأمـه بـالذات- أن يـتزوج. فمـا حاجته بـالفعل إلى الـزواج وتكاليفـه المختلفـة، وهـو يسـتمتع بمزاياه، ولا يتعرض لمسـئولياته. فالنسـاء يـترامين عليـه، وهـو ينتقى من بينهن .. فـلا تقتصـر عواطفـه علـى واحـدة. وهـو بتركيبه النفسى لا يحمل هم من يعشق، كأن الحب فـى مرتبـة أدنى .. لا يستأهل أن يعمل له حساباً. كما أن حريتـه التـى

لا تجد وهو أعزب، تمكنه من أن يعيش حياته كما يشتهى تماماً، بلا حسيب أو رقيب أو إزعاج من زوجة أو أولاد. فلماذا إذن يعرض نفسه للخطر، ويقيد حركته بلا مقابل؟ يكتب مداعباً إلى صديقه الصحفى المعروف سوفورين الذى كان يلح هو الآخر عليه فى الزواج: "حسن جداً، سأتزوج إذا كنت تريد ذلك. إلا أن شروطى هى الآتية: يجب أن يبقى كل شيء على وضعه. أى أن تعيش هى فى موسكو، وأنا فى الريف. وأن أذهب أنا فأزورها. لا أستطيع تحمل هذا الضرب من السعادة، الذى يستمر يوما بعد يوم. إذا تزوجت فإننى لن أكتب بشكل أفضل."!

كما يكتب إليه أيضاً في نفس الموضوع فى شهر نوفمبر من ذات السنة، مصارحاً إياه .. "إننى أخشى الزوجة، والرقابة المنزلية التى ستزعجنى. والتى لا يمكن فى الواقع أن تتلاءم وفوضاى. ولكن ألا يكون ذلك أفضل من الانحراف فى أوقيانوس الحياة، والترجح فى زورق الفجور الهش؟ الآن، انتهيت من حب العشيقات".

والحب الكبير -الذى لم يصادفه تشيكوف حتى هذه اللحظة- هو وحده من وجهة نظره الدافع الأوحد على الزواج.. أو زواجه هو بمعنى أدق. كما جاء ذلك فى رسالة بعث بها إلى أخيه الأصغر ميشال الذى حثه على الزواج! .. "لا أهمية للزواج إلا حين يكون المرء عاشقاً. الزواج من شابة لمجرد أنها لطيفة، يشبه شراء شيء غير نافع من السوق، لمجرد أن هذا الشيء ظريف. إن أهم شيء فى حياة الأسرة

هو الحب، والجاذب الجنسى، وواقع أن تكون الأسرة جسداً واحداً. جميع الأمور الأخرى غير محققة ومملة، مهما تكن حساباتنا دقيقة. فليس الموضوع إذن اكتشاف فتاة لطيفة، بل فتاة يمكن أن نحبها."

ويشاء القدر أن تكون أولجا كينبر هى هذه الفتاة! على أية حال، فبالرغم من أيام تشيكوف السعيدة فى موسكو، وإعجابه الشديد بأولجا، الذى وهبه راحة واستمتاعاً .. إلا أنه قطع رحلته فجأة وغادر المدينة. فقد تأثرت صحته بالبرد الشديد، وعاد النزيف مرة أخرى، بعدُ وقت من العافية. وسافر على التو إلى يالطا فى الجنوب، حيث الجو دافئ ومناسب لصدره. ورغم نصح الأطباء للطبيب الأديب المشهور، بالحد من نشاطه وانفعالاته وهو يكتب، أو يشارك فى خدمة مجتمعه فى مختلف نشاطاته .. إلا أن تشيكوف لا يستمع إلى النصيحة. وقيامه على منهجه فى تجاهل مرضه، يعيش حياته. ولكن المرض لا يتركه يتجاهله، ويصب عليه نقمته، فيتعرض الفنان الكبير مع نوبات السعال والنزيف، إلى تعكير نفسيته. يتحدث تشيكوف يوماً وهو فى يالطا إلى مكسيم جوركى، الذى نزل عليه. وكانت صداقتهما قد بدأت عن طريق المراسلة، مشيراً إلى تفاقم مرض السل عنده، ومايثير ذلك فى النفس من ذكر الموت .. "أن نحيا وفينا فكرة أنه يجب أن نموت، ليس شيئا ممتعا، لكن أن نحيا ونحن نعرف أننا سنموت قبل أواننا أمر فى غاية الغباء."!

وهو فى هذه الحال بين الفـرج والشـدة، لا تلبـث أن تجيئـه أنباء سارة بشأن مسرحيته التـى تعرض فـى موسـكو .. فقـد استقبلت هذه المرة علـى العكـس مـن العـرض الأول، بنجـاح عظيـم! فقـد وفـق المخـرج والممثلـون فـى التعبـير عمـا تملــك "النورس" من ثراء كبير. وكانت عملية التوصيل جد ناجحة، برغـم مـا كـانت عليـه الفرقـة، وفـى مقدمتهـا مخرجهـا ستانسلافسكى من اضطـراب وخـوف، مـن أن يلقـى العـرض نفس المصير الأسود فى سان بطرسبرج. فى هذه الآونة كـان من مسراته فى مرضـه، كمـا يقـول هـنرى ترويـا "أن تعشـقه امرأة لطيفة، مرحة وذكية، مثل أولجـا كينـبر التـى مثلـت فـى "النورس". وبينما يفكر تشيكوف علـى هـذا النحـو، كـانت أخته مارى فى موسكو تتعـرف علـى الممثلـة الشـابة، بعـد أن أعجبت بتمثيلها وشخصيتها .. وتتصادقـان. وتكتـب الأولى إلى أخيها فى يالطا، ولم تكن تعرف ما يحمل للممثلة فى قلبـه من ميل عاطفى شديد لم يتبلور بعـد .. "أنصحـك بـأن تـولى كينبر بعض الانتباه. إنها، فى رأيـى، مثـيرة جـدا للاهتمـام". وكأن تشيكوف كان فى حاجة إلى إشـارة أختـه، ليبعـث إلى أولجا يدعوها إلى يالطا .. وتجىء الفتاة. وتقضى أيامـا ثلاثـة لا تنسـى .. "كـانت أيامـا ثلاثـة مـلأى بأحاسـيس رائعـة، بالفرح، وبالشمس". وعندما غادرتـه بـدت كأنهـا أقسـمت معه على عهد غير مكتوب.

يصور هنرى ترويا الانطباع العاطفى الذى تركـه كـل مـن تشيكوف وأولجا للآخر، فى بداية تعارفهمـا .. كـانت أولجـا

ممثلة بكل جوارحها، لكنها أيضا كانت تحب الحياة بجوارحها تحت مختلف أشكالها. كانت قادرة على التكلم فى الفن والأدب بذكاء. ولم تكن تعتقد أن اهتمامها بالأثواب ينزل من قيمتها، لا بالقبعات أو حتى بالمطبخ. ومنذ لقائها الأول بتشيخوف أدركت أن عليها، حتى تروق فى عينيه، أن لا تلعب دور المثقفة العجفاء، بل أن تكون الغنوج المرحة، العفوية، الملأى بالصحة والرغبات. وفرضت نفسها عليه، وهى فى التاسعة والعشرين، ببشرتها الفاتحة وشعرها الحريرى الفاحم، وحدقتيها الضاحكتين، كصورة للتجدد. كان أكبر منها بعشر سنوات فقط، لكنه مستهلكا بالمرض، كان ينظر إليها بعينى عجوز عطوفتين.".

ومنذ زيارة أولجا لتشيكوف والصلة بينهما فى الازدياد. يكتب إليها بأسلوبه المرح، وقد غابت عنه فى زيارة طويلة لأخيها في القفقاس: "مامعنى هذا؟ أين أنت؟ لقد بدأنا نفكر فى أنك سلوتنا، وتزوجت فى القفقاس .. إذا كان الأمر كذلك فبمن تزوجت؟ أتراك لم تقررى هجر المسرح؟ المؤلف منسى .. أوه! ماأقسى ذلك! ما أرهبه! ما أغدر ذلك". ويسطر إليها فى مرة أخرى .. "مرحبا، أيتها الصفحة الأخيرة من حياتى، أيتها الممثلة الكبيرة فى الأرض الروسية. أغبط السرخاسيين الذين يشاهدونك .. أتمنى لك مزاجاً رائعاً وأحلاماً ساحرة". ويتزاوران ويلتقيان فى مكان ثالث، ومع أن الصلة تزداد توثقا وعمقا .. وتشيكوف يشعر أن علاقته بأولجا غير عادية، إلا أنه يلجأ فى تعامله معها، إلى نفس

أسلوبه المحاور المداور الذى يقترب ويبعد .. ولا يواجه الحب أبداً. بحيث لا تعرف الفتاة أين موقعها بالضبط من صاحبها. وهل هو يحبها أم يعابثها .. وبذلك أحست أولجا.

كانت أولجا تمثل لدى تشيكوف الحياة والفن، فهى من يحب، وهى أيضا الساحرة التى تشارك فى تجسيد عالمه المسرحى. فهى جزء منه فى التنفس اليومى، والنبض الفنى معاً. فلا غرابة عندما يكتب عمله المسرحى الثانى وهى "الخال فانيا"، وتنتهى إلى مسرح الفن، أن يكون لأولجا دور البطولة فيها .. أى دور ايلينا لنوشكا الزوجة الشابة للاستاذ المتقاعد سربرياكوف. وتبعث إليه أولجا من موسكو وهو فى يالطا، رسالة تسأله فيها عن المزيد من التفاصيل حول أعماق شخصية البطلة، خاصة أن مخرج المسرحية يختلف فى نظرته إليها عن كاتبها. ويكون مثل هذا الحوار الفنى مكتفاً لمشاعر العاطفة عند الجانبين! تدفع العلاقة بينهما إلى الأمام طولاً وعرضاً!

وكانت مارى توأم روح شقيقها أنطون، مطمئنة إلى أنه كالعهد به مع هؤلاء المعجبات .. مغازل جرىء ومحب وامق، يكتفى من العشق بالوصول إلى محطته قبل الأخيرة. أما إعطاء نفسه كلية للحب والحبيب، فهو مالا سبيل إليه أبداً .. لأنه يعنى الزواج، وهو ضد مفاهيمه على طول الخط! ولكن تشيكوف لأول مرة فى حياته يخيب أمل أخته، وحب أولجا يتغلغل فى أعماقه، بعد أن تكسرت عليه نصال اللف والدوران، والإقدام والإدبار، وفى أغوار النفس عدم التشبث

بالمرأة. لقد انداح هذا كله، وتخطت أولجا وهى لا تشعر كل العوائق، التى كان تشيكوف يضعها عادة فى طريق الوصول إلى فؤاده. وفوجئت الفتاة نفسها بهذه النتيجة، بعد أن كاد اليأس أن يعصف بها، لما ظنت أنه فشلها فى حبه. ويتنفس تشيكوف للمرة الأولى فى حياته .. عطاء الحب والجنس لامرأة واحدة، يبذل لها من نفسه وروحه. تكتب أولجا .. "كان يكمن إحساسٍ عميق يزداد قوة باستمرار، ويزداد إلحاحاً علىّ أن ثمة قراراً يجب أن يتخذ. وبعد كثير من التأمل قررت أن أربط حياتى بحياة تشيكوف بغض النظر عن صحته الضعيفة، وولائى العاطفى للمسرح. كنا نؤمن أن الحياة يمكن، بل يجب أن تكون جميلة. ولقد كانت حياتنا جميلة بالفعل رغم فترات فراقنا المؤلمة. فهذه الفترات تنتهى دائماً بلقاء جديد. وأحسست أن الحياة مع إنسان مثل تشيكوف ستكون متحررة من الخوف والمتاعب. فلديه موهبة عظيمة فى نبذ كل عكارة، كل الأشياء التافهة، وكل ماهو مبهم، ويتنافى مع الجوهر الحقيقى لجمال الحياة".

كانت فى زيارة قصيرة له ثم سافرت، وافتقد الفنان الكبير الصبر فى البعد عنها، ويسطر لها .. "عزيزتى أولجا، يافرحى .. إننى ضجر، أتصور طيلة الوقت أن الباب سيفتح فجأة وستدخلين منه. لكنك لا تأتين. لابد أنك حاليا تتدربين .. بعيدا عنى وعن يالطا. إلى اللقاء أيتها الصغيرة الفاتنة ..

"عزيزتى، أيتها الممثلة اللطيفة والرائعة. أننى على قيد الحياة. أفكر بك، وأحلم بك، وأتضجر لأنك لست هنا.

ريح غاضبة تهب. الزورق لا يسير، الموج قوى جداً. أناس يغرقون، لا قطرة مطر، كل شيء جاف، كل شيء يزوى. كل شيء بعد رحيلك فى حالة سيئة. من دونك، أصبح قادراً على شنق نفسي .. دارى صحتك، وكونى سعيدة، يا ألمانيتى الصغيرة الرائعة ..".

ويعرضه الحب الحقيقى لمعرفة شيء جديد، لم يكن به عهد من قبل، وهو .. الغيرة! نعم. أن المعجبات يغرن بسببه، وهن يتزاحمن حوله، ويخطبن وده وحبه، من بعضهن البعض .. ولكن أن يشعر هو نفسه بالغيرة، فأمر لم يتصور حدوثه بالمرة! أن رسائلها تتحدث ببراءة، عن لحظات ممتعة وسهرات مرحة وأناس التقت بهم، ويدس الشك نفسه فيما يتصور خلف هذا كله. ويتألم متمثلاً ماجاء عن الإخلاص فى مسرحيته "الخال فانيا"!! ".. إن هذا الدرب من الإخلاص زائف من أوله إلى آخره. وهو كثير الرنين فى غير منطق، فهى لو لم تكن وفية لزوج هرم لا يمكن احتماله .. لاعتبرت فاسدة الخلق، ولكن ليس من فساد الخلق فى شيء أن تعمل جاهدة لخنق كل مابها من شباب وحيوية وقدرة على الحس"! ولاشك أيضاً أن وحدة تشيكوف ومرضه فى البلد النائى الذى يستشفى فيه، تجعلانه أكثر شكاً فيما لا ارتياب فيه. ويكتب إليها "رسائلك قليلة. وأنا أفسر ذلك بواقع أنى بدأت أضجرك، وأن آخرين يغازلونك"!

وتغضب أولجا للاتهام الجائر، فهى ليست كذلك. كما أن هذا الشك يجيئها فى وقت كانت فيه شديدة التفكير فى

حبيبها تشيكوف، بعد أن ظنت أن ارتباطهما بالزواج وشيك. فهى تنتظر منذ وقت غير قصير، بعد أن اعترف كل منهما لصاحبه بما تضم جوانحه من غرام للآخر، وأعطى كل منهما نفسه للثانى روحاً وجسداً .. تنتظر على أحر من الجمر، أن يقترن بها. وترى الزواج مسألة وقت، بعد أن رأت الطريق يوصل إليه .. ولا تكتم ذلك بل تسره لأقرب من تعرف. ولكنها بدل أن تسمع منه الكلمة الحلوة، تقرأ ألمه وشكه فى أن هناك من الرجال من تلهو معه. وتكتب إليه، ويعتذر لها .. ولكنه مع ذلك يبخل عليها بالكلمة المرتقبة! "فى أى أمر تحديداً أبديت قسوة إزاءك؟ لقد أحبك قلبى دائماً، وكان رقيقاً منعطفاً عليك، ولم أخف ذلك عنك مطلقاً. مطلقاً. مطلقاً. إنك تريدين، على ما يبدو من رسالتك، وتنتظرين تفسيراً، حديثاً طويلاً، تكون فيه سيماؤنا راضية، ويؤدى إلى نتائج جدية. لكننى، من جهتى، لا أعرف ماذا أقول لك، دون ريب، لفترة طويلة، إننى أحبك، وهذا كل شيء. إذا كنا لا نعيش معاً حالياً، فما ذلك ذنبى ولا ذنبك، بل ذنب الشيطان، الذى وضع فىّ عصيان، وفيك حب الفن"!

كان تشيكوف مع اطمئنانه إلى مرفأ أولجا الأمين، الذى رست عنده سفينة حياته، يحارب فى نفسه فكرة الزواج، رغم أنها تبدو أحياناً أنها ليست بذات خطر! وبالرغم من أن شائعة زواجه قد تكررت عدة مرات مع كل حب جديد، سواء من تنجيم الناس، أو عن طريق بطلة قصة الحب نفسه،

أو من ظهور تشيكوف الصاخب فى المجتمعات مع صاحبته ..
إلا أن الشائعة هذه المرة بدت كأنها تحكم قبضتها عليه.
ويكفى أنها وصلت إليه فى عقر داره، من أبعد مكان يظن أنها تجيئه منها .. وهى بلدة ينجنى نوفجورود، فكأنها وصلت إلى كل بقاع روسيا! حيث وصله خطاب من صديقه الشاب الذى بدأ أسمه يلمع، وهو مكسيم جوركى! يكتب إليه الأخير بتاريخ مطلع يناير سنة ١٩٠٠، من هذه البلدة البعيدة يقول: "أجل، يقال إنك ستتزوج، لست أدرى ممن ـ ممثلة تحمل أسماً أجنبياً. لست أصدق شيئاً من هذا. وإنى لأهنئ نفسى إذا صح الأمر. الزواج أمر حسن إذا لم تكن الزوجة قطعة حطب أو رصينة. غير أن الأطفال هم أفضل كل شىء. آه، إن ابنى شيطان طيب! إنه فائق الذكاء، وسترى ذلك ..".

ما كاد تشيكوف يشعر أن فكرة الزواج تحاصره بهذا الشكل الطاغى، التى يمكن أن تعرضه للإنزلاق إليها حتى تملكه الفزع، وأحس أنه يساق إلى مايشبه الإعدام ! وقرر أن يتجاهل بحسم تلميحات أوليجا الصريحة أو غير المباشرة، وأصبح يضيق ذراعاً بكل من يحدثه عن زواجه، أو اللعنة التى يخشى أن تحط عليه. ولعل هذا الضيق هو المسئول ربما قبل مرضه فى بعض الأحيان، عن أسفاره المفاجئة. تكتب إليه أولجا بعد واحد من هذه الأسفار: "لماذا رحلت مع أنه كان يجب أن تكون إلى جانبى؟ لا أستطيع أن أتقبل هذا الفراق.
أمس حين كان القطار يبتعد ، وكنت فى الوقت نفسه تبتعد

عنى، شعرت للمرة الأولى بوضوح أننا كنـا نفـترق. وسـرت طويلاً خلف القطـار، كمـا أننـى مـا زلـت غـير مصدقـة، ثـم أخذت فى البكاء، كما لم أبك من سنوات طويلة."

"كانت لهجة رسائله دائماً كثـيرة الرقـة، لكـن دون إشـارة إلى زواج محتمل. وواصل من بعيد وهو الشكوكى المتخفـف، لعبة الإغواء، والكآبة، والهرب، مـن بعيـد. فقـد كتبـت إليـه مباشرة بعد رحيله: "تعلم، يا أنطون، أنى أخاف أن أحلم، أو بالحرى أن أعبر عن أحلامى بصوت مرتفع، إلا أنه يبدو لى أن من الممكن أن يتمخض حبنا عن شىء ماجميل وقوى. وعندما أبدأ بالإعتقاد بذلك، تملأنى الرغبة بالحياة وبالعمل، ولا تعـود جوانب الحياة الأخرى تسبب لى الغيظ. لا أعود أتساءل لمـاذا أحيا. "وعوضاً عن أن يشاركها الرأى، فإنه كـان يمتنـع عـن الحديـث عـن المسـتقبل. إن مرضـه لا يجعلـه معـداً للمشـاريع طويلة الأمد. عليه أن يحيا يوماً بيوم، بتعقـل، أن يقتصـد فـى قواه، وأن يصون قلبه. ويجيـب أولغـا فـى ٢ كـانون الثـانى: "إننى أحبك، إلا أنك لا تدركين ذلـك. أنـت فـى حاجـة إلى زوج، أو بـالحرى إلى عريـس يرخـى عوارضـه ولـه شـارة موظف. أهنأتك بالسنة الجديدة فى الرسـالة السـابقة؟ كيـف إذن لم أفعل ذلك؟ لكن أنا، مـن عسـاى أكـون؟ لسـت شيئا مهماً حقاً!"

وتخيم سحابة على العلاقة بين الحبيبـين .. لقـد رأت أولجـا فى أصرار تشيكوف على عدم الإقدام على الزواج، مـا يهـدد سعادتها ويسيئ إلى كرامتهـا. فهـى تربـأ بنفسـها أن يسـتمر

حبها يعيش فى الظلام، ملتمساً السرية للتنعم بحقوقه .. كأى فعل خاطئ يريد أن يتخفى عن العيون .. بلا اعتراف به. ويحاول الفنان الكبير أن يخفف من غضبها وثورتها، فلا يستطيع. ويدعوها إلى يالطا وترفض .. إنه لا يهمه إلا أن يهنأ وفق مفاهيمه الخاصة، حتى لو عارضت أى مبدأ. ولما كانت نبرة غضب المرأة فى مثل هذه الأحوال، ليست بالشيء الطارئ على تشيكوف فى قصص حبه، فلم يدهش لها. وانتظر أن تهدأ فورتها، ليعود إلى سابق عهده مع صاحبته. ولكنها لا تفعل. واستشف شيئاً خطيراً يمكن أن يفقده أولجا إلى الأبد .. إن فى كلماتها ما يشى بالتمرد على الحب، وما يقود إلى التهديد بالإنفصال." .. يخيل إلى! أنك لم تعد تهوانى كما كنت، وأن كل ما تبتغيه، هو أن أجىء، وأن أكون هناك، قربك"!! ومن المعروف أن الممثلة الشابة، التى لم تعد ناشئة منذ وقت طويل .. صاحبة شخصية قوية لا تهزل فى وقت الجد. وكان تشيكوف قد تيقن منذ زمن أن أولجا ليست كالأخريات اللاتى مررن بحياته، وأن حبها تمكن من قلبه وعقله ونفسه جميعاً. فهى حبه الكبير، الذى لا يمكن الإستغناء عنه مهما كان الثمن.

وشىء آخر لايقل خطراً .. فمع لجوء تشيكوف إلى الهروب من شبح الزواج الذى يطارده، فقد أدرك هذه المرة أنه قد جد جديد طرأ، فهو يحس أن هناك ما يشده إلى الأرض بالفعل ويقيد حركته. وأنه لم يعد له الحق فى الترف الذى يمارس، سواء كان على صواب أو على خطأ. كما لم تعد له

القوة على مقاومة ماكان يناضل ضد نفسه والآخرين. وكان قد بدأ منذ وقت قصير يعترف لنفسه ولأصدقائه أن مرضه خطير بالفعل، وأن حياته قصيرة. أما ماكان يكتمه، فهو ضرورة أن يمتع ذاته إلى أقصى حد، بما تبقى له من سنوات معدودة. يقول تيوزينباخ في مسرحيته "الشقيقات الثلاث" -ترجمة د. على الراعى- .. إن بى ظمأ شديد للحياة، للنضال، للعمل. وهذا الظمأ قد إمتزج بحبى لك يا إيرينا". ومن هنا تضاعف حب تشيكوف للحياة، وعول على ألا يضيع دقيقة أخرى فى أوهام شخصية .. وأهم هذه الأوهام .. بغضه للزواج! وإزاء الخطر، يستجمع قواه ليحدد لنفسه مصيره النهائى .. واختيار السعادة، حتى لو اضطر أن يتعايش سلمياً مع غريمه القديم .. الزواج! و لم يكن القرار سهلاً بلا ذيول. ويكتب إلى أولجا بأسلوبه المرح. "أننى متعب جداً من الجريان فى كل الاتجاهات. وقد غدت صحتى، بشكل أكيد، صحة عجوز، حتى إنك ستحصلين في شخصى على جد لا على زوج .. لقد هجرت الأدب نهائياً، وعندما أتزوج منك سآمرك بترك المسرح .. وسنعيش معاً كمزارعين .. ألا تريدين؟ حسناً، إذن استمرى فى التمثيل خمس سنوات أخرى، وسنرى فى ما بعد.."!

يكتب هنرى ترويا فى "تشيكوف" -ترجمة خليل الخورى- مصورا هذا الحدث .. "وقد رضخ تشيخوف، وهو فى آخر رمق من مقاومته، وهو يشعر شعورا عجيبا من الاضطراب ومن الشقاء. كان يترك القضاء يفعل فعله. كان كأنه يسقط

عموديا فى المجهول. وكتب إلى أولغا فى ٢٦ نيسان يعدها: سآتى إلى موسكو فى أول آيار، واذا أعطيتنى كلمة شرف، أن لا تعرف نفس واحدة بزواجنا قبل أن نتمه، فإنى على استعداد للاقتران بك حتى فى يوم وصولى. لا أدرى لماذا أتوجس كثيراً من الاحتفال، والتهانى، وكأس الشمبانيا الذى يجب إمساكه باليد، ونحن نبتسم بشكل مبهم". وأضاف: "كل شىء لدى منظم، كل شىء، ما عدا تفصيلا صغيراً: صحتى".

لم تكن أولجا فى حاجة إلى أن تعارض أدنى معارضة، فيما يريد تشيكوف من ترتيب الزفاف. فقد وافقت على الفور، وقد كادت الفرحة تخرجها عن طورها. فهى لم تصدق عندما كتب إليها عن قرار الزواج. إنها تؤمن إذا كانت هناك عقدة فى تكوين حبيبها، فلن تكون سوى الزواج. وتاريخه كله وعلاقاته النسائية يؤكدان ذلك. إن فرحتها الغامرة وسعادتها القصوى بتحقيق الأمل، الذى لم تكن تنتظره فى أغلب الأوقات.. دفعها إلى أن تستسلم لرغبته فى عدم الاحتفال، على طول الخط. وهى تدوس على أحلام كل فتاة، فى أن تكون ليلة الزفاف هى ليلة العمر. ومن الطريف أن تشيكوف لم يكن انطوائيا ليكره الإيناس، وتجمع الصحاب، واللهو والقصف، والمرح، والشراب .. بل على العكس، فهو اجتماعى من الطراز الأول .. يحب الصحبة والأوقات السعيدة. فما البال إذا كان هو محور المناسبة السعيدة التى لا تتكرر. ولاريب أن هذا الموقف يعكس بأدق الملامح، بغض

تشيكوف للزواج وسيرة الزواج وكل ما يتصل بمراسم الزواج! ويذهب الأديب الكبير فى ذلك إلى أبعد حد، فهو لا يخبر بإقدامه على الزواج أحداً من أهله .. حتى أقرب الناس إليه وأسرته إليه .. كاتمة سره أخته ماري! ولكى يبلغ فى كتمانه الدرجة القصوى، وخوفاً من أن ينفذ سره إلى الآخرين، بأى شكل من الأشكال، حاك مؤامرة صغيرة أو مايشبهها بذكاء شديد، كأنه يؤلف قصة محبوكة .. ليضمن أن أصدقاءه جميعا وكل من يهمه الأمر .. لن يعرفوا الخبر إلا بعد وقوعه. دعا أصحابه فى موسكو إلى مأدبة عشاء فى مطعم فاخر، وفى هذه الأثناء كان يعقد قرانه على عروسه فى كنيسة صغيرة! ويكاد لا يفعل، حتى يرسل إلى مدعويه الذين ينتظرون بفارغ الصبر، برقية تعلنهم بزواجه. كما بعث ببرقية أخرى إلى أمه تحمل نفس المعنى، طالبا منها أن تبارك زواجه. ثم يسافر فى الحال هو وأولجا من موسكو إلى حيث يقضيان شهر العسل! وينعم تشيكوف بالحب والسلام والزوجة.

لماذا لم يرسل تشيكوف إلى أحب مخلوق إليه فى أهله وهى أخته ماري، التى تعد الشقيقة والصديقة وكاتمة السر ويده اليمنى، ينبئها بالزواج الذى هو مقبل عليه؟ هل يخشى غضبها الكبير المنتظر، الذى يتناسب مع حبها الشديد وتفرغها له، وعدم زواجها بسببه؟ هل يحس أنه خانها، لأنه نقض العقد غير المكتوب بينهما، الذى بمقتضاه يكتفى كل منهما بصاحبه عن الآخرين؟ هل لباعث أنه تزوج، مع أنه كان يكره لها

نفس الفعل .. مما اضطرت معه إلى رفض الإنسان المناسب الذى تقدم لها مع ميلها إليه؟

وكان يعكر عليه صفو سعادته فى شهر العسل، أن أمه أرسلت تهنئه، بينما صمتت أخته فلم تكتب أو تبرق له حرفا! فعرف أن وراء الأكمه ما وراءها .. واستشعر هبوب عاصفة قادمة من غضب مارى. وتألم لذلك، وحبه لشقيقته يبلغ أعماق الروح. ثم جاءته رسالة منها، وفوجئ أن تاريخها قديم، ويرجع إلى ماقبل زواجه .. ولكنها لم تصل إليه فى موعدها لتنقلاته الكثيرة. وكانت رداً على رسالة سطرها إليها بطريقته المرحة التى تحول الجد إلى هزل والهزل إلى جد، فلا يتأكد المرء عن أى منهما يقصد تشيكوف .. يشير إلى إنه يفكر فى الزواج. ومن السطور الأولى أدرك أن أخته استشاطت غضباً، لمجرد أنها عرفت بذلك! "دعنى أقل لك رأيى فى أمر زواجك. بالنسبة لى شخصياً فإن هذا السلوك يصدم. ومثل هذه العواطف، فى وضعك سطحية. من يحبك، لا يتخلى عنك. ولا مجال فى مثل هذه المسألة لأدنى ذرة من التضحية من هذا الجانب ومن الأنانية من جانبك. كيف أمكن لمثل هذه الأفكار أن تدخل رأسك؟ أنانية، لماذا؟ فى وسعك أن تتزوج ساعة تشاء. يمكنك أن تقول ذلك لفتاتك كنتشتس (أحد الأسماء المحببة التى كانت تشيخوف ينادى بها أولغا – المترجم خليل الخورى). عليك قبل أى شيء أن تفكر فى وضعك الصحى. ثم إنى أستحلفك بالله ألا يذهب بك الظن إلى تصور أن الأنانية هى التى تجعلنى

أقول مـا أقولـه. لقـد كنـت عنـدى دائمـا المخلـوق الأقـرب والأعز. وسعادتك هى همى الوحيد. ولست أحتـاج سـوى سماع أنك معافى وسعيد .. يا إلهى كم سيكون عسـير العيـش من دونك شهرين كاملين، حتى فى يالطا. لو أنك تسمح لى أن أجيىء، حتـى ولـو لأسبوع واحـد، فـأراك وأنـت تتـابع العلاج باللبن المخمر هذا. إذا لم تجب فوراً على هذه الرسالة، سقطت مريضة. انقل إليها تحيتى".

إحدى المحاولات المستميتة فى منع الخطر الداهم، التى تلجأ هى إليها وتوفق دائماً. ولكن فى هذه المرة تشذ عن القاعدة. ولاشك أن لو علمت مارى أن خطابها هذا سيصل متـأخراً، بعد أن تقع الفأس فى الرأس من وجهة نظرها .. لما خطت فيه كلمة. فقد كتبته وهى تكاد تكون مسـيطرة علـى الأحـداث التى تقع فى نطاق الأسرة كلها، وتقوم بـدور شـديد الأهميـة فـى تشـكيل حيـاة أخيهـا الداخليـة .. خاصـــة فيمـــا يتصـــل بالخطوط العريضة لعلاقاته مـع النسـاء. ففـارق كبـير بـين أن تكون مارى من أصحاب الشأن الأساسيين فى القضية، وبـين أن تكون خارجها. وهى لم تكن رقيقة فـى إبـداء رأيهـا فـى العلاقة بين تشيكوف وأولجا. وضاعف هذا من غضبها علـى أخيها الذى وضعهـا فـى هـذا الموقـف، الـذى لم تـرده بحـال، وأبداها فى صورة المتطفلة بعد أن حدث الزواج، وهى لم تكن كذلك .. إذ هى فى الأصل صاحبة حق. لقد صدمت مـارى صدمة هائلة، وهى تسمع خبر زواج أخيها .. بحيث زلزلتهـا. إن جهلها بالحدث الهام قبل وقوعه، أظهرها فـى صـورة آخـر

إنسان يحق له أن يعرف شيئاً عنه. ويمزقها هذا الأثر، كأنها لم تكن حتى اللحظة .. توأم تشيكوف الروحي. وهالها أن تعامل بهذه القسوة، من أعز إنسان عليها في الدنيا، وأيضاً من صديقة هي أولجا كانت تبادلها الإخلاص.

ويصور هنري ترويا مالاقت ماري من امتهان بينها وبين نفسها، قائلاً: "والحق، أنها تشعر أنهما خاناها مرتين: خانها أخوها. وخانتها أفضل صديقة لها. إن هذين المخلوقين اللذين اصطفياها بمحبة كل من ناحيته، قد لفلفا زواجهما دون أن يستشيراها. إن امرأة حلت حالياً مكانها قرب أنطون. وأنطون حل قرب هذه المرأة عوضاً عنها. لقد خسرت في الميدانيين. ولم تعد تعرف، وقد استبعدت من دنياهما الحميمة، لمن ولأي شيء تكرس نفسها".

"حين علمت ماري في هذه الأثناء بزواج أخيها، استسلمت إلى حالة من الاضطراب المأساوي، يختلط فيه غضبها من أنها لم تخبر بالحدث، وأسفها لأنها أرسلت لأنطون رسالة قاسية جداً. فكتبت إليه في ٢٨ آيار: "أفكر، أفكر دون توقف. أفكاري تتزاحم في رأسي. كم كان شعوري رهيباً عندما عرفت أنك فجأة تزوجت! صحيح، أنني كنت أدرك أن أولغا ستنجح، عاجلاً أم آجلاً، في الاقتران منك، لكن واقع أن تكونا قد تزوجتما بهذه السرعة، قد قلب حياتي، وأجبرني على أن أفكر فيك، وفي علاقاتي المقبلة مع أولغا. لقد تغيرت هذه الأخيرة فجأة وهذا يخيفني. إشعر بي أكثر وحدة مني في أي وقت مضى. لا تظن بي

خبثاً، أو أى شيء من قبيل ذلك، لا، أحبك أكثر من أى وقت مضى، وبكل روحى أريد لك السعادة، وكذلك سعادة أولغا، مع أننى لا أدرى ما عساها أن تقول عنا، كما أننى لا أستطيع فى هذه اللحظة أن أقول ما أشعر به نحوها. إننى غاضبة قليلاً منها. لأنها لم تحدثنى قط عن زواج، مع أنه لم يتم ارتجالاً. يجب أن تعرف يا أنطون أننى جد تعيسة، وأن حالتى النفسية فى أدنى حالاتها، وأننى لا أنفع فى شيء، وأن كل شيء يقززنى. أرغب فى أن أراك فحسب، أن أراك أنت ولا أحد غيرك. "ولا يتلكأ تشيكوف فى الرد، بل يرسل فى الحال لأخته كلمات واضحة اللوعة صادقة، تنبض بحبه لأخته. معتذراً عما سببه لها بلا قصد من آلام. ولاشك أن عمق الحب وشدته بين الأخوين، مارى وأنطون تشيكوف، مسئول أيضاً عن عنف رد الفعل الذى أصاب الأخت. فهو من نوع غريب غير عادى، لأن كلا من طرفيه أعطى من نفسه للآخر .. أكثر مما يجب، حتى لينسى ذاته فى سبيل الثانى. وفجأة تجد الفتاة عواطفها، وقيم الحب التى تحمل لشقيقها، وخدمتها الخالصة له، قد تجوهلت تماماً، بلا اعتبار لكل السنوات الطويلة التى مرت .. وديست بالأقدام، بلا احترام للتى كانت إلى ماقبل الزواج، هى كل شيء. وهذا شيء آخر، غير الصراع التقليدى بين الأخت والزوجة، الذى سيتعرض له تشيكوف وأولجا أيضاً، بمجرد أن تطأ العروس منزل الزوجية بعد العودة من شهر العسل.

بالرغم من الروح الفنية التى تحتوى أولجا كينبر، إلا أنها إنسان منظمة تحب الدقة وتكره الفوضى، ولعل أصلها الألمانى ساعد على ذلك. ولم تكن فى حاجة إلى أن تتزوج تشيكوف، لتعرف ماعليه حال بيته. فقد دخلته بالطبع مرارا منذ أن تعارفا، فى الشهور الطوال التى سبقت الزواج. وتدرك ماعليه من إضطراب، وعدم انتظام، وإنكار للمواعيد الثابتة فى تناول الطعام وغيره .. وهى أشياء يسأل عنها الأديب الكبير أولاً، الذى كان لايرتاح إلى مايبث النظام من قواعد، تناقض انطلاق الفنان فيه. ولذا لم يكن استعراض عضلات أو تحدياً، أو ماشابه ذلك .. هذا الذى طالعت به أهل زوجها .. الأم والأخت اللتان تعيشان مع تشيكوف وهى ترتب وتنظم وتهئ له الطعام. ولكنه كان كافياً لإشعال الحريق، الذى لايهدأ كل يوم بين الزوجة وأمه وأخته .. ليكون باعثاً على تفشى الضيق والغضب وتبادل الاتهامات. وشحن جو البيت بكل مايعكر السلام المنزلى .. الذى يحتاج الأديب العظيم، خاصة إذا كان مريضاً بعلة خطيرة. وتقع مهمة الإطفاء على عاتق الزوج، الذى يضطر إلى القيام بها .. مكروباً حزيناً ضائق الصدر. وهو يفتقد الهدوء النفسى، الذى نعم به قبل زواجه. ولولا الحب الذى يكنه له كل فريق، لاتهمه كل منهما أن يمالئ الجانب الآخر على حسابه. ومع ذلك فقد حدث .. لا تتمالك أولجا نفسها لعظم ماتتعرض له من الجبهة المضادة، التى تؤيد الحماة فيها ابنتها، أن تنفجر .. مهددة بترك المكان بصحبة رجلها إلى

حيث الاستقلال والبعد عن الأحقاد. ويعود تشيكوف من جديد يهدئ ويتوسل، في سبيل أن يعود للمنزل راحته .. بلا جدوى.

يكتب الأديب الكبير إلى زوجته التي سافرت إلى موسكو، لمعاودة نشاطها الفني، ولا تنسى أن تشكو له في خطاباتها قسوة ما لاقت من أهله .. "تكتبين إلى! إن مارى لن تألفك أبداً، الخ! يا للغو! إنك تبالغين في كل شيء، تتخيلين حماقات، وأشفق، قبل مرور زمن طويل، أن تتنازعي ومارى. دعيني أقل لك مايأتي: تحلي بالصبر، واحتفظي بالصمت خلال عام واحد فقط، وعندئذ يغدو كل شيء واضحاً في نظرك. ومهما قيل لك، ومهما تخيلت، فاصمتي واصمتي. إن أشياء الحياة الجميلة تتوقف، بالنسبة لجميع من يتزوجون حديثاً، رجالاً ونساءً، على هذه اللامقاومة في أيام الزواج الأولى. افعلي ماأقوله لك، ياحبيبتي، تبدى ذكية! فيما عداك، لن أحب أبداً إنساناً ما، أية إمرأة. كوني في صحة جيدة، وسعيدة".

أحد بواعث تشيكوف في الزواج من أولجا، التخلص من عامل البعد المكاني بينه وبينها .. والذى يفرق بينهما. فيضطر أن يتنفس عواطفه لها عبر الرسائل، ولا وسيلة أخرى غير الزواج للقضاء على هذا العائق. ولكن الزواج لايفعل! فمقر مسرح الفن الذى تعمل به الزوجة في موسكو، وهو في ضيعته أو منتجعه بعيداً. ولابد لأولجا من الالتحاق بالفرقة عند بداية الموسم، بعد انتهاء عطلتها. وتسافر .. وتعود

اللقـاءات البريديـة ثانيــة .. وسـكب الحـب علـى الـورق، والإفضاء الخاص بما يستحب كتمانه عن وسيط، حتى لو كان القلم. ولكنها هذه المرة تبدو أقسى وأكـثر عنفـاً. فاستقبال المتزوج للعـالم الجديـد الـذى خـبر طعمـه، والـذى لم يمـر بـه كأعزب، ومن حقه استدامته، والتطلع إلى الإسـتقرار العـائلى، وعماده الأول بقاء الزوجة بجانب زوجها. وحاجته كإنسـان مريـض إلى الرعايـة غـير العاديـة .. أشـياء صبغـت حركتـه بالمرارة، التى لايظهرها غالباً، ولكنهـا تطلـق زفرتهـا الموجعـة نادراً .. "إننا نرتكب ذنباً كبيراً لأننا لانعيش معاً". أو يقولهـا بأسلوب آخر .. "إذا لم نكن سوياً الآن، فليست هذه غلطتـى ولا غلطتـك، وإنمـا هـى غلطـة ذلـك الشيطان الـذى منحنـى ميكروب المرض، ومنحك الولع بالفن"! إن الحاجة إلى الزوجة الحبيبــة لا يعوضــه المجــد ولا الشــهرة ولا كـثرة الأصدقــاء والمعجبين، ولعـل تشـيكوف لـو لم يكـن مريضـاً بهـذا المرض الذى لا برء منه، رغم أنه استأنس الآمــه أو يكـاد، لاستسـاغ بحاسته الإنسـانية قبـل الفنيـة، بعـد امرأتـه عنـه فـى رحلاتهـا المسرحية. ولكن الأديب العظيم أراد أو لم يـرد، كـان عليـلاً اشتدت وطأة المرض عليه، وفى أمس الحاجة إلى أنس ورعايـة زوجته بجواره.

عدة قضايـا اتفقـا عليهـا كـل مـن تشـيكوف وأولجـا قبـل الزواج .. أغلبها مـن اقـتراح الممثلـة .. وأقلهـا مـن الأديـب. فلاشك أن إبقاء أولجا على اسمها هو هو بعـد الـزواج: أولجـا كينير، فـلا تحمـل إسـم زوجهـا كمـا تقضـى التقـاليد الغربيـة

وتصبح أولجا تشيكوف، كان من تفكيرها وبناء على رغبتها. ويرجع ذلك إلى عاملين، الأول، شخصيتها القوية التى تجعلها فى هذا النطاق تؤمن بالمساواة الكاملة بين الرجل والمرأة. والثانى، شهرتها التى نالتها فى الشهور الأخيرة، والتى رأت معها أن من الظلم لنفسها أن تدوس عليها إذا تغير إسمها! ويجد الأديب الكبير فى تمسك زوجته باسمها قبل الزواج، شيئاً طبيعياً ولا غرابة فيه، حتى لو كان ضد التقاليد السائدة! فهو كفنان يتفهم ذلك، ويرى أنه من حقها. وإذن فلا غبار عليها إن لم تحمل اسم تشيكوف! وكانت القضية الثانية أخطرها، فإذا كانت الأولى لاغضاضة فيها من وجهة نظر منطلقة عاشقة متحضرة، فإن الأخرى مهما جاءت موافقة تشيكوف، تستلب من الزواج روحه.. وهى تكرس تمسك أولجا باحتراف التمثيل بعد الزواج. ولو أن ذلك فى مدينة واحدة لهان الأمر، ولكنها تعرف أن موسكو حيث المسرح، تبعد مئات الأميال حيث يعيش أو يستشفى الزوج. وبهذا الشكل لن يتاح لهما اللقاء إلا قليلاً طوال العام!

يكتب إليها تشيكوف فى ١٤ كانون الأول سنة ١٩٠٢ .. "تكتبين لى دائماً ياحبيبتى، إن ضميرك يعذبك، لأنك لا تعيشين، فى يالطا معى وإنما فى موسكو. ماذا علينا أن نفعل يا يمامتى؟ فكرى بشكل مناسب: لو كنت تعيشين معى فى يالطا طيلة الشتاء، فإن حياتك ستختل، وأنا الذى سيشعر بالذنب. ولن يكون الأمر أفضل بأى حال. كنت أعرف جيداً أن من أقترن بها ممثلة، وبكلمة أخرى، عندما تزوجت،

كنت أعرف تماماً أنك ستقضين فصول الشتاء فى موسكو. ولا أعد نفسى مغبوناً أو مخدوعاً بتاتاً. على النقيض من هذا، يبدو لى أن كل شىء على مايرام، وكما يجب أن يكون. وهكذا، عليك أن تكفى، ياحبيبتى، عن تعذيبى باضطرابات ضميرك". ومع ذلك، لم تكن معاناة تشيكوف بالتى تغيب عن أنظار الأقربين، فالوضع أوضح من أن يخفى أو يتجاهل. كما لم تبعد أولجا نفسها عن بؤرة الفعل. فهى لم تستطع أن تغمض العين عن المفارقة فى لهفة العاشقين على الزواج، ليفترقا سريعاً .. بسبب احترافها للتمثيل. وكانت تدرك بلاشك أنها المسئولة عن هذا الوضع غير الإنسانى خاصةً وهى التى ناورت وهددت طويلاً فى سبيل الزواج، الذى لم ترق فكرته منذ بداية العلاقة لتشيكوف. ولكن هاهى تعمل منذ الشهور الأولى على إفساده، كأنها تعطى مبرراً للآخرين لمهاجمتها.

كان خصومها سواء فى أسرة تشيكوف أو خارجها، يندون بهذه المرأة، التى عملت طوال ثلاث سنوات بجهد ودأب على الإيقاع بالأديب الكبير، فى أحبولة الزواج الذى يكره. ولاتكاد توفق وتبلغ مأربها، حتى تبعد عنه بما يشبه الانفصال. ويدفعها هذا وذاك إلى مناقشة تشيكوف فى الموضوع. يكتب هنرى ترويا: "ومن رسالة إلى رسالة، كان السؤال نفسه يتكرر: "متى نلتقى من جديد؟ "كانا يفكران معاً فى الأمر بقوة إلى حد أن أولغا لم تلبث أن أخذت بعد قليل بتبكيت نفسها. فطيلة بقائها خليلة تشيخوف، لم تكن

تشعر أنها ملزمة أدبياً أن تسهر عليه ليل نهـار، وحين غـدت زوجته الشرعية، فإن عليها، كما يبدو لها، أن تكرس نفسها تماماً لسعادة هذا الكائن غير العادى. ولاشك فى أن بعض الأحاديث من حولها، ومن مارى خاصة، كانت تدفع بها ألى الاعتقاد بأنها مذنبة بإصرارها على متابعة حرفتها. إلا أن رغبتها فى التمثيل، فى الظهور، وفى بعث الإعجاب بها، كانت قوية، حتى أنها لم تكن تستطيع التخلى عنها، لتدفن نفسها فى يالطا. "أعليها أن تضحى بزوجها للمسرح أم بالمسرح لزوجها؟".

كتبت إليه، وقد طفح بها الكيل، لتفضى له بعذابها: "أشتهى أن أكون معك. إننى أحقد على نفسى لأننى لم أترك المسرح. الواقع أننى لا أدرى ما يحدث لى وهذا يغيظنى. لا أرى بوضوح فى ذاتى. ويمرضنى أن أفكر أنك وحيد، هناك، وأنك تعيش، تتضجر، فى حين أننى هنا، مشغولة بعمل ثان، عوضاً عن أن أنصرف كلياً إلى حبى. مالذى يمنعنى؟". تبحث أولجا عن الحل، وتدعى أنها لا تهتدى إليه .. بينما هو فى متناول يدها وفى مقدورة طفل اكتشافه. ومع ذلك فالطريق برؤيتها مسدود. فمحصلة قيام الصراع بين الحب والمسرح فى نفس أولجا، كانت فى كل مرة لصالح الثانى! وكانت هى تعرف النتيجة مقدماً، لأنها أدرى الناس بمجرى تيارها الداخلى. ومع ذلك فهى تخادع نفسها، وتزعم أنها حائرة مبلبلة الخاطر. ولاريب أن نهمها للحياة، وعشقها للمسرح، وحبها للشهرة، وأن تكون محط الأنظار .. لم تبق

لها حيزاً كبيراً لتحب زوجها كما يجب، وليكون لـه الأفضليـة فى أية مقارنة تجرى، ولعل فى هـذا مكمـن المأساة فـى زواج تشيكوف.

تناقش أولجا القضبة على هذا النحو -كما جاء فـى "أ.ب. تشيكوف"- وربما بدا أن المشكلة سهلة الحل .. فمـا علـى إلا أن أهجر المسرح وأهب حياتى لأنطون بافلوفيتش. وأخـذت الفكرة تراودنى دائماً غير أنى قاومتها، فقد كنت أعلم كيـف سيوثر فيه هجرى للمسرح، وكم سيؤلمه، فلم يكن يرضى قط لهجرى للمسرح من تلقاء نفسى، لأنه هو نفسـه كـان غارقـاً فيه حتى أذنيه، فالمسرح هو صلته الرئيسية بالحياة التـى أحبهـا بكلِ ذلك الاعتزاز. كان إنساناً فـى غايـة الحساسـية، يـدرك تماماً ماذا يعنى هجرى للمسرح بالنسـبة لنـا، وهـو يعلـم كـم كان طريقى شـاقاً إلى هـذا الهـدف العزيـز .. ". وهـو تـبرير تحاول به أولجا دائماً أن تخفف من سـوء مـا اتخـذت فـى حـق زوجهـا. صحيـح أن تشيكوف كـان يؤمـن أن فـى سـبيل الموهبة، يجب التضحية "بالراحة والنساء وغير ذلك من ملذات الحياة". ولكن ذلك فى الأحوال العادية، وليس على حسـاب الحياة الزوجية ورعاية رجل مريض.

ولأن القضية ليسـت مجردة فـى نطـاق الفكـر أو العقـل أو المبدأ، وإنما هى تستمد أبعادها الأساسـية بالدرجـة الأولى مـن الانغماس فى الحياة، ولأن التساهل الذى أبداه تشـيكوف إزاء عمل زوجته، كـان كبـيراً .. أكـثر مـن الـلازم، يشـجع علـى التجاوز، فقد استغلته أولجا. فإذا هـى تنطلـق سـعيدة نشـوانة

في استمتاعها بالحياة، تندمج فـى دنيـا الليـل والسـهر والمـرح والشباب، حتي لتنسى نفسها، وتنسى أنها متزوجـة، وتنسـى أن رجلها هو الأديـب العظيـم أنطـون تشيكوف. ولا تعـود فتذكر من هذا كله، إلا فى اليوم التالى مع بقايا نشوة الأمـس .. وقبـل التفكـير فـى ساعات المرح القادمـة. فتكتـب إلى تشيكوف خطاباً سريعاً، تعلنـه حبهـا وتستفسـر عـن صحتـه. تفعل ذلك بشكل روتينـى، كأنـه تأديـة واجـب! ولعـل هـذه المرحلة في حياة تشيكوف، تعد أقسى الأيـام التـى مـرت بـه. وكأن ماتفعل أولجا هو ثأر الدنيا مما فعل بلايكـا مـن قبـل .. فهو الآن الضحية لا الجانى. يصـور صـاحب "تشيخوف" - ترجمة خليل الخورى- هذه الأزمة التى مـرت بحيـاة الزوجـين، فيقول: "كانت خشيته الوحيدة، حسـب قولـه أن تتعـب مـن الإفـراط(!) وكتـب إليهـا فـى (٧ كـانون الشـانى) يقـول: يازوجتى الماجنة، الزمى المنزل ولو لأسبوع، ونامي مبكرة، إذا كنت تنامين كل يوم بين الثالثة والسادسـة صباحـاً، ستهرمين بسرعة، وتصبحين عجفاء مشاكسة". إلا أنها كانت ترفـض الإصغاء لصوت العقل، بـل إنهـا لم تكـن تحاول التسـتر علـى طيشها أمام هذا الزوج، الذى كان قلقه يثـير غرورهـا. وقـد كتبت له، فى ١١ كانون الثاني، معلنة بمكر فتاة محافظة: "بعد العـرض ذهبنـا نتعشى فـى "الامتـاج" وضحكنـا كثـيراً. وقـد طـاردت بغـزلى كونسـتانتان سـرغيفيتش (ستانسلافسـكى المخرج) أأعجبـك هـذا؟ .. وبعدئـذ، يـا للفظاعـة! ذهبنـا إلى الكباريه".

"كانت مارى، التى تقطن مع المرأة الشابة، تدين سلوكها بقسوة. فبعد أن أخلصت لأخيها، دفعت إخلاصها حتى غدت نوعاً ماسكرتيرة خاصة لأولغا. وهكذا فإنها لم تخرج كلياً من حياة الزوجين. لكنها وهى المتشددة بطبيعتها، لم تكن تستطيع أن تقر أنطون، الذى ترك الزمام لزوجته، ولا لأولغا التى كانت تستغل هذا التساهل إلى أقصى حد. وقد كتبت إلى أخيها فى (٣ شباط ١٩٠٢) تقول: "أتضجر حالياً فى موسكو، خاصة وأنا لا أشعر أننى على مايرام، وأننى أرانى موجودة طول الوقت وحيدة فى المنزل، وأنا أفكر فيك، لأننى لا أكاد أرى أولغا مطلقاً. كدنا أمس أن نتشاجر. حاولت منعها من الذهاب إلى حفلة موزوروف الراقصة، إلا أنها ذهبت مع ذلك، وعادت عند الفجر. وأكيد أنها كانت اليوم مرهقة حين ذهبت للتمرين، وهذا المساء، ستمثل."

ومع ما أبدت أولجا من طيش وهى بعيدة عن تشيكوف، فلا ينبغى أن ينسى المرء لها، أنها كانت عاشقة لزوجها. ولعل بعض هذا الطيش نجم من فرط حبها لتشيكوف، وهى تعرف المصير المحزن الذى ينتظره وينتهى إليه عاجلاً أو آجلاً .. خاصة أن تفاقم المرض، يترك بصماته السود على ضحيته. ولذلك فهى لا تكاد تنتهى من سهرتها وصحبها وتعود إلى بيتها، وتجلس إلى نفسها، حتى تبكى فى وحدتها. وكان هناك أمل يداعبها وترنو إلى تحقيقه فى لهفة، شأن كل زوجة .. وهو أن تنجب من حبيبها ابناً يحمل ملامحه الحبيبة، ومن لحمه ودمه، ويبقى أثراً حياً بعده .. وتصبح أماً. ونفس الأمل

داعب تشيكوف أيضاً، وهو يتطلع إلى أن يكون أباً. ولعل مرضه والأيام المتبقية القصيرة من حياته، وهاجس أن يمتد خلفه قبل أن يقصمه الموت .. كانت هى وراء انفعاله بهذا الأمل .. الذى لم يكن زمان يعبأ به أو يفكر فيه. وما أكثر ما تحدث الزوجان عن حلمهما المشترك، فى أن يكون لهما من صلبهما فنان آخر، أو مؤلف آخر، يحمل الراية بعدهما.

وبالرغم من انغماس أولجا فى الحلم، ولهفتها على هذا الأمل، إلا أنها عندما بدت عليها أعراض الحمل، ظنت أنها مريضة بالمعدة .. وفوجئت أنها حامل. وطغت سعادتها حتى كادت تخرج عن جلدها. ولكن الفرحة الطاغية ما لبثت أن اغتالتها الخيبة، وهى تتعرض لحادث إجهاض، فتسقط حملها. وتكون الفجيعة التى لا تجد من يهدهدها إلا الزوج الحنون نفسه، الذى كانت تخشى أن يكون متألما وغاضباً منها، لأنها تسببت فى ضياع أمله. ولكنها كانت واهمة. وأخذ المريض يمرضها ويسهر على راحتها، ولما وجد أن أمه وأخته يتهمانها بمسئولية الإجهاض وقتل حفيدهما .. أخذ أولجا وسافر إلى موسكو. وتتعرض الزوجه لنكسة، وتدخل دائرة الخطر. ويخشى عليها بالفعل خاصة إذ تحتاج إلى عملية جراحية .. ولكن الخطر لا يلبث أن ينحسر، وتنجو.

ومع اختلاف نوعية الحب، الذى حملته كل من الأم والأخت من ناحية، والزوجة من ناحية لتشيكوف، فلاشك أن الأول فاق الثانى فى جوهره ومظهره. فقد نال الإنسان الحبيب عناية فائقة من الأم والأخت .. كطفل مدلل تستجاب

رغائبه، ويجلب لهما التفانى فى خدمته منتهى السعادة. بينما ضمرت هذه الخدمة إلى حدها الأدنى أيام الزواج فى ظل أولجا. التى التهم المسرح والإغراق فى السهر، معظم الوقت المخصص للزوج .. الحبيب. والذى من أجله كابدت الممثلة الحسناء الصعب حتى تمكنت من الزواج منه! فلا غرابة أن يستشعر تشيكوف هذا النقص دائماً فى أعماقه، والذى يبرز عفوياً فى أدق المواقف. كما حدث عندما أقام مسرح الفن الذى تعمل فيه زوجته، ويقدم أعماله المسرحية، إحتفالا كبيرا على شرفه بمناسبة ربع قرن على اشتغال تشيكوف بالأدب، والذى يقترب من عيد ميلاده الرابع والأربعين (١٧ يناير ١٩٠٤). وأهديت إليه عدة هدايا لم تعجبه جميعاً، إذ وجدها سوقيه مبتذلة. ويسأله الممثل والمخرج ستانسلافسكى المسئول عن الحفل: "إذن فماذا كان يجب أن يهدى اليك؟ فأجابه تشيكوف جداً: "حقنة شرجية، فأنا طبيب كما تعلم، أو زوج من الجوارب .. لأن زوجتى لا تعنى بى، لأنها ممثلة، ولهذا السبب ترانى أنتعل الجوارب الممزقة. وقد قلت لها ذات مرة: انظرى يابطتى إلى إصبعى الكبير فى قدمى كيف يطل من الجورب. فقالت: ضعه فى قدمك اليسرى"!

فى الكثير من قصصه وفى كل مسرحياته بلا استثناء، يمجد تشيكوف قيمة العمل، كأنها بعض مبادئ دينه الخاص. ولذلك لا غرابة أن يلتمس المريض العبقرى العزاء لمرضه الميئوس منه، ولآلامه ولوحدته بعيداً عن زوجته .. وهى جميعاً أشياء تدفع إلى الجمود واللامبالاة والتمزق، التى لا تسمح

لصاحبها بدقيقة يكد فيها لأى عمل .. تدفعه هو إلى العمل. وهكذا حفلت مسرحياته الأخيرة بالذات التى تزامنت مع تزايد خطر مرضه وتفاقم حالته الصحية وعظم آلامه، بتمجيد العمل. يقول فى "بستان الكرز"، وهى آخر أعماله التى أتمها بين أهوال المرض الذى أشتد، والسعال الذى تكاثر والضعف الذى يجعل من إمساك القلم لكتابة كلمة واحدة، عذاباً لا يطاق .. على لسان تروفيموت -من ترجمة محمد طاهر الجبلاوى- وهو يتحدث إلى أغنياء أرستقراطيين فى سبيلهم إلى الإفلاس: "يجب علينا أن نزهى بأنفسنا بحال من الأحوال. وليكن همنا الوحيد العمل". ويقول لوباخن فى نفس المسرحية: "نحن نجلس هنا نتلاحى والحياة تسير قدما غير مكترثة بى وبك، وأننى إذا أحسست أنى اشتغل الساعات دون أن يتطرق إلى التعب، ارتاح بالى، وعرفت لماذا وجدت. ولكن الله وحده هو الذى يعرف لماذا خلقت الغالبية العظمى من أهل روسيا .. لا بأس"!

وإذا كان الحزن الرقيق بشاعريته العميقة، يظلل أعمال تشيكوف القصصية والمسرحية على السواء، فهو يتشكل فى مسرحيته الأخيرة "بستان الكرز" فى عملية وداع لعالم بأسره، والرحيل عن أحب الأماكن لأصحابه وهو البستان. وهى نفس أحاسيس تشيكوف ذاته إزاء الحياة التى يودع. ولذلك كان يتطلع إلى إنهاء المسرحية بصبر نافذ، رغم قسوة ما يلقى من الآم مرضه .. حتى إنه لم يستطع فى بعض الأحيان، أن يكتب طوال اليوم، إلا سطرين اثنين ..

ويظل الحب بين الزوجين قوياً، يتـأكد بمفهـوم كـل منهمـا للحب. فتشيكوف المريض المتعاطف مع حيوية امرأته وإقبالها على الحياة .. يبرر نزقها. وأولجـا التـى لا تـرى تعارضـاً بـين غرامها لرجلها وبين عدم تفرغها لـه تماماً، وحبهـا للسـهر .. تمضى قدما بمباركة تشيكوف فى حياتها الحافلة. حتـى وهـو معها فى موسكو، إذا جاء من منتجعه فى يالطا، لأيـام تقصـر أو تطـول. وتسـتمر هـذه العلاقـة إلى أن يشـتد مـرض السـل بـالأديب الكبـير، ويقضـى بقيـة حياتـه يتـألم، إلى أن يسـافر بصحبه زوجه إلى إحدى مدن الإستشفاء الألمانية، وهـى بـادن فلو، كآخر محاولة للعـلاج. وهنـاك وبـين يـدى امرأتـه التـى أحبها وأحبته .. يموت فى ٢ يوليو ١٩٠٤.

لقد عاشت أم تشيكوف بعده خمسة عشر عامـاً، ولحقتهـا بعـد أعـوام طويلـة أختـه مـارى التـى عمـرت حتـى الرابعـة والتسعين من عمرها، وتوفيت بعـد أخيهـا بـأكثر مـن نصـف قـرن، أى فـى عـام ١٩٥٧. أمـا زوجتـه أولجـا كينبر، فقـد عاشت أيضاً طويلاً، وماتت بعد وفاة زوجها بخمس وخمسـين سـنة كاملـة، وهـى فـى التاسـعة والثمـانين مـن عمرهـا عـام ١٩٥٩.

تولستوى وحواء

(١)

بالرغم من أن مارى فولكنسكى والدة ليوتولستوى، أحد أشهر أدباء العالم المعدودين على مر العصور .. ماتت وهو لم يبلغ بعد الثانية من عمره .. أى لا يفقه من العالم شيئاً. إلا أن الأثر العظيم الذى تركته فيه، يضاهى عشرات السنين من عمر حياتها .. لو امتد بها العمر! ويعود هذا الأثر إلى عوامل عدة، جذبت الصغير، وشجعته على أن يترسم ماأمكن خطى أمه. مع أن عينه لا تذكر عنها، مايمكن أن يشجعه على أن يفعل!

فما يقال عنها بإستمرار من أخوته الكبار ومن أهل القصر .. يضفى على ملامحها المزيد من السمو والرقه والأدب. حتى لتبدو هذه الأم الغائبة، حاضرة على الدوام .. بما توحى من كريم الخصال.

لقد جمعت الأم خصال الإنسان المثقف العارف باللغات، والسيدة المهذبة التى انحدرت من أصل عريق وعائلة نبيلة ثرية.

فكانت فى خارج البيت، أحد نجوم المجتمع. وفى داخله الأم المثالية التى ترعى أولادها بحدب واهتمام. وتعامل خدمها بأدب جم، فى وسط مجتمع يعترف بنظام الرقيق. ويمتلك صاحب الضيعة .. الأرض وما ومن عليها من حيوان وإنسان!

ومن هنا أحاط الثناء إسم والدة ليوتولستوى، من كل جانب .. ومن الغريب قبل القريب. يقول عنها ابنها الثالث أشهر أدباء الروس على مر القرون: "لست أذكر أمى، لقد كنت ابن سنة ونصف حين ماتت، وبسبب مصادفة عجيبة لم تحفظ لها صورة، وعلى ذلك فلا أستطيع أن أرسم فى خيالى صورتها المادية! وإنى لفرح بهذا من وجهة نظر، هى أن مايقوم بذهنى لها إذ أتصورها إنما هى صورتها الروحية، وكل ماأعلمه عنها من هذه الناحية جميل، وأظن أن ذلك لم يكن مرده إلى أن من يتحدثون عنها لا يذكرون لى إلا الخير، وإنما كن مرده إلى أن نفسها كانت تنطوى على كثير من الخير حقاً".

وهكذا عاش ليوتولستوى طفولته، يعوض بعض حرمانه من أمه .. ذكراها الطيبة.

والقيم التى إستخلصها تولستوى من مواقف أمه أو كلماتها، التى انتهت إليه. كانت نبراساً له طوال حياته .. والدرس الأخلاقى الأول الذى وعاه. وبلغت أمه بهذه القيم من نفسه، مكاناً عظيماً تستوى فيه مع القديسات .. اللاتى ينير نضالهن الطريق، ويلتمس عندهن المرء العزاء. وكذلك

كان يفعل ليوتولستوى بالنسبة لأمه، خاصة فى ساعات الشدة. التى بدأ يعرفها بالذات منذ فترة المراهقة، عندما قام فى أعماقه الصراع بين فورة الجسد وبين المبادئ السامية التى يؤمن بها.

يقول الأديب العالمى فى اعترافاته: "إنها كانت تبدو فى خيالى مخلوقاً علوياً روحياً طهوراً، وبلغت من ذلك حداً جعلنى فى الحقبة الوسطى من عمرى إبان جهادى ضد المغريات والوساوس القاهرة أتجه إلى روحها مصلياً، مبتهلاً إليها فى صلواتى أن تأخذ بيدى. ولقد كان لى فى أكثر الأحيان فى هذه الصلوات كثير من العون".

عمتان كانتا فى بيت ليوتولستوى، وبالرغم من أن الأولى كانت حقيقية من دمه ولحمه، وهى ألين. والثانية لم تكن كذلك أبدا -وإن لم يعرف الصغير ذلك إلا مؤخراً، وهى العمة تتيانا- إلا أن الأخيرة كانت هى المفضلة والمحببة لدى تولستوى! والسبب طيبتها وعطفها، وحبها البالغ له ولإخوته. وحياة هذه السيدة مثال نادر للمرأة العاشقة، التى تضحى بكل شىء فى سبيل من تحب .. حتى لو كان بهنائها أو حبها نفسه.

فقد أحبت تتيانا بروجلسكى نيقولا تولستوى -والد كاتبنا- وأحبها، ولم تكن الفتاة بالغريبة عن أسرة الفتى، إذ تربت فى بيت تولستوى. كان يتيمة فعنى بها أبواه. وكان الشاب صاحب الاسم النبيل والعائلة العريقة، التى انحدرت

من الغنى إلى الفقر .. شديد الطموح إلى استعادة ثراء أسرته بشكل سريع. ولما كانت العين بصيرة واليد قصيرة، ولا أمل فى أن يصل إلى هدفه عن طريق الكفاح والجهد والعرق. فلم يكن أمامه إلا الطريق الأسهل الذى لا يكلف شيئاً. وهو الزواج من عروس غنية، تتيح له العيش المترف الذى يريد. ولما كان ضعيفاً بالنسبة إلى المال، فإنه حينما فاضل بينه وبين الحب .. وجد نفسه مضطراً فى الاختيار!

وكانت تتيانا تعرف ضعفه .. ولما كانت تحبه بصدق، ولشخصه وليس لنسبه وحسبه. فقد التمست له العذر! ولم تجد غرابة فى أن يفعل! فمن حق الشاب أن يطمئن لمستقبله! ومن الطريف أنها لم تتعاطف فحسب مع طمعه وأنانيته، بل وشجعته على الاقتران بالأخرى الغنية. فهى مطمئنة إلى حبه لها، وأنه ليست فى حياته امرأة أخرى غيرها! وإن عاطفته نحو مارى فلولكنسكى، هى العاطفة التى يفرضها زواج المصلحة! وهكذا تزوج وهو فى الثامنة والعشرين، مارى التى تكبره بأربعة أعوام. والتى قدمت له مهراً (بائنة) ضيعة كبيرة - بقصر عظيم، تبعها ثمانمائة عبد!

ولما كانت تتيانا على طرفى نقيض ممن تحب، فلم تعبأ أن يكون له غيرها زوجة! مادامت هى حبه القوى، ويحفظ لها عهد الهوى، ومكاناً أثيراً فى قلبه، وظل نيقولا وهو زوج وأب، يواظب على الالتقاء بها بعيداً عن القصر! واستمر

الوضع كذلك عدة سنوات، حتى ماتت مارى فى شبابها بعد أن ولدت ابنتها بأيام قليلة.

ويعرض نيقولا على تتيانا بعد وفاة امرأته، الزواج. ولكنها ترفض! ويكون الموقف مدعاة للدهشة .. فقد ظن الناس والحبيب ذاته، أن الفتاة العاشقة كانت تنتظر من زمان، مثل هذه الفرصة الذهبية، التى هبطت عليها من السماء! وأنها تكاد لا تسنح حتى تثب عليها وثباً. ولكن تتيانا التى كانت تعيش الحب للحب، وليس لأى هدف آخر .. خافت أن يقضى شكل الزواج بقيوده، على عاطفة الهوى الحر! خاصة وهى لا تحفل بالمواضعات الاجتماعية، التى يسير عليها الناس. فلم تكن لتعبأ بالمسميات، وإنما يهمها حقائق الأشياء. ولذا اكتفت أن تكون بالقرب من حبيبها، عضواً فى أسرته بلا زواج. ترعى له أولاده، وتشرف على بيته!

ولاريب أن النظام الإقطاعى السائد فى روسيا القيصرية فى ذلك الوقت، كان يسمح بقيمه المستهترة، المخالفة لتعاليم السماء، بالاعتراف الضمنى بهذا الوضع. وهكذا اتخذت تتيانا موقفها فى بيت تولستوى، وفى قلوب أبنائه وبالذات أصغر الصبيان ليو.

يقول فناننا العظيم: "كان للعمة تتيانا أعظم الأثر فى حياتى، فمنذ الطفولة الباكرة علمتنى كيف تكون بهجة النفس فى روحانية الحب، ولقد علمتنى هذه الفرحة لا بكلامها فحسب، بل إنها ملأتنى حباً بكيانها كله. لقد

رأيت وأحسست كيف كانت تمتع نفسها بنعمة الحب، ومن ذلك فهمت بهجة الحب، وهذا أول ماعلمتنيه. ثم إنها بعد ذلك علمتنى نعيم الحياة المطمئنة الهادئة".

ولقد ظلت العمة تتيانا تقوم بواجبها فى خدمة صاحبها وأولاده، طوال عمرها. وحتى بعد وفاة نيقولا، استمرت "العمة" فى رعاية أبنائه كأمهم تماماً.

(٢)

عرف ليوتولستوى منذ طفولته برقة المشاعر، ورهافة الحس والتعاطف مع الآخرين، خاصة فى الآمهم. وكانت دمعته سريعة تسعفه فى الحال! لا فى أحزانه فحسب، بل فى أفراحه أيضاً! فكان يكفى فى صغره أن يجد إنساناً باكياً، ليبكى هو الآخر .. حتى لو كان ممن يكرههم.

مع هذا التكوين، يكون من طبائع الأشياء، أن يعرف صاحبه الحب فى وقت مبكر من حياته. وقد حدث. فقبل أن يبلغ تولستوى الثامنة من عمره، عرف الهوى بمسراته ومنغصاته. وكانت الصغيرة التى أحبها، تقاربه فى السن .. وتعيش معه تحت سقف القصر، وربيت معه ومع أخوته وأخته. وكان الأطفال يعرفون أن أسلنيف هى ابنة أحد أصدقاء أبيهم. أما ماجهلوه وجهلته هى نفسها فى ذلك الحين، فهى أنها ابنة حرام لصديق الأب!

وفى البداية، بدا للصغير أن حبه للفتاة لا يفترق عن حبه لأبيه أو لأخوته أو للعمة تتيانا. ولكنه رويداً رويداً أدرك

الفارق بيهما .. بما يلتمس العمر الأخضر من ظواهـر الأشياء لا من أعماقها. وكان أوضح مايميز عشقه، هو الرغبة المحمومة فى "الاستحواذ" على شخص الفتاة، وكل مايصدر عنها من أفعال وأقوال! وكأن يكفى حبه لها، ليملك منها كل شىء .. أو كما يقول الكبار: الروح والجسد! ولما كان البون شاسعاً بين الرغبات وتحقيقها، فقد اصطدم العاشق الصغير بعالم الواقع ودنيا الناس. وأدرك أنه ليس من حقه، كما أنه لا يستطيع، أن يقسر أسلنيف على تتفرغ له طوال النهار والليل. مما جعله يعرف لأول مرة فى حياته، ماهى الغيرة .. التى عذبته كثيراً. خاصة وهو يرى الفتاة تحادث طفلاً غيره، وبالذات إذا تضاحكت معه!

وفى إحدى المرات، لا يتمالك تولستوى نفسه، وهو يراها تداعب غيره. فيدفعها بغضب وكانت فى الشرفة، فإذا بها تسقط من على مرتفع غير قليل، وتصاب بالعرج .. الذى استمر بضع سنين! ومن الطريف أن تولستوى بعد ذلك بخمس وعشرين سنة تقريباً، يتزوج من ابنة أسلنيف ذاتها وليس من أسلنيف!!

والقضية الأولى التى شغلت تولستوى فى صباه .. كانت قبحه وعدم وسامته! فأنفه العريض وشفته الغليظة، وعينه الصغيرة، وأذنه الكبيرة، أبعدت المسافة بينه وبين التقاطيع الجميلة، ومايطمع هو من حسن. وكم حاول أن يصلح ماأفسد الدهر من ملامح وجهه، فلا يبلغ من ذلك لا كثيرا ولا قليلاً! يقول محمود الخفيف فى كتابه القيم: "تولستوى":

"وأكثر ماكان من شذوذه ماكان يتصل باهتمامه بهيئته، ومن ذلك أنه حلق شعره ذات مرة بالموسى لعل فى ذلك إصلاحاً لشكله، ثم عاد فأطلق شعره حتى استطال، وعمد إلى المشط فجعل به ذلك الشعر فى موضع خاص لعل فى ذلك مايكسبه وجاهة، ويظهره فى هيئة المهموم المفكر على نحو مايظهر بيرون! وعمد مرة أخرى إلى حاجبيه فانتزع شعرهما بملقط كى يشتد بعد ذلك نماؤهما، فيكسب ملامحه مظهراً عاطفياً شعرياً ولكنه لم يرجع من وراء ذلك كله بطائل، الأمر الذى نغص عنده العيش"!

ومما كان يذكره بعدم وسامته ليل نهار، أن مقارنة القبح بالجمال، لم تكن تحاصره فى المدرسة والشارع وبيوت الأصدقاء فحسب، بل كان تفرض نفسها أيضاً داخل المنزل. فإخوته كانوا على شىء كبير من جمال التقاطيع، خاصة شقيقه سيرجى. ولما فشلت محاولات تولستوى فى إضفاء مسحة من الوسامة على هيئته، لم يبق له إلا انتظار معجزة من السماء تقع .. كى تنقذه فى محنته. ولكن انتظاره طال سدى!

ولاشك أن استمرار إحساس الشاب تولستوى بقبحه، دفعه بجانب تأملاته الفلسفية التى بدأت مبكراً .. فى الحياة والموت. وانتهت به مرة إلى عبثيةالعيش، ومرة إلى جدواه. إلى الارتماء فى أحضان الأنثى والإسراف فى ذلك .. فتكثر مغامراته النسائية، والانتقال السريع من امرأة إلى أخرى.

كأن شهوة الجسد هى وحدها، التى أصبحت متحكمة فى مصيره.

وتتميز هذه الفترة من حياته، بالقلق البالغ .. الذى يؤرجحه فكرياً وحياتياً، بين أيام وأخرى، من أقصى اليمين إلى أقصى الشمال. ففى ساعات الصفاء والذهن متزن، تمتد الحياة السوية النظيفة أمامه فى الحاضر والمستقبل. يصور فناننا العظيم هذا الحال بعد ذلك بقوله: "فى ذلك الوقت الذى أعده نهاية اليفاعة وبدء الشباب، كانت تقوم أحلامى على مشاعر أربعة. أولها: حبى "لها" تلك الفتاة الخيالية التى كنت أحلم بها دائماً على وتيرة واحدة، والتى كنت أتوقع أن ألقاها فى أية لحظة وفى أى مكان. وثانيها: محبتى فى أن أغدو محبوباً فقد رغبت فى أن يعرفنى كافة الناس وأن يحبونى، ورغبت فى أن أصرح باسمى فأجد من الناس جميعاً مايدل على اهتمامهم بما أصرح به. وأراهم يحيطون بى، فيسمعونى شكرهم إياى على أمر ما، وثالثها: أملى فى حظ عظيم غير عادى، وقد بلغ من تسلط هذا الأمل على أن أشرف على الجنون، ورابع مشاعرى: وهو أهمها كان إحساس باشمئزازى من نفسى واستشعارى الندم.".

أما فى ساعات الاشتعال والأفكار النارية، فالإندفاع إلى النقيض من الروح والخير والإصلاح .. هو البديل. وهنا يتحول تولستوى إلى شخص آخر تماماً، لا صلة له بالأول إلا فى شكله الخارجى! ويصبح الفعل والفكر والموقف، أشياء

تتفرق فى الأنانية والفساد والجنس والإبتذال .. وكل مايعادى الأخلاق والقيم والدين.

وتمتد به هذا الحال سنوات .. يكون موضع الفنان من المرأة غالباً .. هو المنتهك لشرفها، المتساقط على جسدها، المتعامل مع أحط ألوانها. لا يعرف الحب الطاهر، ولا يفرق بين الجنس والدنس. السيادة فى حياته للشهوة، وتكون مقاومته مجرد كلام. وقد ساعد على ذلك، ماورث عن أبيه من أموال. مكننته من أن يفيض فى الإنفاق على نفسه، إلى درجة السفه. ويستمر الشاب فى مجونه ومباذله، حتى يسوء به الحال جسداً وروحاً ونفساً. ولا يبقى بينه وبين الانحدار النهائى إلا خطوة .. فيستيقظ ويستجمع قواه المنهارة، ويأخذ فى الابتعاد قليلاً قليلاً عن المستنقع الأخير .. وتكون بداية النجاة.

(٣)

صنفان من الناس إزاء التمرغ فى الفساد. الأول: يقبل عليه وهو فى تمام تماسكه وقوة إرادته .. يتنفسه وهو سعيد به سعادة مطلقة. يتمنى أن يكون فيه حياته ومماته، ولا يفكر فى أن ينقص حظه منه إلى الأبد! والثانى: يريد أن يكون استمتاعه به مؤقتاً .. فهو يعب منه كالمضطر، بعد أن أضمحلت قواه وتفككت مقاومته. ولا يغيب عنه مدى الهوان الذى يتعرض له بإقباله على الوحل. ويتمنى فى كل لحظة أن ينجو من الإثم الذى ينجذب إليه. وكان تولستوى

من الصنف الأخير. ولذلك فهو فى كل اتصال دنس بأنثى، يتطلع فى نفس الوقت إلى أن يتوب الله عليه.

ومثل هذا اللون من الخاطئين، يداعبه الأمل دائماً فى الخلاص. والالتقاء فى غير أماكن الفساد التى يخشاها، بحواء من نوع مختلف تماماً .. نقى طاهر عفيف. تمكنه من أن يرسو بقاربه المضطرب، إلى مرفأ صاحبته الآمن. ويتزوجها ويبنى بيتاً. ويكون من السهل على تولستوى الشاب، أن يعثر على مثل هذه الفتاة. ولا يحتاج هذه المرة إلى بحث ما، لأنها كانت جد قريبة. وهى زنايدا مولستنوف صديقة أخته مارى.

وكان تولستوى قد تعرف بها منذ وقت غير قصير، ووقعت من نفسه موقعاً حسناً. لكنه فى البداية لم يحمل إعجابه بالفتاة وتقديره لها، على محمل الحب. كما خشى من ناحية أخرى، أن تكون زنايدا بعيدة بعواطفها عنه. وعندما مر بمدينة فازان ثانية بعد سنوات قليلة، والتقى بالفتاة ثانية. اشتعل هواه فجأة، وأدرك حقيقة مشاعره القديمة إزاءها. ولكنه مع ذلك لم يتقدم خطوة واحدة! لقد عقد لسانه .. ويفاجأ وهو المتحدث اللبق نجم المجالس، والمغازل إلى درجة الوقاحة أحياناً .. مع النساء الساقطات والغجريات، أنه لا يستطيع أن يتحدث إليها فى الحب! وخجل أن يعترف لها بعاطفته!

فهل أربكه اختلاف المناخ وتغير نوعية الأنثى؟ أم إن طـول صحبته لبنات الليل، جعلته أسير عالمهن، وأقدر على السير فى دربهن؟ ماذا يقول تولستوى نفسه؟

"لم أفه بكلمة من كلمـات الحـب، ومـع ذلـك فقـد كنـت واثقاً أنها كانت تدرك مشاعرى، ولئن كانت بـادلتنى إياهـا، فذلك لأنها كانت تفهمنى. كانت صلاتى بزنايدا يومذاك لا تعدو تلك المرحلة البريئة، مرحلة انجذاب روحين كـل منهمـا نحو الآخر، أيداخلك الشك فى أنى أحبـك يازنـانيدا إن كـان الأمر كذلك فإنى أسألك الصفح. فإن الخطأ خطئـى إذ كـان علـىّ أن أؤكـد لـك ذلـك بكلمـة .. أتذكريـن حديقـة كبـير القساوسـة يازنـايدا وممرهـا الجـانبى؟ كـان علـى أثلـة لسـانى ماأفصح به عما فى نفسى، كمـا كـان علـى لسـانك، ولكـن كان على أن أكون أنا البادئ، أتدرين لماذا فكرت ثـم لم أقـل شيئاً؟ ذلك لأننى كنت من السـعادة، بحيـث لم يبـق مـاأرغب فيـه، وخشيت أن أفسـد لا هنـاءتى وحـدى بـل هناءتينـا .. وسيبقى هذا اللقاء أعز ذكرى إلى نفسى حتى نهاية حياتى".

وبالرغم من فشـل تولستوى فـى قصـة حبـه العـذرى مـع زنايدا، إلا أن ذلك لم يجعله يكفر بهذا اللـون مـن الحـب، ولا بما يقود إليه من زواج مرتقب. بل يتشـبث بمـا تحمـل الـبراءة والعفة والطهارة، من دنيا الأسوياء. خاصة وروحه تهفـو إلى النور والضياء، والتخلص من ضعـف النفـس الأمـارة بالسـوء. فهو فى هذه الأثناء يملـك مـن المقاومـة مايسـد عليـه جيشـان غريزة الجنس، فتكاد لا تحتدم فى عروقه الدماء الحارة .. حتى

يزداد تلهفه على المرأة "النظيفة" التى أصبحت كل أمله فى التخلص من أوساخه وضعفه. وقد قويت هذه الرغبة بعد أن خطا أولى خطواته فى دنيا الأدب، وبدأ اسمه يلمع، ويحصل على الشهرة الواسعة .. وهو لا يزال شاباً صغير السن.

وتكون تجربته الثانية فى الحب المرتجى الحقيقى، مع فاليريا. وهى فتاة يتيمة كانت له الولاية عليها. وحدث أن يراها بعد سنوات الطفولة، فإذا بها غادة حسناء .. تطرب لمرآها العين، ويهفو القلب. وسواء كانت اللهفة على العثور على حواء المطلوبة هى السبب. أو هو خلو الفؤاد، أو جمال الفتاة ذاته. فقد أحس تولستوى بخفقان قلبه وإنشغال باله. ولكنه لم يكن من عدم الذكاء بحيث يتهالك على صاحبته، زاعماً أنه الحب ولا شىء غيره.

ومن الطريف أن فناننا الشاب، الذى عرف بتسرعه الشديد فى مباذله .. كان الضد مع بنات العائلات! فهو هنا عظيم الحرص على أن يعرف لقدمه قبل الخطو موضعها. ويحاسب نفسه حساباً عسيراً، على ماينهض به ومايدع. لأن علاقته بالطرف الآخر، تلزمه بمسئوليات أدبية على الأقل، لا يستطيع الفكاك منها. كما أن هدفه مع هذا الصنف من النساء، ليس التسلية أو قضاء وقت "ممتع"، كما يفعل مع عكسهن .. بل بناء بيت وتكوين أسرة. فعنى بامتحان عواطفه، حتى لا يخدع نفسه قبل أن يخدع الفتاة.

ولقد بدا هذا التمهل للفتاة والقريبين من تولستوى وفاليريا، غير مفهوم! وربما لا يحتاج إلى تفكير! فإذا كانت كما هو واضح قد أعجبته، وظهر ذلك جلياً فى عينه ولسانه وهو يتحدث عنها. فلماذا لا يقدم ويتزوجها؟! ولكن الأمر لم يكن بنفس البساطة عند تولستوى. وبدلاً من أن يطيل مقامه، كما انتظر أصحابه .. اختصر الزيارة وعاد إلى ضيعته! معولاً على أن ينفرد بذاته، مناقشاً قلبه .. ليصل إلى بر الأمان، بالتيقن من حب الفتاة واختيارها زوجة. أو باكتشاف أنه لا يحمل لها إلا مجرد الإعجاب، الذى لا يدفع إلى زواج. ولكنه لم يكن له إلى هذا الانفراد من سبيل. فإن طيفها لازمه ملازمة الظل. كما أن مربيتها عملت من ناحية أخرى، على أن تحببه فيها، وكذلك صديقه الذى يعلم مدى تردده فى الاختيار!

ولما كان بيت فاليريا على مسافة قريبة من ضيعته التى ورثها عن أبيه، فقد كرر زياراته لها. ولكن هذه الزيارات لم تشف غليله، و لم تجعله يستقر على قرار. فهو عندما يقف منها على شىء جميل، سواء فى ملامحها أو سلوكها .. يرفعها إلى أعلى عليين. وتستولى على عواطفه جميعاً، ويكون التفكير فى الإقتران بها .. قاب قوسين أو أدنى من حسم التحقيق! وعندما يقع منها على مالا يعجبه فى قول أو فعل، يضيق بها ضيقاً شديداً. ولا يكتم غضبه .. بل يعلنه غير متحرز!

ولاشك أن عواطف تولستوى العنيفة، وعدم توسط رؤيته للأمور، بجانب أن فاليريا نفسها كانت فتاة عادية . جعلت

من الصعب أن يرسم الفنان الشاب لصاحبته صورة حقيقية. مما لم يمكنه من أن يبلور لها ملامح محددة، تفضى بمشاعره إلى نتيجة واحدة. ويذهب على الخفيف إلى "أن من يتعمق النظر فيما كان من صلة بين تولستوى وفاليريا ليجد أن الأمر من جانب تولستوى كان رغبة منه فى أن يثير فيها الحب، وقلقاً خفياً يساوره على مبلغ نجاحه فى ذلك أكثر منه حباً صحيحاً تستشعره نفسه. ولقد عرفناه منذ نشأته شديد الشعور بذاته، يجعل ذاته وإن لم يشعر أساس كل تفكير له ومبعث كل عمل".

وسواء أكان الأمر كذلك أو لم يكن، فقد شغل الفنان الشاب بالفتاة انشغالاً كبيراً، وضايقه كثيراً عدم وصوله إلى قرار، بسبب جهله بحقيقة عواطفه منها. الأمر الذى أفسد إقباله على الكتابة وعلى صحته معاً. ولا عجب فتولستوى كما يفسر سليم سعدة "أن السبب فى كل ماوصل إليه ناشئ عن حساسية مرهفة كانت تلازمه منذ طفولته، و لم تضعف الأيام ولا السن من شوكتها، بل زادت فى حدتها. أنه كان لابد له أن يكون رقيق الشعور، مرهف الإحساس، متيقظ الذهن إلى حد يؤثر فيه أدنى اعتراض لإدراكه العقلى"

كانت فاليريا جميلة، ويعرف تولستوى ذلك . لأنها تبعث فيه أمتع المشاعر على البعد. فمابالة لو ضمهما بيت واحد، وفراش واحد. ولكن القضية لم تكن مجرد جسد وامرأة حسناء . بل ماعليه التكوين الداخلى لصاحبتهما. لأن الفنان الأديب مع كل فتوته البدنية، لن يقتات الجنس صباح

مساء. بل هو فى أشد الحاجة من شريكة الحياة، إلى أن تكون على قدر غير قليل من الثقافة والرؤية العميقة للأشياء. وإلا كانت الغانيات اللاتى يبعن المتعة بالثمن، أكثر فائدة وإثارة! وقد حاول تولستوى عبثاً، أن يكتشف فى الفتاة قيمة أصيلة تتصل بالفكر .. بينما كان يقع أثناء ذلك، على المزيد من متع الأنثى!

وبدا مع مرور الأيام، أن تولستوى استراح وأسلم قياده .. إلى هذه المتع الأنثوية، التى يزدهى أى شاب بامتلاكها .. أو يكون موضع حب صاحبتها. ونسى أو تناسى ضحالتها وسطحيتها وضآلة ثقافتها. مما جعله يكتب سعيداً فى مذكراته، أنه يحبها. وزاد على ذلك، أنه أطلع الفتاة على اعترافه! وأيقن الكثيرون من طرفى الجانبين فى هذه المرحلة، بالزواج الوشيك الوقوع. خاصة أن تولستوى أكثر من الظهور فى المجتمعات مع فاليريا، وهو فى حالة من الهناء غامرة. كما حق للفتاة أن تزدهى بالانتصار، وأن تكون فى منتهى السعادة بعد أن طويت صفحات القلق والضيق والهزيمة! ويغيب عن هؤلاء جميعاً وأولهم تولستوى ذاته، أن ماكتمه فى أعماقه لا يمكن له أن يستقر فى مكانه وقتاً طويلاً. وهكذا بينما كل شىء على السطح فى سلام وطمأنينة ووثوق، إذ تنفجر الأعماق كالحمم .. فلا تبقى ولا تذر! وكان الحل المؤقت الذى ارتآه الأديب المعروف الشاب، هو الفرار وترك الضيعة والإقليم كله والسفر إلى موسكو!

وهكذا بينما ينتظر الجميع خبر إعلان الزواج، يفاجأون بنبأ رحيله .. الذى لم يعلم به أحد!

ومن المدهش أن تولستوى لم يجد غرابة فيما فعل، لأنه عده من طبائع الأشياء! وقد قاده إلى هذا المفهوم صراحته وصدقه مع نفسه. فظن أن كل مايصدر عنه بهذا الشكل، لا غضاضة فيه مادام يجهر بأحاسيسه لا يكتم منها شيئاً .. فماذا يراد منه أكثر من ذلك! ولم يدرك أن فعله ذاته، إذا كان يصدم الكثيرين .. فإن تفسيره له يكاد يصيبهم بالجنون! ولهذا دهش عندما أرسل خطاباً إلى فاليريا ولم ترد عليه! وكرر المحاولة ولكنها لم تستجب، إلا بعد عدة محاولات!

يفسر حسن محمود سلوك تولستوى بقوله: "عرف الحب أكثر من مرة، وأحيا آمالاً فى قلوب أكثر من فتاة، ولكنه كان دائماً ينكص فى اللحظة الأخيرة، ويفر فراراً غير شريف! "لم يكن ذلك عن زهد فى الزواج أو عن عقيدة فى الاحتفاظ بحريته، ولا عن خجل فى طبيعته. فالزهد فى الزواج لم يخطر له، لم يكن هو فى ذلك الوقت ممن يرون فى الزواج قيداً للحرية، والخجل ليس من صفات ذلك الرجل، الذى أمضى الكثير من الليالى الصاخبة بين الخمر وبنات الهوى، ولكنه على الأرجح نتيجة لنفس قلقة غير ثابتة، تبين مظاهرها فى الكثير من تصرفاته فى كل أدوار حياته. ومن مظاهر هذا القلق فى ذلك الحين اعتقاده الراسخ بأنه مصاب بالسل، وتأصل هذا

الاعتقاد فى نفسه منذ سنوات، ومما زاد فى اعتقاده إصابة أخيه نيقولا وإصابة غير واحد من أقاربه بهذا الداء"!

وبالرغم من أن فاليريا كانت تعرف ماعليه تكوين تولستوى من متناقضات، أو ماتعدها كذلك .. إلا أن فراره المفاجئ صدمها صدمة قاسية. خاصة بعد أن بدا كل شىء ممهداً للزواج المرتقب. وإذا بالأمانى التى كانت قريبة التحقيق، تنهار كقصور رمال .. وتترك لها الألم والفضيحة.

ومع هذا كله، غفرت له! فهى تتمناه زوجاً. ولا ريب أن شهرته كأديب، ولقب الكونت الذى يحمله وثراءه، وماشتهر عنه من فحولة، أشياء تثير كثيراً من النساء. وكذلك عملت على أن تتناسى غضبها منه، وتصافح اليد التى امتدت إليها .. محاولة أن تمد الجسور بينهما ثانية. مدركة أنها إن لم تفعل ذلك، لضاع تولستوى من يدها أو حياتها إلى الأبد. وفى سبيل استعادته، تقدم من التنازلات ماكانت تبخل به من قبل. خاصة عندما عرفت عزمه على مغادرة روسيا إلى أوربا، فى زيارة تقصر أو تطول.

وهنا تصل العلاقة إلى منحنى خطر، تطل فيه، وياللغرابة، النهاية من بعيد .. على عكس ماكانت تتصور الفتاة تماماً. فاستسلامها لآرائه ومواقفه، لم يقربها منه بل أبعدها عنه! لأنه أطاح بالغموض أو السحر، الذى كان يحيط بها ويرفعها فى نظره. كما أن تهالكها عليه، سلب منها "قوتها" التى كانت تتمنع بها عليه من قبل!

يحلل على الخفيف موقف تولستوى قائلاً: "بعد ذلك أخذت تخبو جذوته، وليس هذا بعجيب، فقد أرضى كبرياء نفسه بحملها على الكتابة إليه، وقد شفى نفسه أنها تحبه، وأنه جدير منها بالحب، وأنها تتنازل عن نزعاتها بعض الشىء لترضيه، وذلك فيما أعتقد شأن كل فتى وفتاة يلعبان لعبة الحب، ولا يرتبطان حقاً بوثاقه، فإنه متى تغلب الفتى بدأ فتوره، أما الفتاة فكثيراً مايكون تغلبها بدء حرصها على أن تمتلك، وهى ماتدل وتعبث وتتصنع الفتور والنفور والزهد إلا لتستوثق، وماذلك جميعاً إلا حبائل شركها، تمدها فى مهارة هى فى أصل طبيعتها"!

ومن الطريف أن مع إسدال تولستوى الستار على قصة الحب، تطلع إلى إحلال الصداقة محل الغرام! وكان هذا فوق احتمال الفتاة .. وقطعت الصلات نهائياً!!

(٤)

ظلت المرأة من الأشياء الأساسية في حياة تولستوى، التى لا يستطيع الاستغناء عنه وقتاً قصيراً أو طويلاً. ولما كان هناك صنف من حواء بالذات، ميسر الوجود فى كل بقاع الأرض. فلم يشكل الحصول على الأنثى أية صعوبة، خاصة والمال متوفر. ولم يكن فناننا فى شبابه يعبأ كثيراً أو قليلاً، باختيار صاحبة متعته. فهو يلتقطها من أى مكان يجدها فيه. لا يأنف وهو الأديب المثقف والمشهور، والنبيل الذى يحمل

لقب "كونت"، والضابط السابق صاحب البطولات فى الحرب .. أن تكون رفيقته فى المتعة خادمته أو فلاحته!

وهذه السهولة فى الحصول على المرأة، هى أهم العوامل لعدم جدية فناننا الكافية فى البحث عن الزوجة الملائمة. التى تطلع كثيراً إليها، لتملأ عليه فراغه العاطفى. ولكن مرور السنين أضطره إلى هذه الجدية اضطراراً.

كان تولستوى كلما تذكر أسلينوف الصغيرة، ترف على شفتيه ابتسامة سعيدة .. لا لأنها كانت حبه الأول فى طفولته، ولا لأنها عرفته ماهى الغيرة لأول مرة فى حياته .. فدفعها من الشرفة وسبب لها العرج أعواماً شفيت بعدها. ولكن لأنها تذكره بطفولته أسعد أيام عمره. وتمضى الأعوام، ويمضى كل من الطفل والطفلة فى طريق. ولكن التزاور بينهما لا ينقطع بشكل ما. وتكبر أسلينوف وتتزوج طبيباً ألمانياً يعمل فى بلاط القيصر، وتنجب له البنين والبنات. ويزورها تولستوى، ويلقى الترحيب من صديقته القديمة وأطفالها على السواء. خاصة من بناتها الثلاث، اللاتى يحكى لهن القصص. ولا يتاح له أن يزور الأسرة إلا بعد ذلك بسنوات. ويفاجأ أن الصغار قد كبروا، وأن الفتيات قد بلغن سن الزواج. بعد أن أصبحت كبراهن اليزابيث فى التاسعة عشرة، ووسطاهن صوفيا فى الثامنة عشرة، وصغراهن تاتيانا فى السادسة عشرة. وهن جميعاً من قارئاته شديدات

الإعجاب بكتاباته .. خاصة الكبرى التى كانت هوايتها الأولى والأخيرة، هى القراءة.

ولم تكن ثقافة اليزابيث وحدها، هى التى لفتت إليها تولستوى، بل ملاحتها واتزانها أيضاً. ولما كانت الصديقة القديمة أسلينوف ذات خلق، فقد ربت بناتها تربية قويمة تحت إشراف حازم. وشغلت كبرى الفتيات بالأديب المشهور، ووقعت فى هواه، مع أنه يكاد يبلغ من العمر ضعف عمرها. وعملت الفتاة على كتمان حبها، حتى لا يطلع عليه متطفل. ولكن الهوى يكره الكبت والأسر، ويقاوم القيود. ويعبر عن نفسه بمختلف اللغات الصامتة. فلا يلبث سرها أن يذاع، ويتجاوز دنياها الخاصة إلى الآخرين، وتعرف به أسرتها.

والإنسان المرهف خاصة إذا كان فناناً، ليس فى حاجة إلى من يدله إلى مصدر ذبذبات القلوب. وكان كل مافى الفتاة يغرى ويشجع، فاستجاب! وبينما هو يندفع كعادته فى عاطفته حتى لينتظر الأبوان الساعة القريبة التى يتقدم فيها طالباً يد كبرى البنات . إذ يحس تولستوى أنه يقبل على اليزابيث بلا حب! ففارق كبير بين أن يجد فى الفتاة مايغرى، وبين أن يعشقها! وسره أن يقف على الخطأ فى وقت مبكر نوعاً، قبل أن تقع الفأس فى الرأس، وتتعقد الأشياء. لقد ضل طريقه إلى الهدف الصحيح، بينما كان قريباً منه طوال الوقت .. متمثلاً فى شخص أختها الوسطى! فصوفيا بتكوينها أقرب إلى نفسه، وفيها الخاص الذى يستملحه ويداعب أشواقه .. ويحس معه أن القدر أعده بالذات له هو شخصاً. فكيف

غاب عنه هذا الحضور؟ وكلما تملي في صوفيا، يجد ذاته في حاله إنتشاء روحي وجسدي معاً .. وليس كما يشعر مع غيرها من النساء!

وبالرغم من أن تغير الأديب الفنان بدأ بطيئاً متمهلاً، إلا أن صوفيا أحست بدبيبه منذ الوهلة الأولى. وشكت فيما أصاب موقفه، قبل أن تحسه اليزابيث. وزادتها الأيام تأكيداً بينما ظلت أختها الكبرى لا تشعر بجديد. وكانت صوفيا في الآونة الأخيرة، وقبل أن يظهر تولستوى على مسرح الأحداث .. قد تعرفت بضابط شاب، أحبها وأعجبت به، وصرح لها برغبته في الزواج منها. ولكن غيبته التي طالت، بلا كلمة منه يبعثها إليها .. أشاعت وصوفيا غاضبة، الضباب في ملامحه. وجاء إعجاب أو حب تولستوى، ليقضى على البقية من ذكر الضابط!

ومع تحول مشاعر تولستوى مع الأخت الكبرى إلى الوسطى، فقد أراد أن يتأكد أنه بتنقله، لم يستجر من الرمضاء بالنار .. وغير إعجاب بإعجاب، أو وهم بوهم! ولذا فهو لم يسارع كالعهد به .. بالإعلان عن عواطفه الجديدة. بل ظل يتأمل في حقيقة مشاعره وقتاً طويلاً .. كانت الأطراف الأخرى في أثنائه على أحر من الجمر، يمزقها القلق، وتنوشها الأفكار السوداء. وكان أهمها أربعة، الأب والأم والأخت الكبرى والوسطى. اثنان منهما يكاد الغضب يخرجهما عن طورهما، هما الأب والابنة الكبرى! واثنان يتمنيان أن يتأكد

تولستوى من عاطفته، ويضعها حيث يجب أن توضع .. فلا يعود ينكرها .. وهما الأم والابنة الوسطى!

أما الأب فقد لعبت به الظنون وعصفت به الشكوك. ولم يهده تفكيره إلى الحقيقة، وهو يفسر عدم إقدام تولستوى على خطبة اليزابيث، وإهمالها فى الفترة الأخيرة .. مع زياراته الطويلة كأنه أصبح من أهل البيت، بأن الأديب الكبير ينسج خيوطه حول امرأة الطبيب نفسها .. وحبيبة أيام الطفولة!

وتكون اليزابيث أكثر الأربعة ضيقاً ونقمة، فهى صاحبة القضية .. والمعذبة الحقيقية التى تقاسى آلام النفس وعيون الآخرين. ومن يده فى النار ليس كمن يده فى الماء. وقد ضاعف من عذابها، شكان يغرزان سمومهما فى قلبها فى الأيام القريبة .. لا تعرف إلى أى مدى يصلان فى الواقع. الأول: عدم إقبال تولستوى عليها كما كان يفعل، والثانى: عنايته الزائدة بأختها صوفيا، تخرج بها عن الصداقة البريئة!

وتضيق الأم ذرعاً بموقف تولستوى، فهى تعرف تردده وتناقضه وحيرته. وتخاف أن يهجر فتاتها ولا يتزوجها .. كما فعل من قبل مع غيرها. وتتجسد أمامها مغامراته الطائشة مع بنات الهوى، ومايشاع من أنه ليس "وش" زواج. وتخاف على سمعة ابنتها، من استمرار هذا الوضع. أما صوفيا فمشاعرها تتأرجح كبندول الساعة، بين السعادة الغامرة أن تكون محبوبة تولستوى الذى تهواه. وأن يجد فيها وهو ذواقة

نساء مالا يجد فى غيرها! وبين أن لا يكون جاداً فى ذلك كله! أو أن تعود هذه العلاقة بالحزن على أختها الكبرى.

وبالرغم من أن الضيق الشديد حط على الشخصيات الخمس، إلا أن أصحابها لم يتحركوا خطوة فى سبيل حسم الموقف .. إلا واحدة هى التى تحركت إزاء ركود البحيرة وكانت صوفيا! التى تتميز بطبيعة عملية، لا تستسلم لما يسميه غيرها الأمر الواقع! بل تفضل أن تكون إيجابية الخطوة، وليست سلبية الفرجة. ولجأت الفتاة الوسطى إلى وسيلتين، أثارتا تولستوى إلى أقصى درجة . .وأشعلتا فى أعماقه نيران الغضب والغيرة. وتتفق الأولى مع طبيعة حواء، والثانية مع نوعية وظيفة تولستوى!

أما الأولى، فهو التكتيك النسائى العتيق، الذى يستهدف الإيهام بحب جديد .. ليوقظ الهوى الهاجع النائم فى الرجل الأول. والوسيلة الثانية هى كتابة قصة تصور بشكل مشابه مايعرض الواقع فى أسرة الطبيب الألمانى .. بشخوصه وعواطفه وأزماته. وتثمر كل من المحاولتين .. ولكن الأديب المشهور، لا يملك الشجاعة ليصارحها، ويعرض عليها الزواج! وإنما استعان بالقلم بديلاً عن اللسان، وكتب لها رسالة!

"أى صوفيا .. أصبح الأمر لا يطاق، لقد ظللت أقول لنفسى طيلة ثلاثة أسابيع سأبوح لها الآن، ومع ذلك كنت أخرج كل مرة وفى نفسى مزيج من الحزن والأسف، والرعب والسعادة! وكنت أنظر كل ليلة نظرة إلى الماضى فأسخط على

نفسي، أن لم أبح لك وأسأل نفسى ماذا عساى كنت أقول لو أنى تكلمت؟ لقد ظننت أنى أستطيع أن أحبكم جميعاً كما أحب الأطفال. وكنت فى "أفتسى" لازلت أستطيع أن أقطع مابينى وبينكم وأعود إلى خلوتى، إلى عملى الذى يشغل وقتى كله .. ولكنى الآن لا أستطيع شيئاً ..

"أشعر أنى أحدثت فى بيتكم شيئاً من الاضطراب، وأن صداقتكم لى كما تصادقون رجلاً شريفاً قد لحقتها بعض الشوائب، ولذلك لا أستطيع البقاء، كما لا أستطيع الانطلاق. وأنى أحمل هذا الكتاب معى وسوف أقدمه إليك، إذا لم أجد فى نفسى من الشجاعة، ماأبوح لك معه بكل شىء.

"وأنى أعتقد أن أسرتك تنظر إلى نظرة خاطئة، إذ تحسب أنى أحب أختك اليزابيث وليس هذا بحق!

"ولو أننى علمت منذ شهر أنى سوف ألقى مثل هذا الألم السار، الذى عانيته طيلة هذا الشهر لضحكت حتى يقتلنى الضحك. نبئينى بكل مافى نفسك من إخلاص: أتكونين زوجة لى؟ إذا كنت تستطيعين أن تقولى: نعم .. وأن تقوليها من أعماق نفسك، فقوليها. ولكن إذا كنت تحسين أدنى شك فقولى: لا. نشدتك الله أن تفكرى ملياً فى الأمر، وأنى لأمتلئ رعباً كلما فكرت فى قولك لا، ولكنى أوطن النفس على تحمل ذلك، وسوف أقوى على تحمله. بيد أنه من الأمور المفجعة ألا تحبنى من تكون لى زوجة بقدر ماأحبها".

اضطرت صوفيا أن تطالع الخطاب أكثر من مرة، لتستوعبه جيداً. فقد اختلطت فى البداية الكلمات. وكان هم العين التى تقرأ، أن تبحث فى الرسالة كلها عن كلمة بعينها. فلما وقعت عليها وهى تقفز السطور قفزاً، توقفت عن القراءة. ثم أسرعت وقد اغرورقت بالدمع، إلى معاودة القراءة بتمهل شديد هذا المرة! خوفاً من أن يكون اللفظ المحبوب، قد وضع فى غير معنى الإيجاب. ولم تطمئن الفتاة تماماً، إلا بعد أن استردت أنفاسها وطالعت السطور ببطء أشد.

وقبل أن تفكر فيما تفعل وتعد الكلمات التى تقولها لتولستوى. المنتظر فى الصالون. انتبهت إلى أن هناك طرقات عنيفة على باب حجرتها، التى أغلقتها على نفسها .. حتى لا يتطفل عليها متطفل أثناء القراءة. فهل هو تولستوى، نفذ صبره إذ طال غيابها .. فجن جنونه .. والجنون فنون! ولكنها أبعدت على التو الخاطر، فمع إندفاع الأديب المشهور فهو يحافظ دائماً على الأصول. وسمعت صوت أختها اليزابيث تصيح غاضبة، تطلب إليها أن تفتح. وأدركت أن شقيقتها الكبرى عرفت بأمر الخطاب، فخمنت مافيه. فنهضت متثاقلة تفتح الباب.

وكطلقات الرصاص دار حوار سريع بين الإثنتين:

– ماذا كتب لك الكونت؟ أخبرينى؟

– ...

– (تهزها بعنف) من حقى أن أعرف. ماذا قال لك؟

– طلب يدى.

– أرفضيه .. أرفضيه فوراً.

– لا.

– لابد أن ترفضيه .. الخائن!

– لا .. لن أفعل.

– خائنة!

وتماسكتا!

وجاءت الأم على صياح الأختين، وفرقت بينهما. مهدئة الكبرى، مشيرة إلى أهمية حفاظها على كرامتها. وإلى الخطأ الذى وقع فيه الكونت تولستوى، أو أسرة الطبيب نفسها .. بحسن نية .. وأن يحمل لها الفنان الكبير من ود وتقدير وصداقة كبيرة، تشابهت مع الحب. كما خففت عن صوفيا هجوم أختها. ولم تخرج من الحجرة، إلا بعد أن عاد الوئام الظاهرى على الأقل، ثانية بين الشقيقتين .. وبقى مافى القلب فى القلب!

انتظار تولستوى لرد صوفيا، كان أسوأ امتحان دراسى أو غير دراسى، تعرض له طوال حياته. فإن القدر لم يعرضه لمثله. الزوجة المناسبة كانت أمل حياته سنوات طويلة. وكلما مرت الأعوام ولا يجدها .. يحس بضياع العمر أكثر.

وعندما بلغ الخامسة والثلاثين، وهى فى رأيه سن متأخرة لبناء بيت .. فى مجتمع يتزوج الشاب فيه قبل أن يبلغ العشرين .. أدرك أن خطأه كان فادحاً. وزاد شعوره بالإخفاق، وهو يتأكد من حبه لصوفيا .. التى تبلغ نصف غمره.

والفارق فى السن، أثقل من هواجسه، وهو يبديه كما تصور، فى موقف أضعف يزرى بالكرامة. لأن الرد الطبيعى فى مثل سن صوفيا، هو الرفض لا القبول. وهو بهذا الشكل رفض مسبب موضوعى، يعتقد تولستوى قبل غيره بصحته وموضوعيته! وآذى نفسيته أن يكون فى موضع لا يتكافأ مع الفتاة التى يريدها زوجة. ومن هنا ضاق بذاته ذرعاً، وود لو لم تواته الشجاعة، ويقدم الرسالة لصوفيا. ولما طال به الوقت فى الانتظار، استعد والأسى يحوطه أن يسمع كلمة لا والفتاة تقدم عليه.

- نعم.

لم تزد كلمة. قالتها فرحة بسرعة والوجه محتقن بالدماء. وغادرته على التو! ولو كان فى حالة أخرى، لما وثق من رؤيته لها أو سماعه لكلمتها! ولولا أن أمها وابنتيها اليزابيث وتتيانا جئن مهنئات .. لما صدق نفسه!

(٥)

تعظيم تولستوى لنظام الزواج، يصل إلى درجة التقديس. فالبيت عنده جنة الرجل على الأرض، وواحته وسط الدنيا القاسية وضراوة القيم الهابطة. فهو يؤمن أن الخلية الأولى

للمجتمع، أحكم نظام وضعه الخالق لسعادة الفرد والجماعة على السواء. ومن هنا جاءت لهفته الدائمة على الزوجة وتكوين أسرة. وحرصه منذ البداية على اختيار المرأة، التى ستكون زوجته وأم أولاده. ولما كان الفنان الكبير، لا يطالب غيره بما لا يقدر هو على فعله. وفى ذات الوقت يريد لزواجه، أن يفتح صفحة جديدة، نقية فى حياته. فقد أهمه أن يخط الصدق سطور العلاقة مع امرأته. ولا يتاح ذلك فى رأيه، إلا بالإفضاء لشريكة حياته بكل آثامه وضعفه. وحتى لا تظنه حاوياً لكل الفضائل، مبرأ من العيوب، بينما هو ليس كذلك على الإطلاق. وكانت صوفيا كملايين غيرها من النساء، لا تعتقد فى حق الخطيبة أو الزوجة فى الاطلاع على ماضى رجلها وأسراره الخاصة. فمسئوليته تبدأ مع ارتباط اسمه باسمها، أما قبل ذلك وهى لما تدخل حياته .. فبأى حق تحاسبه على مافعل فى تلك الأيام؟!

ومع أن صوفيا أخبرته برأيها إلا أن تولستوى أصر على أن تطلع على مايعده من خاص شئونه .. ويكاد لا يعرفه الكثيرون عنه. وكان ذلك قبل عقد القران. لم يحك لها الفنان الكبير بلسانه عن مباذله القديمة، فهو لا يستطيع أن يقوم بهذه المهمة الصعبة. بل ترك لها الاطلاع على مذكراته الشخصية، التى كتبها ردحاً طويلاً من الزمن. سطر فيها كل مامر به من مواقف وشجون. مصوراً فيها بصراحة شديدة خلجات نفسه فى هبوطها وارتفاعها وانحطاطها ونبلها.

والأفعال التى لم يجسر على الإفضاء بها لأحد مهما كان قريباً منه .. والأفكار التى لم يملك الشجاعة على التصريح بها.

يكتب تولستوى فى "اعترافاته": "ولست أستطيع أن أعـود بذاكرتى إلى تلك السنوات دون أن أحس بالفزع والمقت وألم النفس الشديد. فقـد قتلـت الرجـال فـى الحـروب، وتحديـت الكثـيرين إلى المبـارزة كـى أقضـى علـى حيـاتهم. وقـامرت وخسـرت، واستغللت بجهـود الفلاحـين وحكمـت عليهـم بمختلف العقوبات، وعشـت عيشـة إباحيـة وخدعـت النـاس. واقترفت كـل الآثـام، الكـذب والسرقة والزنـا بكـل ضروبـه وشرب الخمر، واستخدام العنف والقتل. وقد أثنى الناس على سلوكى فى كل هذا"!

لقد كانت مذكرات تولستوى التى قدمهـا لصوفيـا، بمثابـة الجلوس على كرسى الاعتراف. يقول فيها الصـدق ولا شـىء غير الصدق! وقلة هى التى تستطيع أن تفعـل ذلـك، تجابـه بـه حقيقتها وضعفهـا. ومـن هنـا كـانت المفاجـأة القاسـية التـى اصطدمت بها صوفيا، وهى تقرأ المذكـرات. لم تكـن تتصـور أبداً أن من تحب، يمكـن أن يكـون علـى هـذه الشـاكلة. وأن الكونت النبيل والأديب المشهور، عاش مثل هذه الحياة المبتذلـة المنحطـة. وأخـذت تنفجـر بالبكـاء والمشـاهد البشـعة تـترى أمامها. وكلمـا تذكـرت أن هـذا وقـع لمـن تهـوى .. بكـت لصاحبها المسكين الذى عانى. كما تستهول مـاصنع، فتبكـى

ثانية عليه، وتبكى ثالثة على نفسـها، إذ تخيلت أن تولستوى يمكن أن يكرر ذلك مرة أخرى وهما زوجان!

وتنتهى صوفيا من قـراءة المذكـرات، لتجـد نفسـها مروعـة تماماً، وتولستوى يتمثل بهيئة أخرى أقرب إلى الشـيطان! فـإن التفاصيل الدقيقة التى كتب بها نبض حياته جسدت لهـا هـذه الحياة تجسيداً. واحتاجت الفتاة إلى وقت غير قصير، ليخفـف من انفعالاتها التى سببها لها حبيبها. ولتستعيد سيطرتها علـى نفسها. وتضـع تولستوى فـى موضعـة الحبيـب إلى روحهـا! مدركة أن الرجل الذى تسوقه غرائـزه إلى هـذا الـدرك، ومـع هذا يرنو فى كل لحظة إلى الخلاص. ثـم يتمكـن بعـد محاولـة ومحاولات، مـن قهـر ضعفـه. لهـو الرجـل القـوى الـذى يحـق للمرأة أن تحتمى به!

وعندما زارها تولستوى فى اليوم التالى، عكس وجهها كل ماقاسـت مـن مذكراتـه! وفهـم بطبيعـة الحـال، ووجـد نفسـه يطلب منها الصفح .. وبكت فبكى!

وإذا كانت المذكـرات الشـخصية أعطـت صوفيـا، الجـانب المستتر فى زوجها أيام شـبابه ومباذلـه .. فـإن مجيئهـا إلى بيتـه زوجة، قدم لهـا جانبـا آخـر .. كـان لـه وقـع المفاجـأة عليهـا أيضاً! لأنها وقفت منه على مالا تعرف مـن حـاضره كذلـك! لقد ظنت أنها كوّنت فى الآونة الأخيرة فكرة كاملـة أو شـبه كاملة عـن تولسـتوى .. حياتـه وفكـره وفنـه .. ومشـروعاته واتجاهاتـه الإصلاحيـة .. ومـاسمعت أو قـرأت عنـه. ولكنهـا

تشاهد إذ جاءت حيث يعيش، شيئاً مختلفاً تماماً! فالكونت نجم المجتمعات الذى يتابع احدث المودات، يرتدى فى ضيعته وبيته .. مايضع الفلاح العادى على بدنه، من ملبس خشن بسيط. وينفر ويتنافر أثاث المنزل أو "القصر" مع ثراء صاحبه. فهو أثاث قليل ضئيل القيمة، لا يقتنيه "كونت" أبداً. بل يقذف به فى عرض الطريق إذا وقع فى يده! وإنما هو مناسب لرجل فقير.

إن فخر تولستوى بنفسه خارج بيته، الذى يصل أحياناً إلى حد الغرور. يتساقط كلية فى ضيعته ومنزله. ويظهر الفنان الكبير على سجيته . إنساناً بسيطاً متواضعاً .. طفلاً كبيراً مجنوناً!

وتسعد صوفيا التى أصبحت "كونتس" بمجرد زواجها من "الكونت" تولستوى. وتحول المنزل الكبير، الذى كان أشبه بمخزن يعيش فيه الأعزب المشهور، إلى شىء يليق برحلها. فإذا الحياة تدب فى كل أركانه، حتى فى حديقته المهملة وتشارك مع وجود الخدم فى كل شئون البيت، التى تجيدها والتى لا تجيد .. فتعمل بالنسبة للأخيرة على تعلمها. ولا تأنف أن تفعل ذلك بالنسبة إلى الحظائر! مما أثار إعجاب الفلاحات بابنة المدينة المتعلمة، التى "تبرطم" باللغات. ومع ذلك تجد من الفخر لها، أن تشارك فى حلب الأبقار! وهكذا بدت الأشياء القديمة، كأنها قد مستها يد ساحر

وأرادت صوفيا أن لا تقتصر على أن تكون مجرد ربة بيت ناجحة. بل تطلعت إلى أن تساهم أيضاً، ولو بقسط ضئيل في عالم زوجها الفكرى. وكان تولستوى قد أعاد فتح مدرسته الريفية بعد عودته من ألمانيا واطلاعه على المناهج التربوية هناك. وهذه المدرسة على نسق فريد من التعليم الحر. الذى لا يتقيد بمنهج أو مواد بعينها، أو كتب مقررة أو مواعيد دخول وخروج محددة! فهى تقوم على كفر بنظم التعليم السائدة! يقول محمد رضا فى مقدمة ترجمته لكتاب تولستوى "الآفات الاجتماعية وعلاجها" عن هذه التجربة: "لم يقيد التلاميذ بشىء من القوانين المدرسية، فكانوا يحضرون وينصرفون كما يريدون. ويتعلمون مايشتهون، وكذلك لم يقرر لهم أى نوع من أنواع العقوبات، وجعل المدرسين مسئولين عن إخفاق الطلبة وتهاونهم. وكان يقول (إن الطالب محق فى رفض طرق التعليم التى لا تلائم ميله الطبيعى، وإننا معاشر الرجال من أبناء الجيل الماضى لا تعلم ماهو ضرورى للأطفال، فلنترك لهم حرية الاختيار)"!

كان تولستوى ضد فكرة حشو أدمغة التلاميذ، التى لا تسمح لهم بحرية الانطلاق فى العقل والجسد .. وتقيد مواهبهم فتصدأ. ويتخرجون سواء من المدارس أو الجامعات، وهم نسخ كربونية تتشابه مع بعضها البعض. يصلحون للوظائف الروتينية، وكل موضع يكره التجديد ويبغض الإبتكار. وهذا كله دفع الكاتب الكبير، إلى التفكير فى نظام آخر، يهيئ الإنسان المثقف الحر. الذى يدرس مايتفق

وتكوينه وموهبته واتجاهاته العلمية والأدبية واليدوية والذهنية .. متفقة مع حاجات بيئته، وأحدث مايصل إليه العلم أو الفكر الحديث. ويقبل التلميذ الصغير على المدرسة فى الساعة التى يريد، وليست التى تريد هى! لأنها تضع فى الحساب حاجة الأب الروسى خاصة فى الريف إلى أبنائه كأيد عاملة .. تساعد فى الحقل.

وفى البداية سخر منه الناس، وبالذات أهل القرى الذين من أجلهم .. شيد الأديب الكبير بماله مدرسته. التى تقدم خدماتها، والأدوات المدرسية بالمجان! ولا تكلف التلميذ أية مصاريف! ولم يلتحق بها إلا قلة قليلة من أبناء الفقراء. ولكن هذا لم يستمر طويلاً، فالحرية الملتزمة التى عاشها الصغار، وأسلوب اللين والإقناع والتعاطف، الذى كان وسيلة الأساتذة الذين اختارهم تولستوى .. إلى قلوب وعقول التلاميذ. والتى كانت شيئاً غريباً شاذاً، إزاء أسلوب المدارس التقليدى الجاف .. الذى لا يتورع عن الشتم والضرب .. أثمرت ثمارها. وإذا بهؤلاء التلاميذ أنفسهم الذين بعثتهم المدرسة بعثاً جديداً، هم خير إعلان لها .. جذب إليها غيرهم! ليس من أبناء الفقراء، بل من أبناء الأغنياء أيضاً. ومن الأقاليم البعيدة كذلك، التى وصلت إليها أخبارهم.

هذه هى التجربة، التى عمدت صوفيا إلى الإسهام فيها .. بتدريس بعض مايحتاجه التلاميذ. كما شاركت الزوجة الشابة أيضاً، فى مجلة المدرسة. فلم ينس تولستوى أنه صاحب قلم وأديب وكاتب قصة. وأن النشاط الصحفى

يمكن أن يتمم مشروعه ويخدمه. فأنشأ مجلة أطلق عليها اسم قريته ياسنايا بوليانا. يقول سليم قبعين في "مذهب تولستوى": "أصدر مجلة تهذيبية دعاها بإسم تلك القرية المحبوبة، وشرع ينشر فيها المقالات الأدبية والتهذيبية بقصد تقويم أخلاق الأهالى والأولاد. ثم أخذ يدرب تلامذته وينشطهم على كتابة القصص الصغيرة، وينشرها لهم فى المجلة".

(٦)

الحب المجرد وحده لا يكفى لإقامة بيت سعيد. فإذا لم يقترن بالفهم والرغبةٍ الحقيقية فى تذليل العقبات، بلا أية حساسية. والوصول إلى أعماق المحبوب والتعاطف مع مكوناته. كان ذلك بمثابة أول شرخ يصيب صرح الزواج. والفنان بكلِ المقاييس، إنسان غير عادى وهذا مايجب أن تفهمه جيداً، زوجته أو المقبلة على زواجه. وعلى مدى وعيها بهذا الفارق بينه وبين غيره تسعد أو تشقى فى بيتها. فإذا لم تدرك العناصر الداخلة فى تكوينه، والمفاهيم التى تسيطر على حركته، باءت الحياة الزوجية بالفشل.

لقد بدأت صوفيا حياتها الزوجية بداية طيبة. يسدد الحب خطاها، وتجد من تولستوى قلباً محباً عطوفاً. ولكن الأيام لا تلبث أن تظهر من طبيعة الزوجة، على عنصر يكاد يفسد الطبخة، ويعرض كل شىء للانهيار .. وهو غيرتها. فهى شديدة الغيرة .. فما تكاد تتملكها حتى تنسى نفسها.

وتفسح المجال للعاطفة المدمرة، تحطم مابنته بـالأمس .. وتلقى بالكآبة على البيت والزوج .. الذى يأسى لما يلقـى مـن قصـر نظر زوجته. فهى تكاد لا تراه يتحدث إلى امرأة، فـى طريـق أو حفـل. حتـى تغلـى الدمـاء فـى عروقهـا، وتفقـد بهجـة اللحظة، وتبقـى عينيهـا مسـمرتين عليـه وعلـى مـن يتحدث! والويل لصوفيا من نفسها لو نسـى تولستوى نفسـه، وانطلـق على سجيته يضحك -وكثيراً مافعل- مع الفتاة. هنـا يصبـح الأمر بالنسبة لها، يجاوز حدود الاحتمال! ويعظـم الخطـب لـو انطلق الفنان الكبـير، فـى زيـارة قريبـة أو بعيـدة، وتـأخر فـى الحضور عن موعـده. فلابـد أن يكـون سـبب انشـغاله الأول والأخير هو أنثى!

ولا تتوقف الغيرة عند هذا الحد، بل تسـتحضر صوفيـا مـن الماضى، جميع من عـرف تولستوى مـن نسـاء . ذكرهـن فـى مذكراته الشخصية، واطلعـت علـى أسمـائهن. فتنفـث الحيـاة ثانية فى تلك العلاقات القديمة. كأنها لم تنته إلى الأبـد، بـل تمتـد إلى اليـوم .. لتحاسـب رجلهـا علـى مـاجنت يـداه! وإذا كانت أغلب مغامرات الأمس، وقعت فـى أماكن بعيـدة عـن ضيعة تولستوى التى يسكنانها .. فقـد أفلتـت صاحباتهـا مـن نقمتها! أما القلة من نزوات الأديب الفنـان التـى حدثـت فـى الضيعة، كعلاقته مع فلاحة مثيرة من فلاحاتها .. فقد جعلـت الكونتس تحمل لها أعظم قدر من الكراهية!

يقول على الخفيف: "وكانت لا تفتـأ تنظـر فـى مذكراتـه، ولا زالت علاقته القديمة بأكسينا، تلك المـرأة القرويـة، تلهبهـا

غـيرة. ولقـد بلـغ مـن غيرتهـا أنهـا كـانت ترتـدى ملابـس القرويات أحياناً، وتمشى فى طرقات القرية لـترى مـاإذا كـان زوجها يغازلها على أنها أكسينا أو غيرها من القرويات، ولقد كتبت ذات مرة بعد قراءتها صفحـات مـن مذكراتـه .. "إننـى سوف أقتل نفسى يوماً بدافع الغيرة"! وكـانت لاتـبرح ذهنهـا قـط تلـك الكلمـة التـى قالهـا تولسـتوى عـن أكسـينا "إنــه لم يستغرق فى الحب مثل هذا الاستغراق من قبل"!

ولما كانت الغيرة لا تعرف الحـدود ولا القيـود، بـل تنطلـق بسـرعة الصـاروخ عشـوائياً .. تسـتعمر علــى الـدوام أراض جديدة. فقد وجدت صوفيا فى كتابـات تولسـتوى الكثـيرة، الماضية والحاضرة، عن العشق والعشاق .. مادة جيدة لإشـعال النار! وتعترف الزوجة فى مذكراتها بعنف غيرتها التى سودت حياتها .. "كنت أشمئز وأضيق كلما قرأت له شيئاً عـن الحـب وعن النساء، حتى لأرغب أن أحرق جميع ماكتب، ولن أحس مبالاة بكتبه فإن الغيرة تجعلنى أنانية مخيفة"!

وهكذا أفسدت صوفيا حلم تولستوى فى الزوجة المنقذة!

لقـد أرادت أن تسـتأثر كليـة بعواطـف الـزوج، إلى درجـة إمتلاكه إمتلاكاً تاماً جسداً وروحاً .. وهـو البـاعـث لغيرتهـا. لم يكتفِ حبها له بالقدر الذى لا يقيد الرجـل، بـل كـان مـن الصنف الذى يكبله. ولا يهـون الخطـب لـو كـان تولسـتوى رجلاً عادياً، فما الحال وهو ليس كذلك. فالقيد قيد لو كـان من حب أو حرير. ويحاول الفنان الكبير أن يـرد صوفيـا عـن

غيها، ويبعدها عن المغالاة فى عواطفها بحيث تضع الأشياء فى موقعها الصحيح بلا غضب أو تجاوز. ولكنه يفشل، إذ تظن زوجته أنه يخدعها، ولا يصدقها القول أو النصح، لغرض فى نفس يعقوب!

والغيرة الحمقاء للزوجة لا تنبعث فحسب، من حصارها لرجلها فى الخارج، ومنع النساء عنه! بل هى أيضاً بنفس الدرجة، حصاره بالحب من الداخل! وتستخدم صوفيا سلاح الجنس فى عملية كسب المعركة كما تتصور. ولكن تولستوى الذى تمرس فى شبابه بنزوات الجسد .. يتقزز من الاستعانة بسلاح الجنس للسيطرة، فى الحياة الزوجية. فهذه الاستعانة يمكن تبريرها، إذا كانت صاحبتها من بنات الليل. أما أن تلجأ إليها غيرها .. فهى المهانة.

وتقززه لم يكن موقفاً فكرياً، بقدر ما كان حياتياً وعاطفياً. فمع حبه لزوجته الذى لا يزال فقد بات يكره أن يضمهما الفراش. وهكذا جاءت النتيجة بعكس ماتوقعت صوفيا تماماً. مما جعلها تندم بينها وبين نفسها، كما عبرت سطور مذكراتها الشخصية. وإن افتعلت من المبررات، مايبرئ ساحتها!

"إنه لا يدعنى أقرب منه وهذا محزن .. إن المسائل الجسمانية تؤدى به إلى الاشمئزاز. لم يكن يقدر أحد غيرى أن يفهم أنه انجذب إلى دون أن يحبنى، ولم أدرك وقتئذ أنه سوف يدفع ثمناً يفدحه؟ لماذا حطمت شخصاً كل امرئ يحبه؟ إنى

أرغب أن أحبه ولكنى لا أستطيع، وإذا غاب أو انشغل بعمله فكرت فيه دائماً، واستمعت إلى وقع خطاه، فإذا جاء لبثت أنظر فى وجهه .. وإنه ليغضب كلما أخبرته أنى لا أحب أن أترك وحدى"!

إن للحياة قانونها الخاص الذى يتعارض كثيراً أو قليلاً، مع اتجاهات ومفاهيم البشر وخططهم وأطماعهم. كما يتنافر مع مايعتمد عليه الناس، من قوانين رياضية وهندسية .. تصلح للمادة لا للإنسان. فليس معنى تسلط الغيرة الشديدة على صوفيا، واستمرار مقاومة تولستوى لها .. أن المحصلة الوحيدة لهما هو الطلاق! فقد أدى الحب بكل مافيه من عناصر دوره، ودخل المعركة يدافع عن نفسه اعتداء الغيرة! وتكون النتيجة أقرب إلى صالحه بل هى كذلك بالتأكيد .. وإن كان ذلك ليس حسماً لجانب على آخر. ويكفى أن العلاقة الزوجية استمرت أكثر من خمس وأربعين سنة! أنجبا فيها البنين والبنات!

وليس معنى ذلك أيضاً أن الغيرة سقطت صريعة .. أبداً. فهى متغلغلة فى أعماق صوفيا تظل تسرى فى دمائها، تنفث الخطر، بطريقة الجذب حيناً والإرخاء حيناً .. بحيث لاينقطع الرجاء! حتى لو غارت من أختها الصغرى، وشكت فى علاقة تربطها بتولستوى!

استقبل تولستوى الأبوة، لا بمثل مايستقبلها أى أب .. بالفرح والابتهاج فحسب. بل بالأمل العظيم فى أن يتاح

للصغير تربية حديثة، تناقض ماهو سائد فى عصره. فالفنان الكبير كرجل فكر، قد اهتم بقضية الطفل منذ وقت طويل .. قبل أن يتزوج وينجب. فالطفل فى روسيا القيصرية ليس كما مهملاً فحسب .. بل هو يعامل فى البيت والمدرسة بالأسلوب التقليدى الذى لا يفرق بين تكوين الصغير والكبير .. ولا بحاجة الطفل وقدراته. وإنما العمر الأخضر فى حسبانه، مما يدخل فى دائرة تسلطه وأوامره ونواهيه!

ورؤية المفكر الشاملة إلى الطفل، تحيطه من كل جانب. وتنظر إليه كعالم كامل، من حقه أن يتنفس بدنياً وصحياً ونفسياً وروحياً وثقافياً وتربوياً. إن عدم الإلمام بنفسية الطفل، وجهل أن تجاهل ناحية واحدة فيه. يمكن أن تفسد على الكائن الصغير أمره طوال حياته. وأديبنا لا يريد أن يعرض الطفل لمرض ما مهما كان نوعه .. سواء اتصل بالبدن أو النفس أو الروح، كما حدث له هو شخصياً.

فمع أن طفولة تولستوى كانت سعيدة، وحظى بمربيات أجنبيات. إلا أن ماتكون فى أعماقه وهو صغير عن قبحه وعدم وسامته .. شغله بعدها سنوات طويلة، وكاد أن يحطم معنوياته. بعد أن أصابه بمركب نقص، ظل يستشعر منه أنه أقل من غيره. وكان أحد الأسباب الهامة، وراء استغراقه فى تهتكه فى فترة شبابه.

ولهذا السبب ظل تولستوى فترة مديدة من حياته، يكره التصوير. وكان يدفع إلى الوقوف أمام الكاميرا دفعاً! وحتى

بعد أن فاضت شهرته كفنان عظيم فى وطنه وخارجه، ظل على بغضه لأن تلتقط له الصور! ومن الحكايات التى تروى عن ذلك .. "عندما كلف أحد الرسامين المشهورين بتصوير تولستوى، وسائر كتاب روسيا، لوضعها فى متحف خاص .. وجد الرسام الأمر صعباً بالنسبة لتولستوى لأنه يعيش بعيداً فى ياسنايا، ولا يسمح لأحد بتصويره. فخجل أن يستأذن فى ذلك، واضطر أن يستأجر منزلاً ريفياً يبعد ثلاث ساعات عن ياسنايا معتزماً انتظار تولستوى حين مروره راكباً حصانه فى طريقه المعتاد ليرسمه. وبمجرد أن علم تولستوى بنية هذا الرسام وبما عاناه من تعب، أرسل يدعوه لزيارته وسمح له برسمه"!

ولذلك أتاح تولستوى لأولاده، تربية غير عادية ومثالية بالنسبة إلى زمنهم. يقول صادق مرحان: "وكان فى تربية أولاده لا يعاقبهم بعنف، ولا يشتد معهم، بل كان يترك لهم الحرية ويعاملهم برفق، وكان أكثر مايكرهه أن يلاحظ أن ابناً من أبنائه يكذب. وكان يميل إلى استخدام المربيات الإنجليزيات فى تربية أولاده، لأن كان يؤمن أن الإنجليز يعنون بالحرية فى تربيتهم أكثر من غيرهم. وكان لايبيح لأولاده أن يأمروا الخدم بل أن يطلبوا منهم مايشاءون بتلطف، فى وقت كان يعامل فيه الفلاحين فى روسيا كأنهم من طينة أخرى غير طينة البشر"!

وتولستوى عاشق الطبيعة، حبب إلى أطفاله هواها الاستغراق فى دنياها. فهو يصحبهم فى زيارات إليها

خارج الضيعة، يتأملون ويمتعون البصر، ويستنشقون الهواء النقى الطازج المحمل بالعبير، ويجرون ويضحكون .. وكان الفنان الكبير مع انشغاله بالكتابة أو القراءة أو الأعمال اليدوية، يقضى مع أبنائه الكثير من الأوقات .. مداعباً مثقفاً إياهم.

ولاهتمامه بالطفولة، كتب لأصحابها بعض القصص. وكان الكثيرون يعدون هذا العمل الرائد فى ذلك الوقت .. نكتة، ومضيعة لوقت الكاتب العبقرى! بينما كان ينظر إليه تولستوى كجهد عظيم، يتمنى أن ينتفع به الأطفال. وقد وضع المفكر الكبير كتاب مطالعة للأطفال، أسماه " أ ب ت" .. انتشر انتشاراً واسعاً، وطبع عدة مرات. وأصر مؤلفه على أن يباع بسعر رخيص، حتى لا تحرم القدرة الشرائية طفلاً من الحصول عليه!

(٧)

إذا كانت صوفيا فى بداية زواجها قد ضاقت ذرعاً بالكتابة. لأنها تبعد رجلها عنها ساعات طويلة. فإنها لا تلبث بعد قليل وبعد أن أنجبت أكثر من مرة، أن تحب هذه الكتابة! لا من حيث كونها ثقافة أو عملاً فكرياً، بل بما تدره من فوائد غير منظورة لمن كان مثلها! فهى تستطيع عن طريق الكتابة، أن تنقل مسودات قصص زوجها. وهذا يعنى الجلوس إليه معه أثناء الكتابة وقتاً طويلاً .. لا يمضى كله فى الجد! كما أن الكتابة أصبحت تعود بمال مجز، يصب بالطبع

ين يديها وفى البيت! وبالرغم من أنها لا تشكو العوز بالطبع ولا قلة المال، فتولستوى كان يعد من أغنياء روسيا .. إلا أنها كانت مثل الكثيرين نهمة إلى المال! وبلغت سعادتها بالكتابة القمة، بعد أن أتم تولستوى روايتيه الفذتين "الحرب والسلام وأناكارنينا". وتدفق المال أكثر! والروايتان تترجمان إلى أغلب لغات العالم!

ولكن عندما بدأ تولستوى بعد ذلك مرحلته الفلسفية والإصلاحية .. تغير موقفها تماماً. ففى هذه الفترة لم يكتب الفنان العظيم، القصص التى تدر مالاً. بل كتب خطراته التأملية بعد أن تبلورت أفكاره فى القضايا التى أضنته، وشغلت باله ليل نهار. وهو يبحث عن ماهية الكون والوجود .. ومن أين وإلى أين.

كان الأديب الروسى قد وصل إلى المستوى العالمى، منذ وقت طويل. وأبرزت قصصه ورواياته فهمه الدقيق للإنسان، وهمومه وأحلامه. وعاد فنه عليه بالشهرة والمجد والمال. ولكنه يبحث عن نفسه فلا يجدها، لأنها تتمزق قلقاً. لا فى سبيل المزيد من الشهرة والمجد والمال فقد عاف هذا كله. منذ أن نضجت مشاعره وفكره، ولم تعد تعود عليه بالسعادة التى ينتظر. بعد أن تكشفت لديه أنها سعادة المادة وبهجة الظفر الأجوف. وأخذ يتساءل مافائدة ماأجهد النفس من أجله، وهل يعيش حياته ويمضى بها وراء سراب. ويلجأ إلى العلم

والفن والفلسفة، علـه يعثر فيها على بغيته من الإطمئنان. فتقبض أصابعه على الهواء.

وحين يفشل الرجاء فى النظر إلى مايمد عالم المثقف، تقود تولستوى فى محاولاته المستميتة المؤلمة إلى الخلاص، ماعليه البسطاء من الناس والأميين من سعادة .. باعثها الإيمان بالسماء. ويكون الدين وجهته هذه المرة. ويقبل المفكر الكبير على دراسة العقيدة المسيحية ويهوله الفارق الكبير بين الدين وتطبيقه. فالكنيسة لصالح رجالها، تلوى عنق الجوهر لتسيطر على الناس وتستغلهم مادياً ومعنوياً. فإذا مابين الدين وتفسيره، بعد السماء عن الأرض. وتستغرق الدراسة أو الكشف، عدة سنوات. تفرغ فيها الأديب الكبير تماماً لما بين يديه. وبشجاعة تولستوى وصدقه، لا يكتم رأيه .. ويهاجم مااكتشف .. قائلاً:

"إن أشد آفة يعانيها الناس لم تكن ناشئة عن جهلهم بالقانون الإلهى، لأنهم كانوا عالمين به منذ أمد مديد، بل ناشئة عن تلك الفئة التى يضرها العلم والعمل به. ولما لم تستطع القضاء عليه ولا دفعه، ابتكرت الوصية تلو الوصية، والأسطر الكثيرة كما قال أشعيا ثم أوهمت أنها واجبة كالقانون الإلهى أو أشد وجوباً منه!"

ويكتب فى موضع آخر: "إن المباحث اللاهوتية والحكومية والعلمية قد تصدق فى مكان وزمان دون غيرهما، وقانون

مقابلة المثل بالمثل صادق فى كل مكان وزمان، ويشمل الناس جميعاً ومن فهمه لم ينكره أبداً.

"وأجزل فائدة لهذا القانون، وأهم مايمتاز به عن سائر القوانين، أن جميع القوانين اللاهوتية والحكومية والعلمية لم تدرأ عن الناس ضيراً، ولم تجلب لهم خيراً، بل ولدت أشد الضغائن والالآم. والقانون الكامل "افعل لغيرك ماتحب أن يفعله الغير لك، أو لا تفعل لغيرك مالا تحب أن يفعله لك الغير"، بعكس تلك القوانين يدرأ عنهم الضير ويجلب لهم الخير إذ لا ينتج إلا وئاماً وسعادة".

وتقوم قيامة رجال الدين المسيحى فى روسيا.

وتغضب صوفيا! فإن معارك الرأى ليس وراءها إلا الهم! والهم الذى تقصده بالذات .. هو أن تصبح الكتابة بلا جدوى .. أى بلا عائد مالى! فالهجوم المضاد من الخصوم الأقوياء، يتسبب فى عدم الإقبال على شراء الكتاب! وباعث آخر لغضب صوفيا يرجع إلى ثقافتها المحدودة .. وهو إعتزازها برجال الدين .. الناس الطيبين المباركين!

وضيق أفق زوجة رجل واسع الأفق، يبعث لو استمر، من التنافر بين الزوجين .. مايهدد بعض أو كل حياتهما العائلية. ويعظم الخطر لو كان الزوج مفكراً وفناناً عظيماً مثل تولستوى. وهكذا بدأ العنصر الهدام يفسد حياة صوفيا، قبل أن يفسد حياة تولستوى. وأخذ الكاتب العظيم يضيق ذرعا بما يلاقى، خاصة عندما يدخل فى معاركه الإصلاحية ضد

نظام الحكم الفاسد .. مدافعاً عن المظلومين والفقراء .. فاضحاً التكوين المتسلط للمسئولين، معرياً المؤسسات الحكومية وغير الحكومية، التى تشارك فى تثبيت دعائم الظلم والفساد. متهماً المال بأنه أس الشرور جميعاً. ومن كلماته فى هذا الصدد:

"الناس إما عبيد أو موالى، ولكن يصعب على الإنسان أن يجعل حدا واضحاً يفصل العبيد عن الموالى فى هذا الزمان، كما كان فى الأزمنة السابقة. لأنه يوجد الآن من العبيد عبيد مؤقتون يصيرون موالى فيما بعد، وكذا يوجد بينهم من هم عبيد وموالى فى آن واحد. إلا أن هذا الخلط عند نقط تماس القسمين لا يغير الحقيقة، وهى انقسام الناس فى زماننا إلى قسمين عبيد وموالى كانقسام كل أربعة وعشرين ساعة إلى نهار وليل، بالرغم من اختلاط النهار بالليل كما عند الغروب والأسفار.

"فالمولى إذا لم يكن لديه عبد يرسله لتطهير مرحاضه، فإن لديه خمسة شلنات يفتقر إليها مئات من العمال كل الافتقار، فيختار المولى منهم من يشاء لهذا الغرض. وتكون له يد على من فضله، وسمح له دون سواه بالنزول إلى المرحاض.

"ليس العبيد فى عصرنا جميع عمال المعامل والمصانع فقط، الذين يبيعون أنفسهم لسلطة العمل، وأصحاب مصانع السبك كى يعيشوا بل جميع المزارعين تقريباً عبيداً أيضاً، يشتغلون بلا انقطاع فى زرع قمح الغير فى غير أرضهم، وفى جمع

الحاصلات فى مخازن غيرهم. أو يكدون فلاحة حقولهم ليدفعوا لأصحاب المصارف أرباح ديونهم، التى لا يستطيعون الخلاص منها".

وبدلاً من أن يعبق البيت بالهدوء والسكينة والتعاطف، التى تساعد الزوج المفكر على أداء عمله كما يجب. خاصة فى أوقات الشدة، والمعارك بين تولستوى وخصومه المستغلين دائرة طاحنة. تهيئ صوفيا العكس .. تنثر الأشواك فى أيامه وتغرزها فى بدنه وروحه. وتحيل المنزل إلى قطعة من العذاب. ويعشش الضيق والعناد والشجار فى أنحائه. والزوجة لا يعجبها مااختط رجلها ومايدعو إليه. وتجأر بالشكوى من آرائه، التى تراها محطمة للمعبد فوق رأسها هى قبل الناس جميعاً! ومن الطريف أنها اتخذت موقفها، لا من منطلق فكرى، أو لأنها متحمسة لمذهب إصلاحى آخر. بل خوفاً على زوال ماتتمتع به من مستوى مادى، مترف! فتولستوى حين يكتب أو ينادى بمبدأ، فهذا يعنى أنه صادق الإيمان به .. ويطبقه على نفسه وبيته ومايملك قبل أى إنسان آخر! ولذلك فهى تثور قبل أن يفعل!

إن مناداته بالمساواة بين الناس .. بين السيد والخادم يثير ثائرتها، ويقربها من حال يشبه الجنون! ومع أن أكثر خدمها وعبيدها لا يقرأون، فإن تولستوى يتحدث إليهم بآرائه ويطالع لهم مايكتب فى الصحف، وينشر فى الكتب! وهكذا لا تخاف كغيرها من أن يأتى الخطر من الخارج، بل أن ينفجر

من الداخل! وممن؟ من زوجها! الذى يقول لها بصريح العبارة، قبل أن ينشره فى مقال أو كتاب ..

"نحن حقيقة فى حاجة إلى ثورة، ولكنها ليست ثورة دموية، بل ثورة فى ضمائر الأغنياء وفى قلوبهم، تدفعهم إلى التنازل طوعاً واختياراً عن غناهم، وإلى عدم التمسك بحياتهم البليدة المليئة بالكسل والتعطل"!

أو يقول لها: "إنى أؤمن من كل القلب وأدرك إدراكاً واضحاً، بأنه مادام هناك عشرات الألوف والملايين من الناس يعيشون فى الفقر والحاجة، ومادمت أنا وقليلين غيرى نتمتع بالغذاء الفاخر والكساء الفاخر، ونغطى خيولنا بالجوخ، وأراضى غرفنا بالطنافس، فهذا هو أكبر الجرائم مهما قال كبار العلماء فى تدبير هذا الحال"!

ويثنى تولستوى القول بالفعل، ويبدأ بذاته. كان يعرف أن الطريق طويل، وأنه لا يستطيع بجرة قلم أو بمجرد الرغبة أن يمحو من صفحة حياته تماماً ماأصبح يكره. ولكنه على استعداد لاقتحام المخاطر، ويخطو الخطوة الأولى .. يتنازل عن لقب الكونت الذى يحمل وورثه عن أبيه! وتغضب صوفيا غضباً شديداً، فقد بدا لها أن هذا الموقف موجه خصيصاً ضدها! فإن معنى ذلك أن يسقط عنه لقب الكونتس أيضاً، لتصبح بين يوم وليلة إنسانة عادية .. كالنساء العاديات. لا تتميز عنهن بشىء، ولا يعلو تاج على رأسها .. بعد أن

فقدت بالتبعية لقبها الرفيع. وهكذا تتخلى غير مختارة عما تحب وتشتهى .. لأن زوجها رجل إصلاح!

وكان الفنان العظيم قد اتخذ التقشف، منهجه فى الحياة .. منذ وقت طويل. سواء فى المأكل والملبس وغيرهما .. ورفض أفراد أسرته جميعاً، زوجته وأولاده وبناته، الرافلين فى الترف والنعيم .. أن يحذوا حذوه. وهو من ناحيته لم يفرضه عليهم بالقوة، فالإكراه أبغض الأشياء إليه .. لأنه نقيض الحرية التى يقدسها. ولما كانت الدعوة إلى التعاطف والأخوة والسلام والعدل، التى يؤمن تولستوى وينهض بها .. عقيدة وليست ثرثرة. فمعنى ذلك أنها أعمق من أن تكون كلمة على طرف لسان، وإنما هى إنفاق المال لمساعدة الغير فى ساعات الكرب والمجاعة والكوارث.

ولكن الإحسان مهما شاع وساد وانتشر -وهو لم يحدث- ليس بالعلاج، كما يذهب الأديب والمفكر الروسى العملاق. وإنما هو بمثابة يد تربت على كتف المهموم، أو مرهم يوضع على السطح الخارجى .. أما العلاج الجذرى، فهو الذى يجابه المشاكل الأساسية ويحل العقد العتيقة المعلقة منذ قرون، مثل الفقر والتسلط والقهر والجهل وغيرها. يقول تولستوى فى كتابه "ماذا يجب إذاً أن نصنع"، الذى أصبح إنجيلاً لدعاة الإصلاح فى عصره:

"يقوم أبداً بيننا نحن الأغنياء وبين الفقراء جدار من التعليم الباطل، ولن نستطيع أن نعين الفقراء حتى نهدم هذا الجدار،

لقد ساقني التفكير إلى نتيجة هي أن ثراءنا هو السبب الحقيقي لشقاء عامة الناس".

ويكتب في موضع آخر: "إن أمام ذلك الذى يتألم فى إخلاص لمرأى الآم غيره وسيلة جد واضحة وجد يسيرة، وهى وحدها الوسيلة المستطاعة لمعالجة مايحيط بنا من مساوئ واستشعار أننا نعيش على صواب، وذلك ألا نملك أكثر من رداء وألا نملك المال، أعنى ألا ننتفع بعمل الآخرين، وعلى ذلك فعلينا أن نعمل كل مانستطيع عمله بأيدينا، وأى وسيلة غير هذه لا تغير ذلك الوضع، الذى نرى فيه الأغنياء فى أكثر الأيام حاجة إلى العمل، يذهبون إلى ضياعهم ليعيشوا عيشة الترف والكسل، فى حين يعمل الفلاحون الذين يعيشون على خبز الشعير والبصل ثمانى عشرة ساعة فى اليوم، ولا يجدون حاجتهم من الكساء، ولا يأخذون قسطهم الحق من النوم".

ويسوق هذا الفكر تولستوى إلى أن يقرر، توزيع أرضه على فلاحى ضيعته. ولا تكاد صوفيا تسمع ذلك حتى تصعق .. وخيف على عقلها بالفعل. فهى تعرف أن زوجها قادر على الإتيان بأشياء كثيرة .. جنونية على حد تعبيرها! لكن أن يصل الأمر إلى هذا الحد .. فلم يكن متصوراً على الإطلاق! وبدأت معاركها الشهيرة ضد زوجها، التى حددت وحدها صورتها على مر الأجيال، لدى الملايين فى أنحاء العالم كله. وأضافت اسمها إلى زوجات المشاهير المشاكسات، اللاتى حولن حيوات أزواجهن إلى عذاب وجحيم! وأصبحت كل منهن رمزاً للمرأة العنيفة القاسية الجحود. فعلت صوفيا ذلك

فى سبيل ماظنته حقوقها المشروعة لها ولأولادها، من الاستيلاء الكامل، على مايملك زوجها .. حياً وميتاً! كأن المال ليس ماله، وهو حر التصرف فيه. خاصة والإنفاق ليس فيما يضر، بل فيما ينفع .. وللصالح العام!

و لم تكتف زوجة تولستوى بإثارة الشجار اليومى معه. بل أخذت تستعدى عليه الأصدقاء وغير الأصدقاء من طبقته .. الأثرياء والجيران بل والسلطات أيضاً! وقبل هؤلاء جميعاً .. أولادهما! ووصل الحال بصوفيا إلى التفكير، فى الحجر على تولستوى .. أو وضع أملاكه تحت الحراسة! خوفاً من أن "يبددها" فى فعل الخير وقضايا الناس!

لم تحاول صوفيا أن تلتقى بزوجها فى منتصف الطريق، ولذا فقد تحول عنها الكاتب العظيم، وهو الذى أعطاها اللقب والثراء والشهرة والسعادة .. إلى رجل من الرجال وزوج من الأزواج! وازنت بين العيش المترف والغنى الحافل اللذين تتمرغ فيهما، وبين التعاطف مع زوجها المفكر وتأييده .. فاختارت الجانب الأول بلا تفكير! بينما انتظر تولستوى أن تفعل صوفيا العكس بشكل ما. وأقسى الطعنات هى التى تجىء من أقرب الناس. وبالرغم من أن المفكر العملاق فكر فى كافة الاحتمالات، وهو ينتهى إلى قرار توزيع أملاكه .. إلا أن موقف زوجه وهى تتنمر فى سبيل المادة بهذا الشكل، آذاه أذى بالغاً. ولكنه مع ذلك صمم على السير قدماً. وإن

التمس العزاء فى إيمانه، وفى كلمته التى كان يرددها كثيراً فى صراعه مع امرأته، وهى .. "أن أعداء الإنسان هم أهل بيته"!

ولاشك أن صراع صوفيا مع زوجها، ترك آثاره العميقة فى نفس تولستوى وفكره. فهو إذا كان قد استطاع أن يقهر غضبه منها وبغضه لأفعالها. فإن التسامح العظيم الذى اشتهر به، وحابه به مساوئ صوفيا، وحفاظه على عهده لها .. بلورت رؤيته أكثر لضعف المرأة وفى هذا الصدد يكتب جورجى زيدان فى يناير ١٩١١:

"لم يكن تولستوى حسن الظن فى المرأة من حيث قيامها بواجباتها البيتية، والمحافظة على أمانتها لزوجها. بل هو يعتقد أنها مثله تسعى فى الوصول إلى سواه، فإذا استطاعت ذلك فعلت فعله. لأن المحبة بين الزوجين يرى طولستوى بقاءها من رابع المستحيلات قال "قد يكون بين الزوجين حباً ولكن إلى أجل قصير، وإنما يدوم الحب بينهما فى خيالات الشعراء، وماينشر فى رواياتهم من حوادث العشق. أما فى الواقع فإنه لا يدوم ومامن متزوج إذا مرت به فتاة جميلة إلا اجتذبت قلبه، وبذل وسعه فى الوصول إليها"!

ويفسر برتون راسكو فى "عمالقة الأدب" بشكل آخر فيه محاباة لصوفيا، ماأصاب الزوجين بقوله: "وكان هذا أمراً لم تستطع إلى فهمه من سبيل .. إنه كان قد تغير كما كانت هى قد تغيرت أيضاً، لكنها لم تتغير بالطبع على النحو الذى غيره. لقد كانت هى إنساناً عملياً، منصرفة إلى واجباتها المنزلية،

تحاول أن تضم إلف أسرتها. وازداد الطين بلة، وأصبح تولستوى الذى كان لا ينفك تلسعه ذبابة الآمه المسعورة شخصاً قاسياً .. "لقد فكر مرة فى الزواج من امرأة فلاحة .. امرأة تعمل فى الأرض بيديها .. كما فكر فى الانطلاق بهذه المرأة فى الخفاء لكى يبدأ حياة جديدة .. وقد اعترف لى بذلك لكنه لم يفعل"!

(٨)

وهناك باعث آخر لا يقل أهمية أو قوة إن لم يزد، يشارك أيضاً فى العبث بالصلة بين صوفيا وتولستوى. ومع ذلك فإن كلا الزوجين لا يشير إليه، وإنما يخفيه بين جوانحه، ويضع الأثقال فى عنقه، ويبعده تماماً عن عيون الآخرين. الأولى خجلاً، والثانى رحمة بامرأته! هذا الباعث .. هو الجنس، أو العلاقة الجنسية بينهما! ومن المعروف أن المفكر والمصلح العظيم، ظل طول عمره يتمتع بقوة جنسية كبيرة. ويعزو لهذا السبب وإلى عربدة شبابه، ماأتصفت به ممارسته الجنس مع زوجه من اشتعال .. يتفق مع مزاج مندفع!

وأغلب الظن أن صوفيا فى البداية، لم تكن من المتهتكات على الفراش. ولكن إطلاعها عليه واستمتاعها به، حبب إليها هذا الأسلوب فى مزاولته .. وأضح جزءاً لا يتجزأ من نبض قلبها! يقول حسن محمود: "أقبل الزوج على زوجته الصغيرة بما أثر عنه من مبالغة فى كل شىء يأتيه، فكأنه يعاشر عشيقة لا زوجة. وأحبت الزوجة رفيق حياتها حباً كبيراً."

ومن الطريف أن تولستوى نفسه فى بعض كتاباتــه، نـاقش مثل هذا الجـانب وخطـره علـى البيـت والأسـرة. يقـول مـن خلال تناوله قضية الحب والجنس والمرأة، كأنه يعـرض لجـانب من حياته هو شخصياً. "إن الزوج الذى قـد فسـدت أخلاقـه من قبل الزواج، يحمل زوجته على عاداته ويعديهـا بالانهمـاك فى الشهوة، ويحملها مالا طاقة لها به. إذ تكون فى آن واحـد محظيـة وأمـا منهوكـة القـوى، وامـرأة مريضـة وسـريعة التـأثر وضعيفة الأعصاب. ثـم إن الـزوج يحبهـا كمـا يحـب الرجـل محظيتـه، ويتجـاهل كونهـا أمـا، ويبغضهـا لسـرعة تأثرهـا وتهيجها .. مع أنه هو الذى سبب لهـا ذلـك. وإنـى أرى أن هذا هو مفتاح جميع الالآم التى تشكو منها أغلبية العائلات".

وتستمر الناحية الخاصة جداً فى حيـاة الزوجـين، عزيـزة لا تمس .. حتى عندما بدأ الطمع فى المزيد من المال لدى صوفيـا ".. فبدأت بينهما تلك الحـرب الخفيـة، التـى استعملت فيهـا أسـلحة مختلفـة. والغريـب فـى هــذه الحــرب أن كــلا مــن المتحاربين كان لا يستطيع الاستغناء عن الآخر. فهى ترى فى استمرار تولستوى فى عناده، دليلاً على تحول قلبه عنها فتبكى وتصخب. وهو لا يطيق فـراق زوجتـه، ولا يطيـق مـع تقـدم سنه أن يجعل من علاقتة الزوجية علاقة صداقـة هادئـة، بعيـدة عن ذلك الاندفاع الذى ينغمـس فيـه الشبـان. وهكـذا تسير بينهمـا هـذا الحـرب الخفيـة، يتهادنـان فيهـا وقتـاً قصيراً، ثـم يعودان إليها فى أشد ماتكون".

وتكتب صوفيا فى مذكراتها الشخصية، كما يترجم صادق مرجان: "منذ عشرين سنة ماضية كنت سعيدة، وكانت مذكراتى تفيض بالحب لزوجى. أما الآن فإنى أجلس مهمومة، أقضى الليل لوحدى، أقرأ مذكراتى السابقة وأبكى فيها حبى المفقود. لقد هجرنى زوجى إلى غرفة مكتبه، وأصبحنا نختلف على أصغر المسائل وأتفهها. ولقد هاجمته مراراً من أجل عدم العناية بأبنائنا، ومن أجل عدم ملازمته "ايليا" فى مرضه. إيه. ولكن هناك ماهو أهم من ذلك. فقد فترت علاقته بى. وقد قال لى اليوم بأنه يحب من كل قلبه أن يتركنا .. لن أنسى له هذه الكلمات! فإنها قد مزقت قلبى. إنى أطلب الموت فإن الحياة بغير حبه مزعجة. ولكنه مشغول عنى مأخوذ بالتفكير والسعى إلى محاولة السير فى طريق كمال نفسه والسمو بروحه .. إنى أغار عليه .. أريد أن أموت، فإن أفكارى اختلطت واضطربت .. ولكن بعد قليل تلاقينا وبكينا وعرفت أن حبه لى لم يمت"!

والإعزاز المشترك تجاه الوجدان الخالص، أو الحب والجنس .. هو الذى حمى عيشهما وقتاً غير قصير من التفكك، الذى تعرض له فى النهاية. وهو أو هى، لم تكن يتخيل أن هناك شيئاً يمكن أن يعصف بهذا الجانب المعطر فى حياتهما. ولكنه وجد، وجاء من أبعد مكان يخطر على البال .. من المبدأ! لقد قاد تولستوى الإيمان الذى توصل إليه، ودراسته للأناجيل الأربعة فى أصلها العبرى واليونانى .. إلى جوهر الدين، والداعى إلى الحب والطهارة والعفة. وآمن بها إيماناً حقيقياً.

كل من أحله كل قديم عزيز عليه .. يتنافى معها. "إن كل رجل وامرأة بتول يعلم أن الطهارة يجب تقديرها صيانة لها، وحرصاً على عدم فقدها بتأثير ظرف من الظروف. وأن صوت الضمير يعترف دائماً بأن اتباع الشهوات أمر قبيح مذموم".

يقول سلامة موسى: "الحب عند تولستوى هو الحب للناس أولاً. ثم بعد ذلك لهذا الكون بكل مافيه من مخلوقات. تغمر إحساسات الحب حياة تولستوى. ولذلك لا نستغرب من تولستوى، أن يلتفت إلى معانى الحب التى دعا إليها الإنجيل".

ويتشكل الإيمان بالطهر والعفاف، الذى يجب ألا يقتصر على الأعزب بل المتزوج أيضاً. وأن يلتزم بروحه الرجل والمرأة معاً .. فى ألا يكون الجنس هدفاً لذاته، وإنما لحفظ النوع وتربية الأولاد. ومن كلمات تولستوى فى هذا الصدد:

- "إن جميع المصائب التى تنجم عن العلاقات الجنسية بالوقوع فى الحب، سببها أننا نخلط اللذة الجسمية باللذة الروحية. ومن البلية أن نقول بالحب، ولا نصرف عقولنا إلى استهجان الشهوة وقمعها، بل تزيينها بريش الطاوس الروحى!".

- "الهوى منبع الآفات وأس النكبات، لكننا لا ننأى عنه، ولا نضيق الخناق عليه، بل نثيره بكل ماأوتينا من قوة .. ثم نشكو منه، ونتوجع ونتألم ونتفجع".

• "طالما فكرت فى الوقوع فى الحب، فلم أجد له محلاً أو معنى. مع أن محله ومعناه واضحان جداً ومحدودان. إن الشبان الذين لا يستطيعون التمسك بالعفة التامة يجدر أن يكون حبهم قبل الزواج. إذ الشاب من سن السادسة عشرة إلى العشرين فصاعداً، يقاسى أشد الآم المقاومة فى هذه السنين الحرجة. هذا هو محل الحب، أما بعد الزواج فلا محل له وهو مزموم ممقوت!".

• "إن الذى يتبع التعاليم المسيحية لا يتزوج، إلا إذا شعر بعدم قدرته على البقاء عزباً. فإذا تزوج لم ينهمك فى الشهوة. بل يبذل مافى وسعه لكبح جماحها والرجل والمرأة فى ذلك على السواء!".

ولكن هذا لا يعنى إلغاء المصلح الناسك للغريزة، أو عدم اعتراف بأهمية الجنس. فهو لا يدعى ذلك، وإنما هو يطالب المؤمن بإعلائها. على أن تكون دافعاً للخير العام لا الخير الخاص. يكتب تولستوى:

"أننى أعلم أن العلاقات الجنسية فى الزواج ليست مخالفة للآداب، لكن يجدر بى إنعام الفكر قبل الخوض فى هذا الموضوع. إذ قد يوجد بعض الحق فى الرأى القائل بإثم هذه العلاقات حتى علاقة الزوج بإمرأته لمجرد التلذذ بالشهوة.

"أظن أن خطيئة قطع الشهوة كخطيئة الاتصال الطبيعى لمجرد اللذة، كما أنى أرى الشبع وكثرة الأكل أو شدة الجوع أو السم خطيئة أيضاً. أما الطعام الذى يراد به حفظ جسم

الإنسان لخدمة الإخوان، فهو واجب وكذلك الاجتماع الجنسى الذى يحفظ النوع الإنسانى".

"أننى أرى أن قطع الشهوة أشبه شىء برجل انهمك فى اللذات، ولنفرض أنه كان يسكر من الخمور التى كان يستخرجها من قمحه. ثم بدا له خطيئة هذا العمل وإثمه، فحرق القمح تخلصاً من هذا الإثم، بدلاً من استعماله لتغذية نفسه وغيره وتغذية الحيوانات. فالنتيجة أن إثمه لا يزال باقياً، وأن جيرانه يثابرون على استخراج الخمور، أما هو فلم يعد فى مكنته إطعام أسرته أو نفسه أو غيره.

"إن المسيح لم يمدح الأطفال عبثاً حيث قال: "إن لهم ملكوت السموات وإن ماخفى عن العقلاء مكشوف عنهم". ونحن نعلم ذلك فلولا الأولاد والنسل لما بقى مانأمل من ملكوت الله على الأرض فأملنا فيهم فقط!"

ويلتفت المفكر الكبير بوعى، إلى الدعاوى المضادة، التى تخاصم رأيه. وأهمها اعتراضان، الأول: أن تولستوى يتخذ موقفه بهذا الشكل، لأنه رجل عجوز، لم يعد قادراً على ممارسة الجنس. ولكن القدرة على الاستجابة لهذه الغريزة، لا صلة لا بالأعمار. فلعل شيخنا أكثر فتوة من شاب! والثانى: أنه يذيع هذا الفكر، بعد أن شبع من الدنيا، وعاش حياته مع المرأة بالطول والعرض! وأنهم على أتم استعداد إذا بلغوا سنه واستمتعوا استمتاعه .. أن يقولوا ماقال!

ولكن المبدأ يغزو والجميع شباناً وشيباً. كما أن تولستوى أدان ماضيه من قبل مراراً. ويعتريه الحزن .. كلما تذكر أنه عاش طول عمره كالوحش، ويصبح الآن غير قادر على العودة إلى إصلاح ماوقع له فى الأمس!

(٩)

أحدث القرار الجرئ أو التضحية العظية لتولستوى، بشأن توزيع أرضه على الفلاحين المعدمين .. مايشبه وقع قنبلة ضخمة شديدة الانفجار. تناثرت شظاياها فى كل اتجاه فى روسيا القيصرية وخارجها على السواء! وأعظم احتجاج على استغلال الحكام والأغنياء لأغلبية الشعب الروسى. الذين يعيشون دون الكفاف فى ذل بشع.

وكان القيصر والحكومة وحكام المقاطعات، هم أول من تلقى اللطمة. فقلم تولستوى، وهو بمثابة جهاز إعلام قائم بذاته، له فعل السحر فى الملايين فى وطنه وبقية العالم. ويخشاه الحكم من أول الجالس على العرش إلى المسئولين فى الأقاليم. ولما كانت المواجهة مع أديب عالمى، غير مأمونة العواقب. فقد أقامت مختلف العراقيل بطريق غير مباشر فى وجه تولستوى. حتى بات قراره نفسه بتوزيع أرضه، غير ميسر.

وأدرك المفكر الكبير أن تسلط الحكم الاستبدادى، الذى يتسلل إلى دقائق حياة الناس محاصراً إياها .. يمنع أصحابها عن الخير، أو المشاركة بأموالهم فى الإصلاح العام، الذى يجب أن

يرضى عنه الظالم، وهو لن يرضى. وهذا كله لم يمنع تولستوى من المضى قدماً .. فإذا لم يتح له اليوم أن يوزع أرضه، فليكن فى الغد القريب. أما فى الحاضر، فليكافح فيه حتى لا يزداد مالاً، يذهب أغلبه إلى أيدى زوجته المترفة وأولاده الذين لا يريدون أن يخشوشنوا!

ويهمل تولستوى متعمد استثمار ماله .. وتكون النتيجة المتوقعة نقص الإيراد! الذى لابد أن يفضى من ثم، إلى التقتير فى بعض جوانب الإنفاق! وتثار ثائرة الزوجة، ولا تعرف كيف تردعلى هذا الموقف. وإن تمنت أن تكيل لزوجها الصاع صاعين! ويعرض عليها تولستوى أن تدير هى أملاكه وأرضه وماله، وهو يعرف جهلها وجهل أولادها التام بهذه الشئون. وترفض مهتاجة، مما أدى إلى مزيد من اشتعال الشقاق.

ويخفف عن صوفيا قليلاً فى هذا المجال، مايجيئها من مكافآت كتبه. فقد ترك لها زوجها منذ وقت طويل هذا الجانب تديره وتشرف عليه. وكان المفكر العظيم الذى يريد أن تصل كلماته، إلى أكبر عدد ممكن من القراء، ولا يحرم منها الفقراء الذين يكتب لهم أصلاً وفى سبيلهم .. يتمنى أن تباع كتبه بسعر التكلفة، ولا يأخذ عليها مكافأة. ويتألم للاتفاقيات الحالية والسابقة، والتى عقدها مع دور النشر .. ويدفعون له بمقتضاها حقوق الطبع. ولذلك فهو من جانب آخر، كما يقول مجد الدين حفنى ناصف: كان يزجى مؤلفاته إلى فقراء الناشرين والأدباء، يفيدون هم من نشرها دون أن

يتقاضى هو نصيباً من المال، بل دون أن يحتفظ لنفسه - وأسرته من بعده- بحقوق النشر. فكانت امرأته تنفك تثنيه عن هذا أو ذاك"!

وفى تطور الأمور بين الزوجين إلى الأسوأ، كان كل مايتصل بالمادة يعكس الصراع الذى بينهما وتتسبب فيه صوفا. وكذلك فعلت قضية حقوق التأليف. وتلجأ الزوجة إزاء صلابة تولستوى إلى الخديعة التى اشتهرت بها. لقد أصبح المفكر العظيم فى مرحلته الأخلاقية يجد فى أعماله الروائية والقصصية .. حطا من شأن دعوته إلى السلوك الاجتماعى الدينى، الجديد. ولما كانت الأعمال الأولى هى الأكثر مبيعاً وتدر مالاً كثيراً، بعكس كتبه الأخرى .. فقد استهدفتها مؤامرة صوفيا!

"قالت له: "صحيح. هذا جميل ولكن فيما يتعلق بمؤلفاتك الحديثة، فهى ملائمة لفكرتك النبيلة التى تقوم عليها مبادئ رسالتك، وأنا أقرك عليها ياليف نيقولا لائيفتش، أما قصصك التى نبذتها عنك وأنكرتها أمثال "الحرب والسلام" و"أناكارنينا"، فهى مؤلفات شعبية وضيعة لا تصلح للوعظ والإرشاد، ولا لهداية أحد، ولذلك فهى تختلف كل الاختلاف عن غيرها"!.

يقول سليم سعدة: "واستقر الرأى على ألا يتقاضى تولستوى كوبيكا واحداً من بيع مؤلفاته الأخلاقية -وتلك كانت لا تباع بطبيعتها- ويستمر فى تحصيل حقوق التأليف

عن قصصه المنبوذة المحتقرة- إذ أنه كان ينبذها ويحتقرها- وتلك كان رائجة، وتباع بكثرة مدهشة.

"إنه اتفاق مدهش عظيم ومضحك فى ظاهره. ولكن هل هو مضحك فى ذاته؟ إنه يوضح بجلاء أنه يصعب على الإنسان أن يعيش كما يريد، وكما يقرر أن يعيش طبقا للفكرة التى يكونها عن الجمال".

التقرب إلى الله وفهم رسالة السماء الحقيقية وتطبيق التعاليم الخيرة .. هى التى وسمت تولستوى فى الثلث الأخير من حياته، بعد سنوات الانحلال والشك وعدم الإيمان. أنار الله بصيرته، حتى تفهم جوهر الأشياء، وعرف أين هى السعادة التى يلتمسها. عمل دائماً ومهما كان اختلافه مع صوفيا، على أن يكون الزوج المحب الحنون، ومع أولاده الأب البار .. ومع الغرباء، الأب والأخ والابن. يكتب إلى أحد أصدقائه:

"ليس أسعد ولا أجمل من أن تعمل للآخرين حين تكون قائماً بعملك أنت، إن رأسى تدور، أفكر كيف أرتب سائر أمورى، وأنصرف إلى سائر شئون حياتى الشخصية. ولكنى أرى أن أحسن الحلول فى هذا السبيل هو أن أفكر أولاً هكذا: ماأحسن ماأستطيع أن أعمله لفلان؟ ماخير المساعدات التى أقدمها لفلان؟ ثم فلان ممن هم حولى فى كل حين؟ بعد ذلك تتفتح بصيرتى وتزول من أمامى العقبات، وأجد كل شىء جميلاً ملائماً".

وتحول مواقف تولستوى الأخيرة صاحبها، إلى أكثر من قديس عند ملايين وملايين فى العالم وفى بلده. وتصفه صحيفة أمريكية بأنه التلميذ الثالث عشر للسيد المسيح. وتصبح ياسنايا قرية المفكر الكبير، بقعة مقدسة عند جماهير عديدة في روسيا وخارجها. يجيئون إليها لرؤية ساكنها، من شتى بقاع الأرض. مؤمنين بما يدعو إليه تولستوى، من التماس جوهر الأشياء وحده .. فى الدين والحياة على السواء. وترك الخزعبلات والطقوس الوثنية، التى تفسد وجه العقيدة، وتحول عبادة الله عن مسارها. وأن يكفروا بسيطرة المال على النفس البشرية. وكراهية الظلم والاستبداد، والتماس الحرية التى وهبها الله للإنسان، ولا يحق لأى مخلوق أن ينتقص منها .. فلا تكون مجالاً للمنع أو المنح. والتمسك بالسلام وبغض الحروب وعدم مقابلة الشر بالعنف.

وبدت تقوى تولستوى وصلاحه، فى خدمة مواطنيه الفقراء واختلاطه بهم .. ومثله التى تطمح فى غد أكرم للبشر، نموذجاً يحتذى فى كل مكان على الأرض. فقد أكد المفكر والمصلح العظيم، أن مبادئه قابلة مع التضحية للتطبيق .. وليست نظريات على الورق. وأن صاحبها لا يعيش فى برج عاجى، بل يعايش الناس البسطاء، ويعانى مشاكلهم وقضاياهم وأحلامهم.

وهذه المبادئ التى يؤمن بها تولستوى ويدعو إليها، يطبقها أول مايطبق فى بيته. وبالرغم من الصراع القائم بينه وبين صوفيا، إلا أن موضوعيته تنأى به عن الجنوح عن الأمانة.

ولذلك لم يغير من طبيعة العلاقة بينه وبين زوجته، التى كانت تبدو للآخرين متناقضة أشد التناقض! فالحب والعطف والحنان، هى مايفيض بها على صوفيا .. محاولاً أن يحيط بالخلاف فى أضيق نطاق. فلا عجب أن يبرر لها تجاوزها، ويعفو عنها. وعندما هاجم صحفى صوفيا لما تفعل بزوجها، سارع تولستوى إلى الدفاع عنها وتبرئتها! ومن الطريف أن صوفيا كانت هى الأخرى تكن له أرق العواطف، إلا حين يتصل الأمر بالمال! ومن هنا كانت زوجته تذوى قلقاً وألماً حين يمرض، فتتفرغ لرعايته والإشراف على علاجه، وهى تبكى إذا اشتدت به العلة وتألم! وتفعل المستحيل لتجئ بالطبيب. فمن المعروف أن تولستوى كان سيئ الرأى فى الأطباء ومهنة الطب!

ويكبر الأولاد وينضجون ويتخرجون من الجامعة، ويدركون بالضبط ماعليه فكر والدهم ومبادئه. فيقتنع البعض ويختارها، ولايقتنع البعض الآخر .. سواء من البنين أو البنات. ويساعد عدد منهم أباهم فى مهمته الروحية في الأساس، التى تتخذ من العمل خاصة اليدوى .. جهد الإنسان الخير.

ومع هذا كله ولأننا بشر، فلم يكن فى الإمكان أن يقوم الصراع المرير، أو الصدام الذى يكاد يكون يومياً .. بين صوفيا وتولستوى، بشأن الجانب المالى .. وهو بمثابة حياة أو موت عند الزوجة .. ولا يترك آثاره المدمرة على المدى القريب أو البعيد، فى نفس كل منهما. وإذا كان الكاتب العظيم يملك بحكم نقائه الروحى وصلاحه قبل ثقافته، أن لا

يرد على العنف بالعنف، وأن يكتم الآمه داخل نفسه. فإن امرأته المادية، لا تستطيع أن تفعل. وإنما تشتعل غضباً وحقداً، وتحطم فى النهاية كل الجسور بينها وبين رجلها فداء للمال!

ويكتب تولستوى روايته "سوناتة كروتزر"، وتشتهر .. قبل أن تطبع! فقد اعتادت الجماهير فى الزمن الأخير، وهى تعرف قسوة الرقابة على المطبوعات بالنسبة إلى كتابات الأحرار خاصة تولستوى .. وقراراتها بمنع النشر، الذى تكرر أكثر من مرة! أن تسارع بمجرد علمها بانتهاء تولستوى من إتمام كتاب، إلى نسخه باليد عدة نسخ .. وقراءة المؤلف فى مجموعات بعيداً عن العيون! وهو نفس ماحدث بالنسبة إلى هذه القصة!

وإذا كانت صوفيا فى كل حادث حظر نشر، تصب جام غضبها قبل كل شىء، على زوجها المتهور .. الذى كتب الممنوع، لا على الحكومة المستبدة التى كممت الأفواه. لأنه حرم بذلك من مكافأة التأليف، التى كانت تتطلع هى كالعادة إلى الاستئثار بها سواء وافق تولستوى أو لم يوافق! أما فى هذه المرة، فكان غضبها مضاعفاً. وفكرت جدياً فى الانتحار. لأنها عادة كانت تهزل، وهى ترفع سلاح الانتحار مهددة .. تخيف به تولستوى ليستسلم لتسلطها وينحنى للعاصفة! وكان الرجل لا يعبأ باللعبة السمجة، ولا يلقى إليها بالاً، ويعرف أنها أذكى ولا يقول أجبن، من أن تفعل! والسبب أن المنع تجاوز خطره التقليدى بالنسبة لها، إلى

الفضيحة الأخلاقية بعد أن أشيع على نطاق واسع بين الجماهير، أن تولستوى صور فيها زوجته أصدق تمثيل!

وبالرغم من أن صوفيا تعرف الفارق بين الواقع والخيال، وماعليه طبيعة عملية الخلق القصصى. إلا أنها هى الأخرى اقتنعت وكلها ثورة، أن تولستوى صورها هى بالذات فى شخصية الزوجة الخائنة! وزاد من الاقتناع أن كاتب القصة، يتناول فيها موضوع الطهارة التى يدعو إليها المفكر العظيم، حتى فى الزواج. ويعنى أن لا يكون الجسد هو جوهر العلاقة بين الزوجين، والرابطة التى تجمعهما. بل الحب والرحمة والحنان أولاً، على عكس ماتؤمن به زوجته وتريد! وهذا الاتفاق بين واقع الحياة وواقع الفن فجر الشكوك فى المرأة الحقيقية، التى تظهر على مسرح الأحداث فى القصة!

ولم يعبأ تولستوى بظنون زوجه، ولكنها هى أخذت تخطط لإفساد مؤامرته، كما ذهب بها الوهم! ووجدت أن أحكم ماتصنع هو أن تلجأ إلى حاكم البلاد .. القيصر! تطلب منه أن يأمر بالإفراج عن القصة، الذى يعكس أنها ليست المقصودة. وبالفعل تطلب الإذن بمقابلته، ويأذن! وتخرج وقد أجيبت إلى طلبها! ومن الطريف أنها عزت نجاحها إلى شخصيتها هى، التى أعجب بها القيصر، وليس إلى مكانة زوجها. وعندما يعلم تولستوى بالزيارة، يسخر من تفاهة صوفيا، التى تجشمها من العناء ماهى فى غنى عنه!

واكب اتجاه تولستوى الروحى، البعد التام عن الترف فى الباطن والظاهر. فهو يختار من حجرات قصره، أبسط أو أحقر غرفتين فيه. كانا فى الأصل مخصصتين للخدم، ينام فى واحدة، ويستقبل ضيوفه فى أخرى! وبينما كان القسم الأكبر من الدار، الذى تقيم فيه زوجته وأولاده .. يضج بالضحكات الصاخبة والحفلات، كان هو فى غرفته يكتب ويقرأ، أو يحاور زواره فى أفكاره.

وتتعرض حياة الزوجين لزلزال جديد، مستهدفاً فراغ قلب الأنثى لإشاعة الاضطراب، والعبث. ولقد ظلت زوجة تولستوى محافظة على نقاء سيرتها طوال زواجها. ولاشك أن النزاع الحاد أو الخلاف المستمر بينها وبين تولستوى، الذى فرضه شدة حرصها على المال. أوجد شرخاً عاطفياً، تسللت منه الريح الباردة تهب على القلب. فتفزع صوفيا باحثة عن الدفء عند رجل آخر! وتعثر عليه فى صديق موسيقار يتردد على الأسرة!

وتشارك عوامل أخرى فى تقوية الصلات بين زوجة تولستوى والموسيقار. فتقدم العمر وإنجاب ثلاثة عشرة ابناً وابنة، والأعصاب الثائرة .. تركت بصماتها الحادة على وجه ونفس صوفيا .. فانزلقت إلى مراهقة كبار السن، عندما يهزهم تساقط الأوراق! بجانب الحقد الذى تملكها ضد زوجها، وهو لا يريد أن ينطوى تحت جناحها. فأرادت الثأر

منه، وإيلامه فى مقتل! ولعلها أرادت أيضاً أن تجرب ثانية بعد فشلها زمان، استخدام سلاح الغيرة!

وتقوى العلاقة بين الخريف والربيع، ويصبح الموسيقار الشاب واحداً من زوارها الدائمين. كما لا تجد صوفيا بأساً فى أن تزوره فى بيته .. وأكثر من ذلك، من أن تستضيفه عدة أيام فى بيتها. وتلوك الألسنة سيرتهما، ولا يخفى الأمر منذ البداية على تولستوى نفسه .. ويتألم. كما التفت إلى العلاقة أولادهما أيضاً. وهى مع ذلك متشبثة بصحبة الشاب .. التى هى علاقة بريئة ومجرد إعجاب بفنه .. على حد قولها.

ويختلف الناس إزاء هذه العلاقة إلى فريقين .. الأول: يذهب إلى أن صوفيا قد خانت زوجها، والتفت بالموسيقار فى الإثم. فالصلة القوية بين الاثنين، لا تتيح لأى منهما أن يكون ملاكاً عفيفاً شريفاً! وإن تبرأت صوفيا من الاتهام أمام الناس، وفى مذكراتها الشخصية! أما البعض الآخر فيعتقد أن الزوجة ذات الطبيعة العصبية، ظلت حتى مع عراكها مع تولستوى وفية له. لأنها من ناحية متدينة تبغض الفجور. ومن ناحية ثانية كانت تستطيع لو أن هناك ماتخشاه، أن لا تظهر صلتها بالموسيقار. وتمارس علاقتها فى السر، فلا يعلم بها أحد.

وبالرغم من تبرم الأبناء وضيقهم الشديد بالموسيقار، الذى أصبح لكثرة تردده، كأنه من أفراد الأسرة. وبالرغم من غضب تولستوى الذى لم يخفه .. إلا أن الزوجة استمرت فى الحفاوة بصاحبها ودعوته كل يوم إلى الدار. غير عابئة بأحد،

كأنها تسخر من الجميع! تكتب صوفيا إلى صديقة لها: "كلما فكرت فى ضيق زوجى وغيرته العمياء، أحسست بشىء كثير من الغضاضة والخجل، ورغبت فى وضع حد لهذا كله. فالموت أهون من اتهاماته السيئة إلى، أنا التى حرصت طوال حياتى أشد الحرص على ماتوجبه اللياقة. حتى لا يجد زوجى ولا أطفالى فى سلوكى ماأخجل منه"!

وسواء كانت هناك صلة مريبة أو لم تكن، فقد بدا على صوفيا كما لم يحدث من قبل .. أنها تريد أن تكيد لزوجها كيدا! بنفس الحماس الذى تكره أن تناقش اندفاعها! فهل هو الاحتجاج الأنانى على ابتعاد تولستوى عن عالمها .. الاحتجاج على نسكه وزهده وصلاحه. والرغبة الآثمة فى أن يعود ثانية إلى دنياها بكل مافيها من مادة وجنس متهالكين؟ أم نزوة طائشة فى أن تشوه سمعته، وتجعله فيما يتصل بشرفه، مضغة فى الأفواه. وهى ثغرة يسعد لها أعداؤه، حتى لو تعرضت هى للريب.

ولا يجد المفكر الكبير وامرأته تستضيف الموسيقار أياماً طويلة، إلا أن يهجر البيت. ولم يعد إلا بعد أن ترك تانييف المنزل.

(١٠)

يموت الزامر وأصبعه يلعب .. وكذلك صوفيا. فإن اقتراب الشيخوخة، لم يهيئها لمرحلة أخرى من الاتزان .. أو التسامح أو الروحانية. بل زادها جشعاً وطمعاً وتكالباً على الحياة،

التى لا طعم لها عندها إلا بكثرة المال. وكان تولستوى صاحب البدن القوى، الذى اقترب من الثمانين ثم تجاوزها، ولا يزال يمارس فنوناً من الرياضة .. قد عرف المرض، وخيف عليه أكثر من مرة. ويبقى طريح الفراش وقتاً يقصر أو يطول. ومع ذلك فإن زوجته لا ترحم ضعفه ساعة مرضه. وأهم مايشغلها ليس شفاؤه، بل وصيته. فهى تفزع ولا تنام الليل، خوفاً من أن يكتب وصية، لا تترك ماكل مايملك فى يدها.

وكان هناك أيضاً مايكربها قبل موته، بنفس ماتحمل لفقدان مال .. وهو مذكرات زوجها الشخصية التى أودعها عند بعض صحبه. فهى تخشى أن تنشر بعيداً عنها، وفيها بالطبع كل ماعاناه تولستوى منها. فتحطم صورتها الوردية أو ملامح الزوجة النموذجية، التى تقف بجوار رجلها العظيم، تهيئ له العش الهادئ الذى يشجع نبوغه على التمكن والانطلاق. هذه الصورة التى تحاول بها صوفيا أن توهم بها الناس، سوف تفتضح وينكشف قبحها وغلظتها وقسوتها. وتعمل المستحيل على أن تحصل على المذكرات، وتلجأ فى ذلك إلى ماتجيد المرأة المخادعة.

فهى تضرب على الوتر الحساس فى زوجها .. إحساسه الرقيق وعطفه ورقته. تخرج فى ساعة متأخرة من الليل، لتنام فى البرد على الحشائش، تصرخ وتبكى وتلطم خديها .. كمن فقدت الرشد! أو تعد المخدر أو السم .. زاعمة أنها تريد أن تقتل نفسها .. فيجن جنون أولادها. ويهرعون إلى أبيهم فزعين، طالبين أن يسارع بإنقاذها والاستجابة لها. ولا يملك

الرجل العجوز المريض، الذى يطمع أن يعش أيامه فى هدوء وصفاء .. إلا أن يسترد مذكراته من صديقه. ولكنه لا يتركها لزوجته، بل يودعها فى البنك!

ومع أن صوفيا استطاعت بمظاهراتها من البكاء والعويل والتشنج والتهديد بالإنتحار ليل نهار، أن تنزع من زوجها حكاية توزيع الأرض من الوصية. إلا أنها تطمع فى المزيد .. حقوق نشر كتبه التى تدر سنوياً الالآف، من وطنه وخارج وطنه. ولكن تولستوى يرفض ويرى أن يترك هذه الحقوق مباحة لمواطنيه جميعاً .. يؤيده فى ذلك أصحابه وتلاميذه. فإن ترك مكافآت كتبه لزوجته، يفسد على تولستوى صدق دعوته بالنسبة للجماهير التى تعرف عنه أنه فعال لا قوال. ويجعلها تؤمن بما يذهب إليه أعداؤه، من أنه مخادع كبير.

ويوافق المفكر العظيم، بل ويذهب إلى أبعد من ذلك .. فلا يزال إيمانه بتوزيع أرضه على الفلاحين فى ضيعته، قائماً إلى آخر نفس فى حياته. ولذا فهو يترك حقوق كتبه جميعها، حتى هذه التى تركها لصوفيا من قبل .. لابنته. على أن تشترى بها ضيعته، ثم توزعها كما طمع دائماً على فلاحيه. وتتم كتابة الوصية سراً، وفى شبه مؤامرة وسط أصدقائه. بعيداً عن ملاحقة صوفيا وتجسسها عليه!

ويبلغ الحقد بصوفيا درجة لا تطاق. ربما لأنها لم تجد من يوقفها عند حدها، فى المعركة غير المتكافئة مع زوجها. أو لأنها أخرجت أبناءها من اللعبة التى تزاولها، إلا أن يكونوا فى

صفها. ولكن الأولاد والبنات بدأوا يتحركون، ويثورون لقسوة أمهم على أبيهم .. وأدركوا أن بكاءهم عليه ورثاءهم له، أحقر من أن يكون شعور أبناء إزاء أبيهم العطوف الحنون. فجابهوا الأم المتسلطة، وهددوا أنهم لن يسكتوا بعد الآن. وعمدت صوفيا إلى وسائلها التى تمارسها فى الخداع .. من بكاء وتشنج وطلب الموت .. لتمتص غضبهم، ولكنها لم تفلح. وكان إدراكها بحقيقة مشاعرهم، أقسى عليها من فشلها فى ضمهم إلى صفها! واضطرت خوفاً من أن يتفاقم الخطب مع أولادها، إلى التخفيف من حملتها على زوجها! وإن لم تخف كراهيتها لابنتها الكسندرا، التى تقود الحملة ضدها!

وإذا كان هذا موقفها مع فلذات أكبادها، فماذا ينتظر أن يكون إزاء الغرباء؟! القسوة الحيوانية التى تظل تضغط على المفكر الأديب، ليبعد عنه أقرب الأصدقاء وأخلصهم. وتتفنن فى ذلك بأسلوب مريض، يمكن أن يؤكد لوثتها العقلية كما يذهب البعض من الدارسين! أو هو تقديس المال، والغيرة الحمقاء إلى الحد المطلق. وتنجح مرة أخرى الزوجة الأنانية المتسلطة، فى إيذاء الرجل الصالح فى نفسه .. وتبعد عنه صاحبه شيرتكوف.

وكأنما كتب على تولستوى الذى يعده الكثيرون، نبياً فى غير عصر النبوات .. أن يلاقى أبشع العذاب على يدى زوجته. وأن تستغل ضعف شيخوخته بالذات، لتعمل كل مايسوء. فهى مع استيلائها على ريع أملاكه، لا تحاول أن

تكف يدها عن عقاب القرويين. حتى لأجل خاطر زوجها صاحب المال والأرض جميعاً، الكاره للعقاب والمنادى بالرحمة. فإذا سرق الفلاح مضطراً، أبلغت الشرطة فضربته وحبسته. بينما كان تولستوى الذى يعرف مدى فقر الفلاح، يتجاهل السرقة حتى لو شاهدها بنفسه كما حدث مرارا! ويحاول المفكر العظيم فى سرير مرضه، أن يردع امرأته .. فلا ترتدع فتنتكس صحته، أو يقع مغشياً عليه، أو يصاب بحالة ضعف الذاكرة.

ويجد الرجل العظيم، أن الحال أصبح أقسى مما يحتمل. وأن لا مقام له فى بيته بعد ذلك، ثانية واحدة. فهو لا يتمكن من عبادة الله بالفكر والعمل، وهو لا يترك لتأملاته الروحية. بل لعذاب إمرأته دونه عذاب جهنم. ويدرك تولستوى أنه أخطأ من قبل فى نكوصه، لئلا يحزن أولاده. ويقرر مع مرضه الشديد، أن يهاجر إلى أى مكان آخر. أنه يحلم أن يقضى أيامه الأخيرة مع الله .. ويزيل من نفسه الغضب على امرأته!

ولا يفكر لحظة واحدة ثانية، بل يسر لابنته الكسندرا بما انتهى إليه. ويطلب معاونتها فى تجهيز حقيبة له، ويصحبه طبيبه المقيم. ويتسللان من المنزل فى ساعة مبكرة من الصباح، فى هدوء شديد، خوفاً من أن تنتبه إليهما صوفيا، ويكون آخر مايفعل قبل أن يترك بيته، الذى لن يعود إليه ثانية وهو على قيد الحياة .. أن يكتب خطاباً متسامحاً إلى زوجته!

"أعلم أن فراري سيحزنك وإني لآسف! ولكنني أرجو منك أن تصدقي وأن تفهمي أني لم أكن أملك غير ذلك. وفضلاً عن كل شيء آخر لم أكن لأستطيع أن أحيا في ذلك الترف الذي كان يحيط بي حتى اليوم. إني أهرب من الدنيا لأقضي أيامي الأخيرة في هدوء وعزلة. إني أشكرك على تلك الأعوام الثمانية الأربعين التي عشتها في شرف معي. وأرجو منك أن تغفري لي ماعسى أن ألام عليه نحوك، كما أغفر من أعماق نفسي كل ماعسى أن تلامي عليه .."

النضال البطولي الذي ناضله المفكر طول عمره، يلازمه إلى آخر حياته .. الصفح عن زوجته، والاعتذار عن أي ألم سببه لها!

وبينما يستقبل تولستوي هجرته بروح راضية مرضية، ومع تضعضع الجسم والمرض الذي يهد .. تصدم زوجته صدمة أذهلتها، وهي تعلم بالنبأ. فقد وقع ما لم تتخيل حدوثه أبداً. يصور على الخفيف، كذب صوفيا وضعتها وألاعيبها حتى في وقت الشدة بقوله: "ثارت المسكينة ثورة عنيفة حين علمت بفرار زوجها، وألقت بنفسها في البركة، فأسرعت الكسندرا وأخرجتها منها بمعونة أحد الضيوف من أتباع أبيها، ولكنها عادت مرة ثانية في غفلة من ابنتها وألقت بنفسها في الماء فأخرجها هذا الضيف وبعض الخدم، وعادوا بها على رغمها إلى البيت وهي تبكي، وتهذي وتتهدد وتتوعد. ولما أحاطها أفراد الأسرة بالرقابة قالت إنها سوف تثب من النافذة وسوف تبحث عن زوجها. وسوف تجده وتعود به إلى بيته. ثم

أخذت تضرب صدرها بكل ماتقع عليه يدها، وكلما انتزعوا منها شيئاً أخذت غيره وهى تصرخ مجنونة لا تهدأ. ثم أبرقت إلى زوجها باسم ابنته الكسندا ليعود، وأرسلت فى اليوم التالى تستدعى شيرتكوف. ولما لم يحضر أبرقت ثانية إلى زوجها تقول: "إنها أزالت مابينها وبين شيرتكوف وأنها تموت وترجو منه أن يعود ليراها". وفى نفس الوقت أفضت إلى رجال الصحافة بقولها "إن زوجها مافر إلا ابتغاء الإعلان عن نفسه"!!

اختار تولستوى مبدئياً أن يتجه ومعه مرافقه الطبيب، إلى حيث تقيم أخته مارى وابنها فى أحد الأديرة البعيدة. وأمضيا عدة ساعات مضنية، قبل أن يصلا إلى المحطة القريبة من الدير. ولكنه لم يمكث إلا بضعة أيام خشية أن تعرف زوجته المكان. ويتخذ القطار وقد زاد به المرض إلى مدينة روستوف، ولكنه قبل قرية استابوفو تشتد به العلة. ويبدو فى حالة سيئة، يخشى منها المريض على حياته، خاصة إذا تابع السفر. وكان تولستوى لا يزال مالكاً لوعيه، بحيث حيا الجماهير التى فطنت إلى وجوده بالقطار والمحطة على السواء. وكانت هذه الجماهير من بنى وطنه، الذين أحبهم، وعمل من أجلهم، وضحى فى سبيلهم .. هم آخر من وقعت عليهم عيناه. فقد أصيب بإغماء ولم يعد يدرى شيئاً.

وكان أقرب مكان يمكن أن يسعف فيه المفكر العظيم، هو مبنى محطة سكة الحديد ذاته .. حيث يقطن ناظر المحطة فى دوره العلوى. وماكاد الناظر يعرف بشخصية المريض، حتى

نـزل عـن طيـب خـاطر عـن مسـكنه الفقـير كلـه للمصلـح الأسطورة. واكتشف أن تولستوى قد أصيب بالتهـاب رئـوى خطـير، وأن صـدره المنهـوك لم يتحمـل السـفر بالقطـار وفـى درجته الثالثـة. ويفيـق مـن إغمائـه لحظـات، ليعـود ثانيـة إلى الغيبوبة. ويبعث فى طلب أبنائه وأصدقائه.

وانتشر الخبر في روسيا والعالم أجمع. وهلعت الملايين للنبـأ .. كأن المريض العزيز مـن الأهـل! وجـاء إلى القريـة الصغـيرة أناس كثيرون من جميع الأنحاء فى الداخل والخـارج صحفيـون وأدبـاء ومثقفـون وأميـون وأفـراد عـاديون .. آبـاء وأمهـات وشباب وشيوخ .. وأفراد وجماعات، يطمعون أن يلقوا النظرة الأخـيرة، علـى إنسـان خَيِّر أحبـوه. ومـن أصحـاب الأقـلام العـرب، الـذى اهـتزوا لهجـرة تولسـتوى وفـراره مـن بيتـه . الكاتب المصرى المشـهور مصطفـى لطفـى المنفلوطـى. الـذى يكتب مواسياً معظماً: "قف ساعة واحدة نودعك فيها قبل أن ترحل لطيتك، وتتخذ السبيل إلى دار عزلتك، فقـد عشـنا فـى كنفك على مابيننا وبينك من بعد الدار، وشـط المـزار، عهـدا طويلاً كنا فيه أصدقاءك وإن لم نـرك، وأبنـاءك وإن كـان لنـا آباء من دونك، وعزيز علينـا إن تفارقنـا قبـل أن نقضـى حـق عشرتك بدمع نزرفه بين يديك فى موقف الوداع".

وكان تولستوى فـى لحظـات يقظتـه، قـد طلـب مـن ابنتـه الكسندرا .. ألا تدخل أمها عليه فى مرضه الأخير. نعم لقـد صفح عنها ولا يزال، ولكنه لا يريد أن يعرض نفسـه للعـذاب من جديد .. إذ تمثل صوفيا أمامه. ولكن زوجتـه لم تعبـأ بمـا

أحب إذ جاءت القرية. ولعلها أرادت متشفية أن تحاصره حتى النفس الأخير، ولم يرهبها الموت الذى يرفرف بجناحيه على الحجرة. ولم تتأثر بمرأى احتضار الزوج .. الذى جعل لها قيمة وشهرة وأسعدها سنوات طويلة. بل كان همها توكيداً لادعاء حبها العظيم لزوجها العظيم، أن تتخذ أوضاعاً تمثيلية بجانب فراش زوجها المحتضر .. ليلتقطها مصورو الصحف! الأمر الذى أثار ابنتها الكسندرا المهمومة المحزونة، فنهرت أمها بغلظة على عبثها السخيف الفظ. فى وقت كان الغرباء من كل جنس ولون يبكون وينهنهون، وهم فى شدة الأسى.

وفى السابع من نوفمبر سنة ١٩١٠، يموت الإنسان والمفكر والأديب ليو نيقولا يفتش تولستوى. ويستريح تماماً من عذاب امرأة، سارت بذكرها الركبان .. وزوجة عدت على مر الأجيال والأزمنة .. من ذوات الأنياب!

الفهرس

للمؤلف

مواقف واتجاهات

المجلس الأعلى للفنون والآداب ط١	١٩٦٩
دار سنابل ط٢	١٩٩٤

مسرح محمد تيمور

المكتبة الثقافية – الهيئة العامة للكتاب ط١	١٩٧٥
دار سنابل ط٢	١٩٩٤

مسرحيات فى الوهج والظل

كتاب الهلال – دار الهلال ط١	١٩٧٦
دار سنابل ط٢	١٩٩٤

فى القصة القصيرة

المجلس الأعلى للفنون والآداب	١٩٧٦

وجوه قصصية قديمة وجديدة

اقرأ – دار المعارف	١٩٧٨

يوسف السباعى بين الأيام والليالى

الكتاب الذهبى – روز اليوسف	١٩٧٩

عالم يوسف السباعى

المجلس الأعلى للفنون والآداب ط١	١٩٧٩
دار سنابل ط٢	١٩٩٤

محمد السباعى

كتاب المواهب - المركز القومى للفنون والآداب ١٩٨٢

أجيال ضد الماركسية

دار الأصالة للثقافة والنشر بالرياض ١٩٨٤

عاشق الحرية ولى الدين يكن

أعلام العرب - الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٧

دراسات نقدية

المكتبة الثقافية - الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٠

قلوب عاشقة دار سنابل ١٩٩٣

مجالات إسلامية دار سنابل ١٩٩٤

فنان زمان دار سنابل ١٩٩٥

الفنان والحب دار سنابل ١٩٩٥

إسماعيل مظهر رجل الفكر وعاشق الحرية

(شخصيات لامعة) دار سنابل ١٩٩٥

زكى مبارك عملاق الأدب

(شخصيات لامعة) دار سنابل ١٩٩٥

أنيس منصور بين بلاد الله وخلق الله

(شخصيات لامعة) دار سنابل ١٩٩٥

محمد طلعت حرب والعبقرية المصرية

(شخصيات لامعة) دار سنابل ١٩٩٥

أحمد حسن الزيات والقرية

(شخصيات لامعة) دار سنابل ١٩٩٥

فرح أنطون والمسرح

(شخصيات لامعة) دار سنابل ١٩٩٥

شعراء اليقظة الإسلامية فى بداية القرن العشرين

دار سنابل ١٩٩٥

أجيال روائية دار سنابل ١٩٩٥

نساء ورجال دار سنابل ١٩٩٥

رقم الإيداع ٩٥/٨٥٣٠

I.S.B.N 977-5657-12-1

دار سنابل للنشر والتوزيع

المنصورة ١١٢ شارع السكة القديمة

دار سنابل للنشر والتوزيع

المنصورة ١١٢ شارع السكة القديمه

